يوسف سامي اليوسف

تلك الأيام

الجزء الأول

الإهداء

إلى شهداء لوبيا

لقد رأيت حتى أصابني الذهول

يوسف

لو بُدّلت أعلى منازلها

سُفلاً وأصبح سفلها يعلو

فيكاد يعرفها الخبير بها

فيرده الأقواء والمحل

لعرفت مغناها لما احتملت

مني الضلوع لأهلها قبل

الحارث بن خالد المخزومي

مد خل

ذات يوم أصيب هذا العالم بنوبة من الجنون العارم، فأصدر قراراً ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، إذ أسفر عن تشريدنا، نحن الفلسطينيين، صوب كل أفق وتحت كل سماء. وما كان ذلك القرار الشرير إلا شهادة ميلاد لكيان طفيلي مصطنع أو زائف. ومن شأن تلك الشهادة أن تزود الصهيونية المعتدية بالسمة الشرعية، وأن تخولها الحق في اقتلاعنا من بلادنا بقوة السلاح، تماماً كما يقتلع السن من اللثة، وذلك إثر عدد من المجازر الشنيعة السوداء. وبواسطة ذلك القرار نفسه استطاع الغربيون أن يعيدوا إنتاج مشروع تاريخي قديم يهدف إلى بناء كيان غير عربي في فلسطين. وهذا يعني أن حقدهم الكالح قد توارى لمئات السنين، ثم ظهر للعيان في الوقت المناسب. يقول أحد الشعراء التراثيين:

وقد ينبت الخطي في دمن الثرى وتبقى حزازات الرجال كما هي

ومما هو ناصع تمام النصوع أن ذلك الكيان الطفيلي أقرب إلى الغيتو (حارة اليهود) أو المعزل منه إلى الدويلة أو البنية السياسية. إنه كيان شاذ في كل شيء، فضلا عن أنه نتاج لأغرب غزوة عرفها تاريخ العالم بأسره فلقد تسلل سكانه المتباينون، بل المتناقضون، والذين جاؤوا من ثلاثة وثمانين قطرا، إلى فلسطيننا الحبيبة تحت حماية بريطانية التي وضعت نفسها في خدمة الصهيونية على نحو شائن أو ثالب للكرامة والشرف. ومن الغرائب حقا أن الاورو أمركيين لا يشعرون بأنهم أفرطوا في خدمة الصهيونية إلى حد لا عقلاني يدعو إلى الشفقة، أو يثير في المتفرج المحايد شعوراً بالاستهجان، ولا سيما حين يرى الجميع وهم يتأرنبون أمام الصهاينة أو أمام إرادتهم الابليسية.

ولكن، لا افتئات على الحقيقة إذا ما ذهب المرء إلى أن الغيتو الصهيوني الذي بناه الغربيون في بلادنا ابتغاء إدراج اليهود في صلب منطقتنا إلى الأبد على حد

زعمهم، ليس سوى أكذوبة سردها الشيطان نفسه، وذلك لأنه يعيش متطفلاً على سواه، كما أنه يحتاج إلى استنفار العالم كله، من اليابان شرقاً إلى اليابان غرباً، كي يتمكن من البقاء على قيد الحياة. وفضلاً عن ذلك، فإن الغيتو الصهيوني قد صنع للشعب الفلسطيني مأساة كربلائية لها سمة الديمومة، أو الاستمرار طوال أحقاب وأحقاب. وهذه واحدة من صفاته اللاعقلانية الكثيرة.

أما العالم العربي الرسمي فقد تدخل يومئذ لصالح الفلسطينيين في الظاهر، ولصالح العدو ففي الباطن. فلكم علمتني الأيام أن ظاهر الشيء كثيراً ما يكون مغايراً لباطنه تمام المغايرة. فلا مراء في أن إسهام العرب الرسميين في بناء الغيتو الصهيوني هو أكبر بكثير من إسهام أوروبا وأمريكا مجتمعتين. فالأنظمة العربية تسلم ثرواتها لليهود وتترك شعوبها تكابد الفقر المريع في معظم أرجاء العالم العربي. وهذا يعني أن اسهام تلك الأنظمة في صنع مأساتنا الكربلائية هو أكبر من اسهام الغربيين مجتمعين. ولقد خذلتنا المنطقة العربية أيما خذلان، وغشتنا لصالح اليهود، وعن سابق عمد وتصميم. فالأنظمة العربية لا تملك البتة إلا أن تنفذ أوامر أسيادها. ولكننا نجد عزاء لنا في حقيقة مؤداها أن هذه المنطقة نفسها قد خذلت هنيبال والسيد المسيح والحسين بن علي. ماذا هل نحن في دائرة الخذلان؟

ولعل في الميسور أن يؤكد المرء على أن ذلك الغيتو لا يزدهر ولا يعمر الا إذا أحيط بالخراب من جميع الجهات. وربما لاحظ من له قدرة على الحضور أن العالم الاسلامي بأسره، من المغرب حتى اندونيسيا يتعرض كل يوم لتخريب ممنهج في هذا الجيل الأخير من أجيال التاريخ. وبما أن الدين الاسلامي نفسه يشكل مصدر خطر على أمن الغيتو الصهيوني، بل على وجوده ومستقبله، فإن اليهود وخدمهم الغربيين سوف يحاولون اقناع غير المسلمين بأن هذا الدين هو عقيدة ارهابية لا وظيفة لها سوى الاعتداء على البشر، أو على الآخر حصراً. أما الذين اجتثوا الهنود الحمر، وضربوا هيروشيما بالسلاح النووي، فملائكة

هبطوا من السماء. وفي الحق إن العالم كله مستنفر ليسهر على أمن الغيتو الباهظ التكاليف. ثم ان على الانسان العربي أن يقتل يوميا، وأن يهدم بيته على رأسه، أو أن تنهب ثرواته على الدوام، ومع ذلك كله فإنه ارهابي ومخرب ويستحق جميع أصناف التنكيل، ولا سيما التنكيل الكارث الفاجع والنائي عن كل عقلانية أو انسانية. والويل له إن حاول أن يدافع عن نفسه بأية طريقة من الطرق. وليتخيل المرء هذا الصهيوني البائس وهو مجبر على أن يختار واحداً من خيارين: إما أن يمارس القتل يومياً، وإما أن يزول من الوجود إلى الأبد. فأية حياة هي هذه الحياة التي يعيشها الصهيوني المسكين؟

أليس في السداد أن يقال بأن النصر المؤزر الذي أحرزه الصهيوني في الزمن الحديث قد جاء مشروطاً بهزيمة الانسان؟ فاليهودي ذو النفس الصفراء والوجدان الذابل لا يملك أن ينتصر الا في طور تاريخي أصفر ذابل هو الاخر، أي إن من المحال أن ينتصر إلا في أزمة الانحطاط الشامل الذي التهم الحياة كلها وأحالها الى رماد، أو إلا في هذا العصر الذي لا يفهم من اللغة سوى كلمتين: المال والسلاح. لقد خسرت الدنيا بكارتها والحياة عذوبتها، وبعد ذلك انتصر اليهودي فصارت له السيادة على هذه الارض اليباب. ولكن، أن يصير لليهود جيش ويتحدى الناس، فإن ذلك من العجائب والغرائب حقاً. ولا مرية في أن التاريخ يمزح اليوم على نحو صبياني سخيف. وأمام هذه الواقعة الزائفة، أعني امتشاق اليهودي للسلاح، مما جعله يتبدى كالصبي الذي يرتدي عباءة جده، أجدني ميالاً إلى الضحك أو إلى الابتسام الساخر، على الأقل. ولكن هذا المزاح التاريخي قد صنع مأساة للطرفين المتناحرين كليهما. وربما جاز الزعم بأن اليهود علامة شيخوخة تاريخية في العالم الحديث. فلقد بدأ الجنس البشري ينحط، بل يهرم، منذ ترسخ نفوذ اليهود في القرن الثامن عشر، وذلك بواسطة العمل في الظلام كما يعمل الخلد. ولا مخرج من هذه الشيخوخة البتة، إذ بيّن ابن خلدون أن الهرم إذا وقع في البنية الحية فإنه لا يرتفع.

ومن الغرائب أن ينتصر جيش الصهاينة دون أن يقاتل أيما قتال ذي بال، بل من العجائب أن ينتصر، مع أنه خسر جميع المناوشات التي خاضها ضد الجيوش العربية في عام النكبة، عدا الصدامات الصغيرة التي جرت بينه وبين وحدات طفيفة الحجم، مثل تلك المائة من الجنود السوريين التي أبيدت في جوار قرية الجش عند انتهاء الشهر العاشر من تلك السنة السوداء.

إنني أتحدى أي مؤرخ ممن يطيقون الموضوعية، أو النزاهة، أن يثبت ما فحواه أن جيش الصهاينة قد انتصر على أي جيش عربي في ذلك العام، دون أن استثني حصار الفلوجة المشهور. ترى، ألم يكن في ميسور القيادة المصرية أن ترسل فرقة جديدة كي تحاصر الصهاينة الذين كانوا يحاصرون الفلوجة؟ ثم إن بعض الضباط المصريين المحصورين هناك قد أكدوا تفوق الجيش المصري على الصهاينة الذين كانوا يحاصرونه، فقد راح الجنود المصريون يخرجون كل ليلة من مواقعهم المحصورة ويهاجمون مواقع الصهاينة ويتغلبون عليها. ولا ريب عندي في أن الحصار نفسه ما كان إلا برهة في المؤامرة الشاملة التي أفضت الى ضياع فلسطين.

لقد انتصر الصهيوني على الفلسطيني بسبب الفارق الكبير في التسلح. ولو كان تسلحنا يساوي عشر تسلح الصهاينة لحسمت المعركة لصالحنا، على الأرجح، إذ لا ريب عند الفلسطيني الذي عاصر النكبة في أن الصهاينة لا يصلحون للقتال بتاتاً. ولأنهم لا يصلحون للقتال والعراك اللاحم، فقد خسروا جميع الصدامات والمناوشات التي خاضوها ضد قطعة من الجيش الاردني لا تزيد عن ألف جندي في بادىء أمرها، وذلك في القدس ومحيط القدس، أو إلى جوارها. وإن مذكرات عبد الله التل، ذلك الضابط الأردني الشاب، هي خير مصدر عن جميع الأحداث التي جرت في تلك المدينة وفي ضواحيها.

ولكن التزوير استطاع أن يوهمهم وأن يوهم العالم بأنهم صناديد، مع أن انتصاراتهم زائفة كالعملة المزورة، لأنها نتيجة لمؤامرة عالمية، وليست إنجازاً

صادراً عن طبع كريم. فهل هنالك من يجهل أن غلوب باشا، الملتزم بوعد بلفور، هو الذي كان يقود الجيوش العربية يومئذ. ولكن أهم ما في الأمر أن انتصار اليهودي الذابل الشاحب المصفر الوجه لا يقل عن كونه برهاناً حاسماً على أن الحياة البشرية نفسها، ولا سيما بوصفها تاريخاً، قد أصابها الذبول والشحوب واصفرار اللون، ولولا ذلك لما كان ليهودي يتسلل في الظلام، نحو سدة القرار العالمي، أن يكسبها بهذه السهولة القصوى.

* * *

تتلخص إحدى الغايات الكبرى لهذا الكتاب في أنه يبتغي أن يكون واحداً من الآثار التي تملك أن تساعد الزمن المستقبل على استيعاء الزمن الذي عشت فيه. ولولا هذا الأمل لما تجشمت عناء تدوينه على الورق، ثم نشره بعدما صار من العسير علينا، نحن الفلسطينيين، أن نشرح جوهر حقيقتنا علناً. فكل الذي يحق لنا هو أن نذبح دون أن تصدر عنا أية همسة أو نأمة.

بيد أن ما يحتاج الى تأكيد جازم يتلخص في أن المؤامرة نفسها تحتاج الى ما يفسرها. فلماذا كانت هنالك مؤامرة على العرب ولم تكن هنالك مؤامرة على اليهود؟ أو لماذا لم تتآمر الحكومات الأمريكية المتعاقبة مع العرب ضد الشعب الأمريكي؟ إن تاريخنا المعاصر تسهم في صنعه حقيقة مفادها أن إنسان منطقتنا هو، في الغالب الأعم، مستنزف وبليد ومصنوع من الفجاجة والضحالة وغثاثة المحتوى، بل قل إن شخصيته رثة متهتكة النسيج الى حد يثير الاستهجان. فما هزم العالم العربي إلا لأنه يفتقر الى الانسان، أو الى الشخصية الناجية من التزوير، أو المزودة بالفحوى الجوهري الأصيل. فلقد التهمه الزمن ولم يترسب منه سوى الرماد. يا إلهي! لماذا لم ننضج، مع أن منطقتنا هي الأعرق بين جميع الدوائر الحضارية في الدنيا؟

فمما هو معلوم أن هذا الجزء من العالم قد بنى أول قرية على الأرض منذ خمسة عشر ألفاً من السنين. ولهذا، فقد آن لإنسانها أن يشيخ، لا شيخوخة

جسم، وانما شيخوخة ارادة ومضاء. ولعل هذه الشيخوخة أن تكون السبب الأكبر لتلك الحقيقة الناصعة التي تفقأ العين، والتي يتيسر تلخيصها في أن إنسان منطقتنا له خبرة نادرة في صنع الوسخ والصخب والفوضى. وهذا الثالوث المستتب هو الانحطاط بأم عينه. نعم، هذه هي أهم المستتبات عندنا: القذارة والضجيج والفوضى.

ولكن، لا بد من المسارعة الى التأكيد على أن هذه الحقيقة الكبرى التي هي مثلبتنا الأولى، ليست مسوغاً كافياً كي تنهبنا الامبريالية وزبانيتها، أو كي يقوم اليهود بطردنا من بيوتنا بعد هدمها على رؤوس أصحابها دون وازع من نهى أومن وجدان. إن الشعب العراقي المنهوب هو اليوم عرضة لأعتى أصناف الاستئصال أو الابادة التي تشبه إبادة الهنود الحمر. فهل ثمة من مسوغ لما يجري في بلاد الرافدين منذ أربع سنوات؟

* * *

وبودي أن يكون هذا النص رسالة يرسلها الزمن الراهن الى الأزمنة الآتية، وذلك ابتغاء التأكيد على جملة من الحقائق لا بد من بثها في العالم، بل في الأجيال التي لم تولد بعد، وذلك لأنها حقائق وحسب. فلقد بدأ الصهاينة يزورون الواقع منذ زمن بعيد.

أما حقيقتنا الاولى، نحن الفلسطينيين، فهي أن الصهاينة قد طردونا من ديارنا بقوة السلاح، وبعدما ارتكبوا سلسلة طويلة من المجازر في المدن والقرى الفلسطينية. وعبثاً يكذبون ويدعون بأن الحرب هي التي شردتنا، اذ لم تكن هنالك حرب بتاتاً، بل فقط بعض المناوشات الطفيفة الشأن. وكأساس لفهم الواقع، ينبغي التأكيد على أن الحرب ممنوعة الحدوث في منطقتنا هذه، وذلك لأن العراك الحقيقي الطاحن لعظام البشر، سوف يفضي بالضرورة إلى زوال الغيتو الصهيوني من الوجود، دون أدنى ريب، وذلك لشدة هشاشته أو لأن كائناته لا تصلح لحكمة ولا لقتال (وهذه العبارة من أفلاطون). إن سكان الغيتو سوف

يرحلون إذا اشتدت الحرب أو تفاقمت، حتى لو انتصر الجيش الصهيوني على العرب.

وههنا يملك المرء أن يثير سؤالين: أولا – لماذا المجازر الكربلائية إن لم يكن الهدف اخلاء الأرض من السكان؟ ثانيا – لماذا لم يسمحوا للاجئين بالعودة إلى ديارهم بعد انتهاء الحرب المزعومة؟ ومما هو معلوم أن الأمم المتحدة قد أصدرت قراراً بعودة المشردين إلى بيوتهم ومزارعهم، وذلك في اواخر سنة 1948.

إن هاتين الحقيقتين، أعني المجازر ورفض الصهاينة لقرار العودة، هما دليلان دامغان أو حاسمان على أن تشريد الفلسطينيين قد تم بناء على تصميم مسبق. فلقد كانوا يريدون الأرض خالية من السكان لكي يستوردوا لها سكانا من خارجها، ومعظمهم من اوروبا الشرقية. وهذا ما قد حدث بالفعل.

أما الحقيقة الثانية التي لا بد من تبليغها لأهل المستقبل فمؤادها أن الجيوش العربية قد أُدخلت إلى فلسطين، عام النكبة في سياق مؤامرة عالمية، لتحقيق هدفين. أما اولهما فخلاصته أن الصهاينة سوف يرفعون معنويات يهود العالم كله بعدما يهزمون تلك الجيوش على نحو زائف، أي بواسطة المؤامرة، فيتشجع اليهود ويهاجرون الى فلسطين بعد اقتناعهم بأن العرب ليسوا مخيفين بتاتا. ولهذا الغرض الأول هزمت الجيوش الثلاثة، أو شكمت في الحقيقة، وهي التي بناها الانجليز لتواجه الالمان إذا ما اقتربوا من نفط العراق أو من قناة السويس. أما تلك الجيوش الثلاثة المبنية على الطراز الإنجليزي فهي المصري والاردني والعراقي. فما من حادث سياسي يحدث في العالم العربي كله الا وهو موظف في نسق متناسق هادف.

وهكذا اقتنع اليهود بأن (ليس الأعاريب عند الله من أحد)، فراحوا يتدفقون على فلسطين بأعداد كبيرة جدا، وخاصة سنة 1952، يوم هاجر ربع مليون يهودي من رومانيا إلى ارضنا السليبة.

وأما الهدف الثاني من إدخال الجيوش العربية إلى فلسطين فيتلخص في أن الصهيونية تريد ايهام العالم بأن حرباً كبيرة قد جرت خلال عام النكبة، وبأن تلك الحرب، التي لم تزد بالفعل عن حفنة من المناوشات الطفيفة الشأن، هي التي أرغمت الفلسطينيين على الهجرة من ديارهم، أي أن الصهاينة أبرياء من الكارثة التي حلت بنا يومئذ. ولكن الحقيقة التي يريد هذا الكتاب أن يؤكدها هي أننا طردنا من بيوتنا بواسطة مسلسل من المجازر الاجرامية الوحشية المسعورة والمصممة تصميماً هادفاً يبتغي تفريغ الأرض من سكانها عن سابق عمد وإصرار. إن أهم حقيقة ينبغي أن يعلمها كل مهتم بالقضية الفلسطينية هي: بينما كان الصهاينة يوهمون العالم بأنهم يدافعون عن أنفسهم ضد سبعة جيوش عربية، فقد راحوا يذبحون الشعب الفلسطيني من الوريد إلى الوريد.

ومما هو معلوم أن أحد المؤرخين الصهاينة قد اكتشف المقبرة التي وضع فيها المجرمون جثث الناس الذين حصدتهم المجزرة في قرية الطنطورة الواقعة إلى الجنوب من حيفا على شاطئ البحر، وعددهم مائتان وسبعون ضحية أو زهاء ذلك. ولقد تم هذا الاكتشاف بعد مضي خمسين سنة على نشوء الغيتو الصهيوني، وربما أكثر بقليل. كما أن مجزرة دير ياسين كانت معروفة للقاصي والداني منذ عام النكبة. ولقد جرت في شهر نيسان، وتحت سمع الانجليز وبصرهم.

ثم إن بن غوريون، الارهابي العريق في الاجرام، والرئيس الأول للغيتو، قد راح يتحدث في مذكراته عن مجازر حدثت في شمال فلسطين وكذلك في جنوبها. وهو بهذا يشير على نحو مضمر إلى مجزرة الصفصاف ومجزرة كفر عنان اللتين جرتا في أواخر تشرين الأول (وهاتان قريتان في الشطر الشمالي من فلسطين) كما أنه يشير ضمناً الى مجزرة الدوايمة التي جرت في خريف عام النكبة. والدوايمة قرية في جنوب فلسطين، تقع بين غزة والخليل. ولقد ارتكب فيها الصهاينة مجزرة كبيرة عام النكبة، وربما كانت الثانية بعد المجزرة الكبيرة التي

ارتكبوها في منشية يافا، فقد أبادوا في الدوايمة خمسمئة نسمة، كما أبادوا في اللد أكثر من أربعمئة نسمة، ولكنهم اجتثوا الحياة في منشية يافا، تماما كما كان يفعل المغول. وفضلاً عن ذلك فإن الطيران الحربي الصهيوني قد ارتكب مجزرتين على الأقل في جنوب فلسطين وحدثت أولاهما في مجدل عسقلان، كما حدثت الثانية في مدينة غزة. وفتكت الطائرات الصهيونية بالناس يومئذ، ولا سيما في غارة غزة. وقد جرى ذلك كله في خريف عام النكبة.

وما من أحد في جيلنا إلا ويذكر الغارتين اللتين شنهما طيران الصهاينة في مصر زهاء عام 1970. وكانت إحداهما على سجن أبوزعبل، والأخرى على مدرسة بحر البقر التي أصيب فيها مائتان من الأطفال.

يقيناً إن هذا الغيتو الصهيوني ما بني إلا على أرضية الجريمة والمأساة وامتهان كرامة الانسان والاساءة إلى جوهره النبيل. وكل جريمة من هذا القبيل لا بد لها من عقاب ولو بعد مئات السنين. فلقد بين ابن خلدون على نحو مكنون في صلب نظريته أن ثمة عدالة في قلب المجرى الحي للتاريخ، ما دام الترف أو الرفاه بالمرصاد للمنتصرين وهم إذ ينادون بالسلام منذ مطلع أمرهم إنما يشبهون المجرم الذي لا يبتغي سوى الصفح عنه بعد أن يرتكب جريمته التي لا بد لها من أن تروعه وتهز بنيانه الداخلي. فالمرء لا يملك أن يلحق الأذى بالآخرين دون أن يؤذي نفسه.

أما ما تعنيه كلمة (السلام) أو (سلام الشجعان) (ما شاء الله كان!)، على نحو جهري لا لبس فيه ولا انبهام، فهو أن يتنازل الشعب الفلسطيني لليهود، تنازلاً نهائياً تاماً وأبدياً عن ثلاثة أرباع وطنه، ولا سيما مدينة القدس التي خاض العرب صراعاً مريراً ضد الافرنج، وطوال مائتي سنه، من أجل صيانة هويتها العربية الاسلامية. ترى لو ظلت القدس في أيدي الإفرنج، أعني الصليبين، حتى اليوم، أفكان الغربيون يتنازلون عنها لليهود بهذه السهولة؟ أو قل أكان في الممكن أن يعرف وعد بلفور دربه إلى الوجود؟

وليس من قبيل المبالغة أن أذهب إلى أن طردنا من بلادنا هو أشنع فعلة فعلها البشر منذ أول ظهور لهم على الأرض حتى اليوم. ولو كانوا بشراً، لما ارتكبوا تلك الجريمة الكالحة الشنعاء، حتى لو كانت فلسطين أرض أجدادهم، كما يزعمون. ويبدو أن جميع أهل الدنيا لا يستوعبون حجم النازلة التي حلت بنا في ذلك الحين. وأنا جازم بأن طبع الأشياء لا يتسامح مع الذين اقترفوا تلك الرذيلة الرعناء، بل اللاواعية، أو التي لم يقدروا نتائجها البعيدة المدى. فمما يدل على أن اللاعقل يسهم في تحريك التاريخ أكثر مما يسهم العقل أن اليهود لم يدركوا انفتاح الزمن على الأبد، وأن إغلاقه صنف من أصناف المحال، وأن الكون لا يكف عن التغير بتاتاً، بل إن (العالم يتغير مع الأنفاس)، كما يقول ابن عربي. وما دام الأمر كذلك، فأنى يفرون؟ وكيف تتيسر لهم نجاة من العقاب الذي اراه واقعة لا ريب فيها قط.

حقاً اننا شعب شهيد ذبح على مذبح يهوا، دون أية حاجة إلى ذلك. وههنا يتبدى الوجه اللاعقلاني للتاريخ بأسره. وإنني لأستهجن كيف تحمل الانسان تاريخه الطويل البائس المرير. فما كان له أن يتحمل هذا الشقاء كله إلا لأنه يفضل أشد أصناف البؤس على الفناء، أو على الانقراض. وعندي أن هذا التحمل البليد هو دليل حاسم على أن المسافة التي تفصل بين البشر والبقر ليست بالطويلة. فلو كان الشرف أو المروءة أقوى من قدرة الانسان على التحمل، لآثر الناس الانقراض أو الزوال على وجود مخموج بالبؤس، بل بأصناف الشقاء كافة. لهذا أرى أن على الرواية التاريخية أن تصور التاريخ بوصفة مأساة دائمة، بل جحيماً جاحماً ذا طبيعة ابليسية، وإلا فإنها سوف تظل انجازاً ثانوياً لا يتمتع بأية قيمة جليلة، وذلك لعجزه عن البلوغ الى السريرة، أو إلى صميم النفس.

* * *

اما الغاية الاولى لهذا الكتاب فتتحدد في انه محاولة أبذلها ابتغاء تخليد صورة القرية التي ولدت فيها، والتي رأيت بيوتها تتهاوى بيتا إثر بيت تحت قذائف مدفعية الصهاينة، لتتحول الى عدم او الى حطام، وذلك بعدما عاركتهم أو نازلتهم طوال بضعة أشهر. ولكي تصان تلك الصورة لا بد من عرض طويل لتفاصيل كثيرة ووثيقة الصلة بالموقع والارض المحيطة والبناء والعادات الاجتماعية، وما إلى ذلك من شؤون.

وبودي أن يكون هذا الكتاب محاولة لتوثين المكان، أو تحويله الى صنم مقدس، وذلك لأن الصراع في فلسطين كان وما زال يدور من أجل حيازة الأرض، أي من أجل المكان. ولئن كان انسان عصرنا الراهن يكابد أزمة عدم الانتماء الى أي أصل او جذر، فإن كاتب هذه السطور ينتمي إلى المكان الذي أنجبه سنة 1938. فها أنا ذا اليوم أحن إلى قيمة سامية في عالم يتفسخ ويتزنخ على الدوام، وإني لأثابر على التنقيب عن تلك القيمة السامية في ألف موضع وموضع، ولكن يدي لا تلامس شيئا سوى الخلاء. ولهذا حصراً آليت على نفسي أن أظل مصراً على التشبث بالمكان الأول بوصفه القيمة الأصلية الوحيدة في هذا الزمن الأعجف، مع أنه لم يعد له وجود إلا في الذاكرة وحدها.

ثم إن صيانة الكثير من تفاصيل حياتنا الفلسطينية القديمة التي شاهدتها، قبيل عام النكبة، وكذلك حفظها من النسيان أو الضياع لتظل صورتها ماثلة أمام الأجيال التي لم تولد بعد، هو انجاز من شأنه أن يسهم في تدشين حركة الاسترداد التي سوف تنتصر حتما ولو بعد مئات السنين، إذ لا ريب عندي في أن الصهاينة طارئون أو عرضيون أو آيلون الى الزوال عاجلا ام آجلا، بل إن الغرب كله، وهو الحاضنة الأولى للصهيونية، لا يزيد عن كونه بنية عرضية زائلة. فمن شأن الصيانة ان تبث روح الأمل أو التفاؤل بأن قوى التحرير آتية لا محالة كي تسترجع الوطن السليب كله، ولكي تعيد بناء قرانا التي هدمها المخربون الارهابيون الذين يجهلون حقائق التاريخ، بل أبسط حقائق الحياة، وهي

أن أيام هذه الدنيا يومان، يوم لك ويوم عليك. إن لوبيا سوف تبنى من جديد في الزمن القابل البعيد. أقول هذا القول اليوم مع أنه لا يوجد أي شيء يملك أن يسوغ أيما تفاؤل أو أمل، مهما يك طفيفا. ولكني أراهن على نواميس التاريخ الخالدة وهي نواميس فولاذية لا نقض لها بتاتا.

لقد أخذ الصهاينة اليوم الذي هو لهم. وهذا هو حال الغربيين أيضا. ولسوف يعمل التاريخ على توليد اليوم الذي هو عليهم. وهذا يعني أنهم لن يفلتوا من العقاب ولو بعد ألف سنة. إن الفلسطيني سوف يتفاءل كثيرا، بل سوف يستيقن بالنصر، إذا ما فهم نظرية ابن خلدون. فلقد ظل الاسبان يقارعون العرب طوال ثمانية قرون، وانجلى مسلسل الصراع والكفاح المرير عن طرد العرب من الاندلس. أما ما أراهن عليه فهو أن اليهود جبناء. وهذه ليست شتيمة وإنما هي صفة موضوعية. انهم ملة ليست بطولية بتاتا، ولا هم لها سوى المال وحده، فهو في عرفها مرجع الأشياء وقاعدتها وأسها الوحيد. وهذا يعني انه سبب الحياة وغايتها وملاك أمرها. لذلك، يسعك الجزم بأنهم سوف يفرون كالأرانب المذعورة حين يتلقون أولى الضربات الموجعة حقا.

أما اليوم فها نحن أولاء نتراكم في مخيماتنا القذرة المذرة طوال الأعوام الستين الأخيرة، ولكن دون أية بارقة أمل لها القدرة على أن تؤشر إلى إننا سوف نعود إلى ديارنا وحقولنا على المدى المنظور. ومما هو مريع اننا، في هذا الازدحام السديمي اللا متمايز، نتنفس أنفاس بعضنا بعضاً دون أن نجد أيما مخرج من هذا المحشر المقيت الذي يسمى المخيم. وها هو ذا الجيل الذي غادر الوطن في عام النكبة آخذ بالانقراض، كما أن أجيالا جديدة قد نشأت في الشتات دون أن تعرف الوطن إلا بواسطة الكتب وحكايات الجيل الأكبر سناً.

ومما هو في صلب الحق أن هذه الأجيال الناشئة مرتبطة بفلسطين أيما ارتباط، مع أن فلسطين لم يعد لها وجود إلا على الخريطة وحدها.

ومما هو ناصع تماما ان الصراع في بلادنا يدور منذ مائة سنة، أو أكثر، من أجل الأرض أو من اجل المكان. وهذه الحقيقة وحدها مسوغ كاف للاهتمام الممل بتفاصيل القرية التي عشت على أرضها طوال السنوات العشر الأولى من عمري. وهذا الاهتمام بتلك التفاصيل هو آية على أننا الصق بالمكان من تلك الطفيليات التي جاءت الى فلسطين مدعية بأن كومة من الخرافات أو الترهات هي حجة كافية كي تهبهم الحق في تأسيس تجمع لهم على أرض فلسطيننا التي يزعمون أنها أرض أجدادهم، أو (الارض التي اختارها يهوا لشعبه المختار).

أتحداهم أن يبرهنوا على أنهم قد كان لهم أجداد، أعني ان يقدموا دليلا من خارج التوراة على أن فلسطين قد كانت وطنا لهم في أي طور من اطوار التاريخ القديم. وحتى لو صح أنهم كانوا في فلسطين خلال زمن من الأزمنة الغابرة، فمما يؤكده مؤرخوهم أنهم قد غادروها قبل ألفي سنة تقريباً. وهذه مدة كافية جداً لتأسيس واقع جديد على الأرض من شأنه أن يجعل مطالبتهم بها ضرباً من ضروب الجنون. ولئن كان حقهم لا يموت، فإن هذا المبدأ يخول المرء الحق في الذهاب إلى أن الأمريكيتين يجب أن تكونا لبقايا الهنود الحمر، أو أن على البيض أن يرحلوا إلى الأماكن التي جاؤوا منها.

إن غالبية المواضع المحيطة بقريتنا سوف تذكر أسماؤها في هذا الكتاب، وذلك ابتغاء صيانتها من سطوة الزوال، وكذلك من أجل أن تعيد لها الأجيال التي لم تولد بعد هويتها وقداستها، وذلك إثر تحرير الأرض وتطهيرها من تلك الطفيليات الدخيلة الهجينة. وهذا حادث سوف يحدث جزماً، وإنني لأراه حتمية تاريخية لا محيد عنها. فمن سوء حظهم أن التغير هو أبدى صفات الواقع، وأن الزمان مفتوح إلى الأبد وعلى الأبد، وأن الغاقة هو المحال بأم عينه. فأنى يهربون؟ وإذ أذهب هذا المذهب فإنني لست في معرض التهديد الغوغائي بتاتاً، بل إني أتكلم انطلاقاً من فهمي لطبع التاريخ الذي لا يمنح المجتمعات سوى شباب قصير. فلو كان الصهاينة عقلاء لاتعظوا بمصير الأتراك في اوروبا

الوسطى، وكذلك بمصير العرب في الأندلس، إذ كان كل من المصيرين مأساة مروعة يتفطر لها الفؤاد حزناً وألماً. ومما يعرفه القاصي والداني أن المسلمين الذين خلفهم الأتراك في البلقان ما زالوا يذبحون حتى يوم الناس هذا.

كما أن هذا الكتاب سوف يحتوي على ذكر للكثير من المدن والقرى الفلسطينية الشمالية التي شاهدتها في عام النكبة وقُبيل ذلك العام بقليل. وهذا يعني أنه كتاب مختص بالمكان الفلسطيني قبل سواه.

* * *

وعندي أن الغيتو الذي بني على أرضنا المغتصبة، وهو المدجج بالجحيم نفسه، والذي تخدمه على نحو لا عقلاني ألف أمة وأمة، حتى لكأن البشرية ليست سوى تجسيد للسخف والإجرام وهزال العقل – إن ذلك الغيتو لا يحتاج إلى جيوش جرارة كي تقتلعه من جذوره، إن كانت له جذور فعلاً، ثم تطوح به إلى العدم، أو إلى مزابل التاريخ، إذ تكفي بضعة آلاف من المقاتلين لإلحاق هزيمة ساحقة بجيشة الذي برهنت الوقائع نفسها على أنه لا يصلح للقتال. جزماً إن ذلك الجيش لم ينتصر في أية معركة مهما يك نوعها، بل إنه ما خاض أية معركة في أي زمان أو مكان. وانني أؤكد للأجيال القادمة أن الأرض كانت تفرغ سلفاً من القوات النظامية العربية، ثم يدخلها الجيش الصهيوني دون أن يجابه أية مقاومة ذات شأن، بل ربما لم يكن يواجه أية مقاومة بتاتاً. إن أكبر صدام خاضه الجيش الصهيوني خلال عام النكبة هو ذلك الصدام الذي جرى في جنين، والذي أدى إلى اعتراف الصهاينة بأنهم خسروا ألفاً ومائتين من جنودهم بين قتيل وجريح، إن ذلك الصدام لا يزيد عن كونه مناوشة صغيرة عند كل من له أية خبرة بالتاريخ، ولاسيما بتاريخ الحروب. إذن، لم تكن هنالك حرب في عام النكبة، بل مؤامرة ومناوشات طفيفة الشأن. ولقد أدرك الناس تلك المؤامرة ببداهتهم وتحدثوا عنها منذ ابتداء الهدنة الأولى في الحادي عشر من حزيران.

والجدير بالتنويه أن "جنين" كلمة محرّفة عن كلمة "جنيم" الكنعانية التي تعني الجنات.

* * *

وبما أن بعضاً من عناصر الحياة لها صلة وثيقة بالهوية التي تخص القرية الفلسطينية بوجه عام، فإنني سوف أتحدث عنها كثيراً، أو مراراً، ولكن بمقدار ما تسعفني الذاكرة. وهذا يعني أنني سوف أصف الفرن الذي نخبز فيه خبزنا، والموقد الذي نتدفأ عليه في الشتاء، وكذلك بعض الأدوات التي نستعملها في حياتنا اليومية. فنحن الفلسطينيين لن نسمح لأولئك الأشرار، المتطفلين والمخربين، بأن يدمروا حضارة ريفنا العريقة التي يرون فيها منهجاً متخلفاً من مناهج الحياة القديمة. وهم يحسبون أن حياتهم المطابقة لحياة الغربيين متقدمة أو متطورة، ولكنني لا أحسبها إلا خلاء بغير روح أو قيمة أو نكهة، وذلك لأنها حياة مادية خالصة ومبنية على مبدأ الأنانية والعزلة واشباع الغرائز الجسدية. ولعل أهم ما في أمرهم أنهم طفيليات تعيش، أينما حلت، على حساب بقية المجتمع الذي يسكنون بين ظهرانيه. ولكن الشعوب التي تؤيدهم وتدعمهم هي أوغل منهم في غياب القيمة، كما أنها تفتقر إلى الأصالة أو إلى الماهية الإنسانية الحقيقية.

ويجوز القول بأن توراتهم هي الكتاب الذي دشن بؤس الفلسطينيين وشقاءهم. وأنا أستهجن أن يقدم بعض البشر على تبجيل ذلك الكتاب وتقديسه. وعندي ان ماني قد كان حساساً وذكياً وعظيماً حين رفض التوراة من غلافها الأيمن الى غلافها الأيسر، وكذلك حين حذر أتباعه من أي التزام بأقوالها أو بمحتوياتها جملة وتفصيلا. إنه ماني الشاعر الحساس المرهف الوجدان والمزود بغريزة من شأنها أن تجنبه السقوط في الهاويات الكبرى، كما تنأى به عن الخبث الصديدي الذي يسمح لبعض الفئات بان تلهط ثروات الجنس البشري. أليس من العار على الانسانية أن تجتث المانوية من جذورها وأن تصون اليهودية أو

تحافظ عليها بكل ما لديها من امكانيات؟ نعم، لقد استأصلت البشرية المانوية، مع إنها ديانة شاعرية نبيلة تعبد النور والخير وتقاوم الظلام والشر، وأبقت اليهودية التي تبيح لأتباعها أن يبتزوا كل من هو ليس منهم حتى لكأنهم عصابة، ليس إلا.

* * *

ومما هو معلوم أن حضارة ريفنا هي حضارة الندرة الاقتصادية والبساطة أو السذاجة. ومع ذلك، فإنها شديدة القدرة على انتاج الطمأنينة في النفس، بل ليس من شأن أي نمط حضاري أن ينتج هدأة البال سوى الحضارة الريفية الساذجة، مع أن الحياة في الريف، كالحياة في أي مكان أخر، لا تخلو من التوتر أو القلق أو الاضطراب. ومن المفارقات العجيبة أن يكون الفقر أرأف بالإنسان من الثراء، ولا سيما الثراء الفاحش.

ثم إنني سوف أنوه مراراً بحقيقة مؤداها أن الغيتو الصهيوني المصطنع هو نتاج لمؤامرة عالمية اشتركت فيها قوى كثيرة جداً، وهي لا تخفى على اللبيب، بل قد لا تخفى حتى على الأميين، إذ لا ريب في أن الأثر يدل على المؤثر. ولهذا، فإن في ميسور العقل أن يستخلص اللامرئي من المرئي، أو الغائب من الحاضر. وهذا يعني أن السياسة لا تملك أن تخفي حقائقها الجوهرية عن الذهن الذي هو قدرة على استنباط الحقائق من الحوادث أو من المعطيات العيانية، وإن استطاعت أن تتستر على الكثير من التفاصيل.

ومن واجبي في هذا السياق أن أؤكد على أن الشخصية اليهودية كلها زائفة أو منتحلة، فالشمعدان السباعي، والنجمة السداسية قد اختلسهما اليهود من بابل، مدينة النور، التي عبدت الكواكب وقدست الستة لأنها تؤشر إلى الجهات الست، أي إلى الكون أو إلى الوجود. فما علاقتهم بشمعدان أولئك الأميون رعاة الأغنام؟ إن كون الشمعدان سباعياً هو دليل على أنه بابلي، فمن المؤكد أن السبعة كانت عدداً مقدسا في العراق كله طوال الألف الأول قبل الميلاد، وذلك

لأن ثمة سبعة كواكب كبرى رصدها علم الفلك البابلي الذي كان أعظم علم بالفلك في الدنيا القديمة كلها. فالسبعة والنور، وكذلك الستة الماثلة في نجمة، إن هذا، بالبداهة، انجاز بابلي. فلقد اعتاد فيلون السكندري أن يسمي الفلك (علم الكلدان)، وهم أهل بابل في طور من أطوار التاريخ. نعم، إن بابل، عاصمة العلم، والتي تعج بالعلماء، في الزمن القديم، هي التي اخترعت الشمعدان السباعي، وليس أولئك الذين قدمتهم توراتهم نفسها بوصفهم رعاة أغنام.

وبالمناسبة، هاهم يسرقون اللباس الفلسطيني وأنماط الطعام والكثير من الفنون اليدوية الفلسطينية وينسبونها إلى أنفسهم. وهم ينتحلون تراث المجتمعات التي يحتكون بها، ولكن دون أن يذوبوا فيها، بل يظلون متمايزين عنها أو ناتئين. ولهذا، فانهم لا يشبهون سوى خثرة تستعصي على كل تذويب، أو قل انهم رسابة تاريخية متحجرة أو متجمدة. فما كانوا في أي يوم من الأيام إلا معضلة، وهم لا يريدون حلاً لتلك المعضلة، بل يريدون لها أن تتفاقم وتتوتر حتى لكأن اللامعقول هو محركهم الوحيد.

ومن قرأ سفر الخروج في التوراة اقتنع بأن اليهودية ديانة تبيح لليهودي أن يسرق غير اليهود دون أي تبكيت. فلقد جاء في ذلك السفر أنهم استعاروا ذهباً من المصريين قبل أن يفروا إلى سيناء، ولم يعيدوه إلى أهله بتاتاً. أما الخداع أو الاحتيال فمباح لليهودي دون حرج. ولقد مارسه يعقوب حسب التوراة على خاله الطيب لابان الآرامي، وفقاً لما جاء في سفر التكون. وإنها لحكاية مخزية جزماً. وعبثاً يحاول بعض الغيورين أن يؤولوها لتصير منقبة بعدما كانت مثلبة. فمن حق المرء أن يستهجن وجود أناس يقدسون ذلك الكتاب ويرونه ألهم من السماء. وها هو ذا اليهودي اليوم يتكلم اللغة الكنعانية وينتحلها ويسميها اللغة العبرانية زوراً وبهتاناً. أما السبت الذي تربطه بالسبعة وبالثبات صلة صرفية لا تخفى، فلا بدّ له من أن تكون بابل، التي اخترعت الساعة لأنها مهمومة بالوقت نتيجة لاهتمامها بالعمل، هي التي اخترعته ورسخته في الحياة. لا يمكن للسبت أن

يكون من مبتكرات اليهود، إن كان لليهود أية مبتكرات، وذلك لأن الرعاة ليس لهم عطلة اسبوعية، إذ العطلة الأسبوعية من لوازم الحياة في المدينة الكبرى حصراً، حيث العمل جدي ومرهق ويحتم عطلة اسبوعية للراحة والاستجمام.

وأكاد أجزم بأن اليهودية نفسها لم تتبلور إلا في بابل بعد سبي أهل القدس إليها في القرن السادس قبل الميلاد. وهذا خبر تؤكده وثائق نبوخذ نصر. وهناك، في عاصمة الدنيا، تعلموا الكتابة وراحوا يدونون مجموعة من الخرافات والأباطيل والأفكار التي يحتاجون اليها ليصونوا هويتهم من الذوبان في الشعوب الأخرى. وهم لا يزالون حريصين على هذا المبدأ الانعزالي، أو مبدأ التمايز الطائفي، حتى يوم الناس هذا. ولقد أخذوا الكثير من بابل، فوضع نفر من الغربيين كتباً متخصصة بما استعارته التوراة من الثقافة البابلية. وهنالك فكرة في الاصحاح الأول من سفر التكوين مفادها أن الله قد خلق الإنسان على صورته. ولا بد لهذه الفكرة من أن تكون قد نشأت في مدينة كبرى، أو هي من المحال أن تكون قد أنتجتها طائفة من الرعاة، يقوم كبيرها بمخادعة خاله الآرامي وسرقة بعض أشيائه بالاشتراك مع بناته.

ثم إن مما ترفضه البداهة أن يكون اليهود رعاة الأغنام، أو الفلاحون، أو سكان اقليم يهودا الكلسي، والذي لا تزيد مساحته عن مساحة جحر الضب، قد ابتكروا فكرة الإله الواحد المجرد المنزه عن المادة والاعراض، إذ إن هذه الفكرة تحتاج إلى مجتمع عالي التطور كي تعرف دربها إلى الوجود. وأرجح أن تكون هذه الفكرة انجازاً فرعونياً حصراً. فقد استطاعت مصر، منذ الدولة الوسطى، أن تمد نفوذها إلى خارج أراضيها، وأن تحتك بشعوب تقدس آلهة يجهلها المصريون. ولذلك اقتضت السياسة أن تعبد الامبراطورية المصرية كلها الهاً واحداً، لأن توحيد الإله هو الحركة الأولى على الدرب المؤدي إلى توحيد الامبراطورية نفسها توحيداً ثقافياً، فضلاً عن التوحيد السياسي: إن الاله الكوني القادر على أن يوحد في شخصه وفي مذهبه الديني شعوباً متباينة أشد التباين، لا بدله من أن يكون

انجازاً عالياً لمدن شديدة التطور وعريقة في الثقافة ومجذرة في الزمن والتاريخ. ومن حسن حظ تلك الضيعة الكبيرة التي تسمى القدس أنها تتوضع في الطريق الذي يربط مصر بجنوب العراق، أي يربط المركزين الحضاريين الكبيرين في العالم القديم. إن هذا الموقع حصراً هو الذي أنشأ اليهودية والمسيحية، أو جعلهما ممكنتين، فضلاً عن أنه صنع مدينة القدس نفسها.

ومن حسن الحظ أن التوراة قبل سواها تمدنا بدليل يدل على أن فكرة الإله الواحد العلي، أو المنزه عن المادة، قد كانت معروفة قبل ابراهيم الذي هو جد اليهود، وفقاً لمذهبهم. فقد جاء في الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين أن ملكي صادق كاهن مدينة القدس الكنعاني كان يعبد (الله العلي) وأنه بارك ابراهيم باسم (الله العلي، مالك السموات والأرض). أليست هذه العبارة تصريحاً لا لبس فيه على أن إبراهيم قد أخذ التوحيد من بعض الكنعانيين؟

لقد استطاع الغربيون، وعلى نحو لاعقلاني، أن يفرضوا علينا هذا الغيتو المصطنع الذي يعيش على حساب العرب وبأموالهم، مع أن وجوده كله يفتقر إلى أي مسوغ عقلاني مهما يك نوعه. وبما أن الغربيين قد أفرطوا في خدمة اليهود افراطاً لا مثيل له في التاريخ كله، إذ من المحال أن تجد فئة بشرية خدمت فئة أخرى كما خدم الغربيون سادتهم اليهود، لهذا جاز لك أن تعرف الإنسان الاورو – أمريكي بأن الموجود من أجل اليهود. ومن العجائب ألّا يشعر ذلك الإنسان المغمى عليه، ولا سيما رجل السياسة عندهم، وهو المطل على مملكة الخفاء، بأي صنف من أصناف الشعور بالخزي أو بالعار من حقيقة كونه أداة طيعة في أيدي اليهود.

ولا ريب في أن ذلك الغيتو قد عمل على ترسيخ الهاوية الرابضة بين الغربيين وبين الشطر الغربي من الشرق، وأعاد إلى الذاكرة صورة الحروب الصليبية التي هي نتاج لحقد معتق ومجذر في نخاريب الزمان، فضلاً عن نخاريب النفوس. ولعل في ميسورك أن تجزم بأن الحضارة الاورو – أمريكية هي

الحضارة الوحيدة التي سخرت العقل في خدمة اللاعقل، ولا سيما حين ابتكرت الأسلحة النووية، وحين أنشأت الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين. وإنها لضمائر مطفأة تلك التي تقف مع الجلاد ضد الضحية. ولهذا، فإن من حق الذهن القادر على التذهن أن يتساءل عن مدى الثقة التي يمكن للعاقل أن يضفيها على العالم الذي يفرز اليهود والايدز والأسلحة النووية والسخام الذي يلوث البيئة ويسمم الهواء ويصنع ثقب الاوزون. إن عالماً يفرز اليهود لا يسعه البتة أن يكون سعيداً في أي يوم من الأيام. ومما لا يقل إثارة للاشمئزاز أن أولئك الذين ضربوا الناس بالأسلحة النووية يصفون كل مقاومة يواجهونها من الأمم المعتدى عليها بأنها فعل ارهابي، أماهم فملائكة هبطوا من عليين، ولم يروعوا البلدان الضعيفة، ولا جزروها لينهبوها ويتركوها للمجاعة والشقاء.

* * *

ولكم سقطت الثقافة الغربية من عيني حين رأيت الفيلسوف الألماني كارل ياسبرز والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر وهما يدافعان عن اليهود دفاعاً لا يسوغه العقل بتاتاً. يقول سارتر في كتاب له وضعه من أجل التزلف لليهود، عنوانه (تأملات في المسألة اليهودية): (إن بعض الكتاب في اوروبا قد راحوا يكتبون متعاطفين مع اليهود، وذلك لأن اولئك الكتاب يبتغون إقناع الناس بأنهم تقدميون) يا إلهي! إن تلك الأمم الاوروبية البائسة تثير في داخلي ضرباً من القشعريرة، وذلك لشدة النقص الرابض في أذهان أبنائها، ولشدة الموت المستتب في شخصيتها المستهلكة الشائخة.

وهكذا صار لعق الأحذية جواز سفر إلى الرتبة التقدمية التي من دونها لا يعود للكاتب الاوروبي أية مكانة على أرض الثقافة. فليست السياسة وحدها مكدونة في خدمة تلك الطفيليات، ولا الاقتصاد وكفى، بل الثقافة والاعلام أيضاً، وربما سخروا كل شيء من أجل تلك البنية الشاذة، أقصد الغيتو الذي لا يساوي

قشرة بصلة، وفقاً لعبارة كانت معروفة في قريتنا. ولكن السؤال المهم الآن هو هذا: كيف استطاع اليهود أن يدجنوا الاوربيين من جبال الأورال شرقاً إلى جزائر هبرديز غرباً، بعدما كان هؤلاء يكرهون اولئك مثلما يكرهون الشياطين؟

ومن أجل تسويغ هذا الدعم الاوروبي والامريكي للصهيونية أُطلقت أُكذوبة أخرى مؤداها أن الغيتو الصهيوني الهزيل ينهض بوظيفة تاريخية، وهي أنه يحرس المصالح الامبريالية في المنطقة. لكن الغيتو، وأيم الحق، عاجز عن حماية نفسه، لو كان هنالك من يضربه بالفعل. وها هو اليوم لا يقدر على إخضاع غزة بعد مضي أربعين سنة على احتلالها. والأوضح من ذلك أن حراس المصالح الامبريالية في البلدان العربية لا يجهلهم أحد حتى الأطفال. ترى، ما الحاجة إلى جيوش تأتي من بلاد الغربيين لتضرب هنا وهناك في الأقطار العربية، لو كان الغيتو قادراً على حماية المصالح الامبريالية في منطقتنا؟ إن الحروب الثلاث التي شنها الفرنج على العراق منذ سنة 1991 وحتى اليوم هي برهان حاسم من شأنه أن يدحض ويفنّد تلك الأكذوبة التي بثها اليهود في العالم كله، والتي تتلخص بأن الغيتو يحمي المصالح الإمبريالية في المنطقة العربية.

وعندي أن الأنسان الاورو – أمركي قد برهن على جهل مطبق يوم بنى الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين. فمما هو محسوم أن فكرة الغيتو قد نبعت من التوراة. وفي هذه الحقيقة تكمن نزعة رجعية وأصولية متطرفة. أما الوجود العيني للغيتو فقد نبع من آبار النفط العربية. ولذلك فإنه سوف يجف على نحو تلقائي يوم تجف تلك الآبار بعد قرن من الزمان. لقد غرسوه في بيئة لا تناسبه ولا يناسبها. فأمره أشبه بزراعة النخيل في القطبين.

وفي صميم مذهبي أن اليهودي ما جاء إلى فلسطين إلا طامعاً بثروات العرب التي أصاب منها نصيباً وافراً جداً. فلكم صدق المعري حين قال:

وإنما حمل التوراة قارءها كسب الفؤاد، لاحب التلاوات

ومن الغرائب والعجائب أن تنخرط شعوب كثيرة في ذلك الجنون الذي أنشأ الغيتو الصهيوني ذا النتائج الفاجعة. فلم يحدث قط أن اتفق مثل هذا التكتل الضخم من البشر على تقديم خدمة مجانية لأية فئة بشرية كما اتفقت تلك البلدان الكثيرة على خدمة تلك الطائفة التي ما كانت سوى معضلة طوال التاريخ. ولم يحدث قط أن احتشد مثل هذا العدد من الدول لتتحالف ضد شعب صغير وفقير كالشعب الفلسطيني. ولولا تلك القوى الهائلة العاتية لتمكنا، نحن الفلسطينيين وحدنا، من طرد اليهود بالحجارة والعصي والأدوات البدائية، وذلك لأنهم أجبن من أن يصمدوا في وجهنا بسبب عجزهم عن التضحية. ومما هو جدير بالذكر أن أحد الفلاسفة قد تحدث عن موضوع أسماه (مكر التاريخ). وربما جاز الظن بأن التاريخ قد راح يمكر باليهود حين منحهم هذه التسهيلات والمساعدات كلها، استدراجاً لهم باتجاه كمين كبير لا ينجون منه بتاتاً.

* * *

وأياً ما كان جوهر الشأن، فإن هذا النص لم يكتب ليكون بمثابة تعبير عن ألم الوطان الرومانسي، أو لاستعادة الماضي المنصرم، وهو الذي لا يعنو لإرادة الاسترداد بتاتاً، بل ليكون بمثابة اسهام في استعادة الحق السليب، أو في صيانته من سطوة النسيان الشديدة القدرة على ازدراد كل شيء. فالنسيان هو الكفن الحقيقي الذي نكفن به الأموات والأزمنة الغابرة. والشعب الفلسطيني لن يخسر قضيته الا إذا نسيها أولاً. ولهذا ينبغي أن تظل ذاكرتنا حية ونشيطة على الدوام.

ولا مسوغ لهذا الكتاب لولا غايتان، اولاهما فضح أكاذيب الصهاينة، ولاسيما تلك الاكذوبة القائلة بأن الحرب، وليس المجازر، هي التي شردت الفلسطينيين، وثانيتهما الحفاظ على اسم لوبيا الذي نشأت على احترامه وتبجيله منذ طفولتي الباكرة. وهذا يعني أن الكتاب الراهن محاولة تبذل لتصد عن ذلك

الاسم أمواج الزمن التي من شأنها أن تغمر كل شيء وأن تطوح بجميع الموجودات إلى مملكة العدم الأبدي وفي ظني أنه سوف يسهم بتزويد الاسم نفسه بالمناعة والحصانة، بحيث يصير قادراً على الصمود أمام قوة الزوال التدميرية، وأمام فعل الطمس والمحو الذي مارسه اليهود على القرية إياها. إن لي وطيد الأمل بأن تثبيت صورة لوبيا في كتاب سوف يكون بمثابة صيانة لتلك الصورة من النسيان، الذي هو الموت الحقيقي لكل ما يزول. وبهذا التحصين الممكن يكون العقل قد أسهم في التأسيس للتحرير وإعادة البناء، وهما أمران آتيان لا ريب فيهما بتاتاً. ثم إنه محاولة للنفاذ من لوبيا إلى فلسطين كلها، بل إلى العالم بأسره، ومن كارثة حلت بشعب صغير إلى التاريخ البشري جملة، أو الى معضلة الانسان التي لا يلوح لها أي حل مهما يك نوعه. ولا مبالغة في الزعم بأن الإنسان آخذ بالامسّاخ، أو بالتحول الى قرد على نحو تدريجي في هذا الزمن المهّود حتى مخ عظامه.

لقد خرّب المخربون الصهاينة لوبيا ودمروها وأزالوا جميع تفاصيلها من الوجود. ولهذا أراني ميالاً الى الاعتقاد بأن تثبيت التفاصيل المكانية في نص مكتوب هو فعل مقاوم، وواحد من الأعمال الرامية الى انقاذ ضيعتنا من هجمات العدم والنسيان. وهذا يعني توطيدها داخل الزمن بعد ما حاولت قوى الشر التدميرية أن تخرجها منه الى أبد الآبدين.

وبإيجاز، إن هذا الكتاب سوف يكون بمثابة محاولة تهدف الى تدوين تاريخ لتلك التجارب الحية التي دأب علم التاريخ على إهمالها أو إغفالها، ظناً منه بأنها لا تؤثر على مساره العريض. ولكننا ينبغي أن نعنى بها لأنها أسانيد تسند وجودنا الأصلي، من جهة، وتؤكد، من جهة أخرى، على أننا أناس شرفاء، بذلنا كل طاقتنا لنبرهن على مروءتنا أو كرامتنا التي من دونها لا قيمة لأية حياة بشرية مهما يك نوعها.

الفصل الأول

لوبيا

إذا ما خرج المرء من مدينة طبريا الراخمة على شاطئ بحيرة الجليل الفاتنة، واتجه غرباً صوب الناصرة، وإذا ما اجتاز ثلاثة عشر كيلو متراً تماماً، فإنه سوف يشاهد عن يساره تلة مرتفعة الى حد ما، وعليها اليوم غابة تسمى غابة لوبيا. على هذه التلة حصراً كانت ترخم فيما مضى قرية كبيرة بمقاييس ذلك الزمان، وتمتد فوق التلة حتى حافتها الغربية تقريباً، ثم فوق سفحها الجنوبي، وكذلك على امتدادها المتجه نحو الجنوب الغربي، وهو الشطر الذي كنا نسميه الخربة، والذي هو قريب جداً من قرية الشجرة التي استشهد فيها الشاعر الوطني عبد الرحيم محمود، أثناء شهر تموز من عام النكبة المرير.

ولقد قُيض لي أن أولد على السفح الشمالي من تلك التلة، ولكن في مكان قريب من الذروة، أو في منتصف قرية لوبيا التي أُرجح أنها ترقى الى الطور الكنعاني، بل إلى عصر الكهوف.

ولقد دمر الارهابيون الصهاينة تلك القرية بعدما احتلوها في أواسط شهر تموز سنة 1948. ولا ريب في أنها قرية كنعانية قديمة، كما أن اسمها نفسه لفظة كنعانية أيضاً. ومن فادح الغلط أن يقال بأنه اسم عبراني، إذ ليست هنالك لغة عبرانية قولاً واحداً. ومما يؤسف له أن الذين يعرفون هذا الحقيقة هم أُناس جد نادرين. فاللغة التي يسمونها العبرانية هي اللغة الكنعانية نفسها تقريباً، وقد ادعاها اولئك الأدعياء المتطفلون الملفقون ذوو الشخصية الزائفة المنتحلة. فمن الواضح أن لغتهم من كنعان، وأن ثقافتهم من بابل، وأن دماءهم من أوروبا الشرقية والمغرب والعراق واليمن، ولا يجمعهم شيء سوى ذلك الكتاب المتهافت الذي يسمى التوراة.

وأياً ما كان الأمر، فإن تلة لوبيا محاطة بأرض سهلية من ثلاث جهات، وهي الشمال والغرب والجنوب. أما من الجهة الشرقية، فإن التلة يشطرها واد انهدامي قصير جداً نسميه وادي العين. ومما هو غريب أن يسمى بهذا الاسم مع أنه لا وجود لأية عين فيه أو بجواره. وهو يسيل في قلب الشتاء من الجنوب الى

الشمال، أو من البركة باتجاه خط طبريا – الناصرة. وله سفحان، شرقي وغربي، وتقع لوبيا الى الغرب منه مباشرة. ويتلاشى السفح الغربي عند الطرف الشمالي للوادي، أي أن الأرض تنبسط هناك وتنخفض عن التلة. وفي ذلك الشطر المنبسط كان يقع بيدرنا الفسيح.

وقبالة البيدر تماماً، على السفح الشرقي، الذي نسميه الصافح، كان لنا كرم مزروع بأشجار الكرمة التي نسميها الدوالي. وفي ذلك الكرم رحنا نقطع الحجارة سنة 1947 لنبني لنا بيتاً جديداً في تلك البقعة النزهة العذيّة. وعلى مسافة مائة متر الى الشرق من كرم الصافح هذا، كان لنا كرم آخر اسمه كرم عبد النبي، وهو مخصص للزيتون وحده. وأغلب ظني أن عبد الرزاق، الذي هو والد جدي يوسف، قد اشتراه من رجل اسمه عبد النبي فسمي بهذا الاسم.

ولقد اعتاد وادي العين أن يسيل حين يحتدم الشتاء، وذلك يوم تصير الأمطار غزيرة في كانون الثاني وشباط. فعند طرفه الجنوبي، وبالقرب من كرم لجدي علي اسمه كرم الجندي، وهو الملآن بأشجار التين والزيتون، كانت هنالك بركة تطفح بالماء عادة حين يستفحل الشتاء. وهنالك من زار ذلك المكان وأخبرني بأن المحتلين قد أنشأوا لهم مقبرة في موضع تلك البركة حصراً.

ويسيل الماء طوال وادي العين ليتلاشى في الأرض السهلية التي تقع الى الشمال من الخط المعبد الذي يصل بين طبريا والناصرة، أو مدينة السيد المسيح، وهي التي تقع الى الغرب من لوبيا على مسافة ليست بالطويلة. وكان الماء يمر تحت عبّارة (بتشديد الباء)، قبل أن يتلاشى في الأرض السهلية المنتشرة الى الشمال من القرية، حيث يربض واد ليس بالعميق اسمه وادي ابريق. وكان خط طبريا الناصرة يلامس قريتنا من جهتها الشمالية. ومما هو مؤكد أن السيد المسيح كان يسير عليه في تجواله بين الناصرة وبحيرة الجليل. إنه الحد الذي يحد قريتنا من تلك الجهة نفسها، إذ كانت لوبيا كلها الى الجنوب منه عدا بيتاً واحداً حديث البناء.

وكان وادي العين يحد لوبيا من الجهة الشرقية على نحو غوري لا يسمح للناس بأن يبنوا بيوتاً إلى الشرق منه. ومع ذلك، فإن لوبيا التي راح وعيي يتفتح عليها قبيل النكبة، قد أخذت بالتوسع الدائم، فبنى أحد الناس أول بيت الى الشمال من طريق طبريا – الناصرة، كما أن بيتين آخرين قد بنيا الى الشرق من وادي العين، أي في الصافح، وذلك لأول مرة. ولو بقينا في بلادنا سنة واحدة أخرى لكان بيتنا الجديد هو الثالث في تلك البقعة المطلة على وادي العين من جهته الشرقية، حيث تكثر كروم التين والكرمة والزيتون والصّبار، إذ كنا نقطع الحجارة في كرمنا الذي لا تقل مساحته عن خمس دنمات.

ولا تخلو تلك الكروم الشرقية الكثيفة الواسعة من الوحوش البرية، لا سيما بنات آوى التي يسمع صوتها يومياً بعد غياب الشمس. ولا بد للثعالب من أن يكون لها حضور كذلك، فهي توجد حيثما وجد العنب والدجاج. وذات مرة كنت وحدي في الصافح أحش العشب لبقرتنا، فشاهدت طائراً برياً يشبه الديك. وسرعان ما اختفى بين سلاسل الحجارة التي تحيط بالكرم. وهو أكبر من الديك قليلاً. وحين ركض ليتوارى كان ثمة شيء من التثاقل في حركته. فهو ليس بالرشيق بتاتاً. أما ريشه فيخلو من الألوان الزاهية. وخطر في بالي يومئذ أنه ذلك الحيوان الذي يسمى النيص. وهذا كائن يعرفه أهل بلدتنا. ولكنني علمت بعدما كبرت أن النيص يشبه القنفذ ولا يشبه الديك. ولهذا، أرجح أن ذلك الطائر هو الحبارى (بضم المهملة)، وربما كان ذكراً وليس أنثى. ولئن لم يكن كذلك فإنني لا أزال أجهل ما عساه أن يكون.

* * *

أما التوسع الكبير الذي عرفته لوبيا فقد حدث في مكان يسمّى المدّان (بفتح فتشديد)، وهو درب عريض يبدأ في الجنوب الشرقي من لوبيا ويمتد طوال مئات الأمتار، ثم يصير طريقاً تؤدي الى سهل الحمى الخصيب. وكان منزل جدي علي، الذي هو والد أمي، أول بيت في ذلك المكان، أو الى يمين النازل

من التلة الى السهل المحيط بلوبيا من الجنوب. والى الشرق من بيت جدي، كان هنالك حجر مميز اسمه حجر الغمّارة. والغمّارة هي الفتاة التي تلم أكداس القمح بعدما يحصدها الحصادون. والحجر مخصص للنساء الشابات، يقفن عليه حين يردن الركوب على حميرهن عندما يذهبن الى العمل في الحقول، إذ كان من المعيب أن تركب المرأة الشابة على أية دابة في أزقة لوبيا. ولهذا، كان يتوجب عليها أن تقود دابتها، وأن تسير على قدميها حتى تصل الى حجر الغمّارة (وهي بالمعجمة المفتوحة، وبتشديد الميم)، وهنالك تركب وتنطلق الى السهل حيث العمل، بعدما تستفيد من الحجر كمرقاة.

ولا يخفى على اللبيب أن ذلك الحجر له معنى كبير في حياة قريتنا، ولهذا فهو عندي أنفس من مدينة أوروبية أو أمريكية بكاملها، أنفس من لندن أو باريس أو نيويورك، وجميعها في نظر الخبير بشؤون المجتمعات مدن متجلطة أو متخثرة. وإني لقانع بأنه أنفس من اوروبا بأسرها، ولا أستثني اوروبا الشرقية الضالعة في تقديم الخدمات لليهود منذ زمن بعيد. فحجر الغمّارة قيمة جلى لأنه يسهم في إضفاء القيمة على الحياة البشرية، أي لأنه يرسخ كرامة الإنسان ويعزز روحه. وهذا هو تعريف القيمة بالضبط. أما اوروبا وأميركا فلا عمل لهما سوى تجريد الشعوب من كرامتها وابتزاز ثرواتها، وإنزال جميع أصناف الكوارث على رؤوس أبنائها. وهذا يعني أنهما تحيلان العيش فوق الأرض الى صنف من أصناف العذاب والاستلاب. ترى، ماذا عساه أن يكون معنى لندن أو واشنطن اللتين نهب كل حجر فبهما من عظام الأمم الضعيفة؟

بكل عشوائية واعتساف قرر بلفور أن يهب حجر الغمّارة للصهاينة الذين لا يعرفون له قيمة حتى لو عرفوا وظيفة ذلك الحجر النفيس، فأزالوه من الوجود، فما من أحد يعرف مصيره أو مآله في الزمن الراهن. ولطالما سألت عنه اولئك الذين زاروا لوبيا في الفترة الأخيرة ومنهم خالتي فاطمة وخالتي ذيبة، ولكنني لم أحصل على أي طائل بتاتاً.

هكذا تستهتر الامبريالية المقيته بكل ما هو انساني أو نبيل، ويستهتر بلفور وأمثاله من خدم اليهود بقيم الشعوب ومقدساتها. ترى ما قيمة ذلك البلفور الذي لا يزيد عن كونه واحداً من منفذي الأوامر؟ وعندي أنه لم يبق سوى الازدراء نمارسه على هذا العالم اليرقاني الملعون. فالحمد للقدر الذي زودني بغريزة التقزز والازدراء. وعندي أن المؤرخ لا يصير مؤرخاً إلا إذا قال عن الخسيس بأنه خسيس، أو عن اللئيم بأنه لئيم. أقول هذا مع أنني لا أكتب تاريخاً بل سيرة ذاتية.

ترى، لماذا لم يمنحهم بلفور مدينة لندن نفسها؟ وأية سماجه تلك التي دفعت وزيراً كي يهب شيئاً لا يملكه لكائنات لا تربطه بهم أية رابطة، سوى أن يكونوا أسياده يأمرونه فينفذ؟ ثم ماذا عساها أن تكون قيمة لندن لدى الحديث على مستوى اللباب؟ إن القيمة هي كل ما يعزز إنسانية الإنسان. أفلا يسهم حجر الغمّارة في تعزيز قيمة الإنسان أكثر مما تفعل أوروبا بأسرها؟ نعم، أوروبا القرصنة والإرهاب، والتي لا عمل لها طوال القرون الخمسة الأخيرة سوى أن تخفّض قيمة الإنسان وتهينه وتمتهنه وتثلب وجوده وتسلب كرامته وترمّد شهامته ومروءته.

ثم أليس في الميسور الزعم بأن إذعان الغربيين للصهاينة هو علامة من علائم انحطاط الغرب، الذي صار شبابه وراءه، دون أدنى ريب، ولكن دون أن يأسف على ذلك عاقل بتاتاً، حتى وإن كان من الغربيين؟ ويزعم الصهاينة بأن بلفور قد منحهم "أرض أجدادهم"، ولا يدري المرء كيف يمكن لفلسطين أن تكون لأجدادهم ما داموا أوروبيين شرقيين لا تسري في عروقهم أية قطرة من دماء منطقتنا بتاتاً. فلقد مُنحوا أرضنا لأنهم يهود فقط وليس لأنهم من منطقتنا أصلاً.

ليتني أعرف متى ابتكرت قريتنا فكرة ذلك الحجر لأول مرة، ومن هو الذي اقتطعه من صخرة ما، ثم هذبه ورسخه في ذلك المكان المناسب على يسار

المرء حين يخرج من القرية إلى السهل. وهل الحجر الذي رأيت هو أول حجر من هذا النوع، أم أن حجارة كثيرة قد سبقته إلى ذلك المحل؟

وإلى جوار الدرب العريض الذي نسميه المدان، والذي تلامس حافته الغربية بيت جدي علي، كانت هنالك حاكورة نسميها حاكورة السبيل (والحاكورة كرم صغير جداً.) وهي ليست ملكاً لأحد، وبها عدد صغير من أشجار الزيتون. ولقد اعتاد الفقراء الذين لا زيتون لهم على المجيء إلى تلك الحاكورة ليجنوا ثمارها في موسم القطاف. ولا يفصلها عن بيت جدي سوى الدرب العريض الذي يسمى المدان. فالبيت من الغرب والحاكورة من الشرق. وفضلاً عن ذلك، فإنها لا تبعد عن البركة التي تقع إلى الشرق منها. وهنالك حاكورة ثانية اسمها حاكورة السبيل، وموقعها إلى جوار البركة من الجهة الشمالية. أما كلمة (السبيل) فتشير إلى الشيء المشاع الذي يحق لأي امرئ أن يستفيد منه.

وأغلب ظني أن المدان ما سمي بهذا الاسم إلا لأن المواشي تتجمع فيه ثم تمد، أو تسير، باتجاه المرعى. فالكلمة عربية مشتقة من فعل المد بكل وضوح. لقد كان المدان نقطة ازدلاف الماشية والرعاة تمهيداً للانطلاق صوب الكلأ والماء والحرية والهواء النقي.

وبجوار البركة من جهتها الشرقية، كانت هنالك قطعة أرض مزروعة بأشجار الصبار على نحو كثيف. وكنا نسميها الديسة (الياء بنقطتين والدال مجرورة) وأظن أن هذه الكلمة لا تطلق إلا على مكان فيه شجر الصبار الكثيف. وأذكر أنه قد كانت هنالك ديسة أخرى إلى الشمال من طريق طبريا – الناصرة، وبالقرب من واد صغير اسمه وادي ابريق. وكان هنالك بجوار ذلك الوادي كرم زيتون كبير اسمه كرم عبد العزيز. ففي ذاكرتي أنني ذهبت ذات مرة إلى هناك بصحبة بضعة أولاد من صفي في المدرسة، وسمعتهم يسمون ذلك المكان الذي تكثر فيه أشجار الصبار باسم الديسة. وقد أكلنا أكوازاً كثيرة من تلك الفاكهة

الشائكة في ذلك الموضع المكظوظ بأشجار الصبار، التي هي مشاع للناس جميعاً أينما وجدت في أرض لوبيا.

* * *

ولقد حدث توسع آخر في الجهة الجنوبية الغربية، أي على المرتفع الذي كنا نسميه الخربة. فقد أخذ الناس يبنون البيوت بكثرة في ذلك المكان المكشوف والمفتوح على النسيم الغربي البليل الآتي من البحر المتوسط، وهو الذي لا يبعد عن لوبيا سوى خمسة وستين كيلومتراً، أو زهاء ذلك. فلقد كانت تلة لوبيا تنحدر من الجهة الغربية باتجاه أرض سهلية تسمى المراقة. وهذه كلمة عربية مشتقة من الغرق، إذ يبدو أن تلك الأرض كانت تغرق بماء المطر في قلب الشتاء، وذلك لكثرة ما ينحدر اليها من مياه تأتيها من التلة نفسها.

ولكن تلة لوبيا تنحدر نحو الجنوب لكي تتلاشى على مشارف قرية الشجرة التي لم أرها إلا مرة واحدة في عام النكبة. وهذا الشطر من التلة هو الذي كنا نسميه باسم الخربة. ولئن كانت تلة لوبيا تمتد من الغرب إلى الشرق، أو بالعكس، فان الخربة تخالف هذا الوضع وتمتد من الشمال إلى الجنوب، أو بالعكس أيضاً.

وأغلب الظن أن الخربة كانت مأهولة في زمن غابر، ولكنها تعرضت للخراب ذات يوم، ربما بسبب النقص الكبير الذي أصاب الأهالي إثر هجمة لداء الهيضة، الذي اجتاح لوبيا سنة1907. وربما هجرت الخربة قبل ذلك التاريخ بقليل أو بكثير. ولكنني رأيتها وقد أخذ الناس يعيدون استيطانها منذ أواسط الأربعينيات. وهنالك من أخبرني بأن المحتلين قد بنوا في الخربة مبان للنزهة والاستجمام، كما بنوا مستوطنة في أرض كنا نسميها مُنجبة (بضم فسكون فجرّ)، وهي إلى الشرق من لوبيا، حيث تملك أسرتي حقلاً صغيرا خصيباً. كما أن جدي علي له حقل في تلك الأرض نفسها. ومنجبة لفظة عربية مشتقة من (نجب)،

ولها صلة بالإنجاب، الذي هو الولادة. كما بنى المحتلون مستوطنة أخرى في أرض لوبيا، وذلك إلى الشمال الشرقي من بلدتنا، أو إلى الغرب من تل حطين، أو في أرض كنا نسميها القنّارة (بكسر القاف وتشديد النون)، حيث تملك أسرتي قطعة أرض كبيرة وخصيبة.

* * *

ويرى المرء إلى الشرق من لوبيا أرضاً متموجة وعرة تنحدر انحداراً عسيراً بعض الشيء صوب سهل الحمى الخصيب المنداح إلى الشرق من بلدتنا، ولا يفصله عنها سوى هذه الأرض التي تمتد على مسافة بضعة كيلو مترات. أما اسم هذه الأرض نفسها فهو العريض. وقد اعتاد الرعاة أن يأتوا بمواشيهم اليها لتأكل العشب، ولاسيما في الربيع يوم تتحول الأرض إلى زمردة خضراء تبهج الناظرين. والعريض محصور بين وادي الشبابة من الشمال وبين طريق دامية من الجنوب. وطريق دامية هذا يبدأ من المدان وينتهي عند بداية سهل الحمى من جهته الغربية.

أما سهل الحمى نفسه فهو المكان الذي وقعت فيه معركة حطين. فإلى الشمال من ذلك السهل يربض تل حطين الذي تحصن فيه الملك غاي، ملك القدس الإفرنجي صباح يوم السبت الموافق للرابع من تموز سنة1187، أي يوم المعركة، كما تحصن فيه الكونت ريمون، قائد فرسان الافرنج، في اليوم السابق تماماً. ثم إن الدرب الممتد من طبريا إلى الناصرة، يمر بين سهل الحمى وتل حطين، الذي يقال بأن السيد المسيح قد صعد إلى مكان فيه وألقى على أتباعه خطبة مشهورة تسمى خطبة الجبل، وهي التي ورد ذكرها في العهد الجديد.

وكنا نرى ذلك التل من سطح بيتنا في لوبيا، إذ إنه يتوضع بثقل ورصانة إلى الشمال الشرقي منها، على يسار الذاهب إلى طبريا. وربما بلغت المسافة بين القرية والتل ثلاث كيلومترات، أو نحو ذلك. وبما أن لنا قطعة أرض إلى الغرب منه مباشرة، اسمها القنّارة، وكذلك قطعة أخرى في واد صغير ينحدر على سفحه

الجنوبي، واسمه وادي الشومر، فإنني أعرفه جيداً، إذ كنت اتردد على ذينك المكانين منذ بداية عمري. فالفلاحون يأخذون أطفالهم معهم إلى الحقول في أيام العمل، ولاسيما إذا كانوا ممن تجاوزوا سن السادسة. وربما أنجبت الفلاحة الحامل في الحقل، أو حين تكون في سبيلها اليه. وأذكر جيداً أن قمة ذلك التل هي كتلة صخرية كبيرة ومستديرة بعض الشيء. ولهذا السبب فإن اسم تلك القمة في صقعنا هو قرن حطين.

* * *

ومن جهة الجنوب الشرقي يتحول المدان إلى طريق تصل إلى عين ماء اسمها دامية، وموقعها في الطرف الغربي من سهل الحمى، أو عند الفسحة التي تتلاشى فيها الأرض المتماوجة لتذوب في السهل المنداح الذي تتفتح مساحته الفيحاء حتى لكأنها تبتغي أن تشرح فحوى الحرية والانسياح النافر من كل تقييد أو تحديد.

وقبل البلوغ إلى دامية، كان ثمة مكان عسير يعترض الدرب، وكنا نسميه العقبة. وفي ذلك الموضع كان الناس يشاهدون ضبعاً كبيراً بين الفينة والأخرى، ويسمونه ضبع العقبة. وعلى يسار الذاهب من القرية إلى العين، وحين يكاد يبلغها، ثمة حجارة شديدة الضخامة وكثيرة العدد، كنا نسميها شقفان دامية. والشقفان (بضم الشين المثلثة) جمع شقيف، والشقيف كلمة سريانية معناها الصخرة العظيمة الضخمة. وكان بعض الناس يتهكمون على من له أسنان كبيرة بقولهم: "أسنانك مثل شقفان دامية." أما من كان سميناً فيصفونه بأنه مثل ضبع العقبة، ولاسيما إذا كان أسمر اللون.

وهنالك بعض الكروم على جانبي الدرب المؤدية إلى دامية، والتي لا يقل طولها عن أربعة كيلو مترات ابتداءً من المدان وحتى العين. وأول تلك الكروم واحد يسمى (زيتونات مويس) (بضم ففتح). وهو على يمين الذاهب إلى السهل بعد أن يغادر المدان بقليل. وبين تلك الكروم ثمة واحد، من الجهة الشمالية،

لرجل اسمه ذيب سليمان حجو، وهو جد زوجتي لأمها، وذلك في أرض يقال لها (المنجّى) (بضم ففتح فشدة على الجيم المفتوحة) وهذه كلمة عربية مشتقة من فعل النجاة. وقبالة المنجّى، أو إلى الجنوب منه، ثمة أرض اسمها الخروبة، وموقعها إلى يمين الذاهب من البلدة إلى العين. ولئن كانت أرض المنجى مرتفعة قليلاً، فإن أرض الخروبة منخفضة على نحو واضح.

وفي الخروبة ثلاثة كروم على الأقل: واحد لجدي علي، وآخر لابن عمه ابراهيم طه، جد زوجتي لأبيها، وثالث لرجل من أقربائي اسمه عودة العلي، وهومن حفر قبره في كرمه ذاك، ودفن هنالك، وخرجت المدرسة في جنازته خلال الشطر الأخير من سنة1947. وفي تلك الجنازة، كنا نحن التلاميذ ننشد نشيدنا المفضل، وهو الذي يبدأ بهذا البيت:

أنت سوريا بلادي أنت عنوان الفخامة

فقد كنا نعد أنفسنا سوريين ونعد فلسطين جزءاً لا يتجزأ من سوريا.

وتبعد تلك الكروم الثلاثة المتجاورة عن طريق دامية أكثر من مائة متر باتجاه الجنوب. وأذكر جيداً أن كرم جدي تكثر فيه أشجار المشمش واللوز والزيتون بوجه خاص، فقد كان فلاحاً نشيطاً وخبيراً بالزراعة لا يبذه أحد في القرية كلها. ولأشجار المشمش واللوز زهر جميل، بل فاتن مبهج، ولا سيما اللوز الذي يزهر في الربيع الباكر جداً. فإذا أزهر شجر اللوز، يكون الفصل اليانع، أقصد الربيع، قد بدأ حتماً، أما إذا أزهر المشمش فإنه يكون قد ترسخ تماماً، وتكون الحرارة قد بدأت تفتحل بالتدريج حتى تبلغ أوجها في شهر تموز. وأذكر أن المشمش إذا أينع في كرم جدي وحان قطافه فإنه يتلون بلون قمري أو شفقي أخاذ.

أليس مما هو شديد الإثارة للحزن والأسى أن تؤول تلك الارض العذية الندية إلى كائنات منسوجة من الخبث والكلوح الشيطاني المقيت؟ فأي عالم هذا الذي يصفق لليهود وهم يفتكون بالشعب الفلسطيني الأعزل الفقير؟

وقبل الوصول الى الخروبة، التي لا تبعد أكثر من كيلومتر واحد عن المدان، وإلى يمين الطريق الذاهب إلى دامية، كانت هنالك رجمة من الحجارة اسمها العجمي. والرجمة كومة كبيرة من الحجارة، وهي بلهجتنا تبدأ بضم فسكون. أما في اللغة العربية فهي الرضمة (بفتح فسكون). وتحت تلك الرجمة أو الرضمة دفن شيخ أصله من بلاد العجم التي هي إيران. واعتقد الناس بان الشيخ يظهر ليلاً أو يتجول في المكان، ويصلي بعدما يتيمم بالتراب. ومما يشبه هذا الأمر أنه كان هنالك، في الطرف الجنوبي لسهل الحمى قبر آخر اسمه بسوم (بفتح فشدة على السين المهملة)، وهو بجوار عين ماء غزيرة اسمها عين بسوم. وكثر هم الذين زعموا أنهم شاهدوا الشيخ يتوضأ بماء العين كي يصلي الصبح.

وما من أحد يعرف لماذا سميت دامية بهذا الاسم المشتق من كلمة الدم، ولكنني أرجح أن تكون قد سميت بهذه التسمية لأن صداماً جرى بين الإفرنج وبين الجيش الأيوبي من أجل السيطرة على تلك العين نفسها يوم حطين. فمما هو مؤكد أن الافرنج أنهكهم العطش في ذلك اليوم، وأنهم كانوا يلوبون على الماء يريدونه بأي ثمن، ولكن دون أن يصلوا اليه. وتقول بعض المصادر العربية أن فرسان الافرنج، حين انقضّوا من السفح الجنوبي لتل حطين على الجيش الأيوبي المحتشد في سهل الحمى، أوفي طرفه الغربي، قرب كفر سبت، التي لا تبعد عن لوبيا أكثر من أربعة كيلو مترات، فإنهم قد أحرزوا نصراً أدى إلى تقهقر الكتيبة الأيوبية صوب الجنوب، أي صوب عين دامية. ولابد لهذا الحادث من أن يكون قد حدث في بداية السهل من جهة التل، أي في طرفه الشمالي الغربي. فمما هو لافت للانتباه أن الأرض في تلك الزاوية اسمها الدمية (بفتح الدال وبتشديد الياء المثناة)، حيث تملك أسرتي حقلاً خصباً أعرفه جيداً. وهذه تسمية تؤشر إلى الدم هي الأخرى. وأغلب ظني أن تقهقر الكتيبة الأيوبية أمام الفرسان الافرنج هو استدراج وحسب.

والأرجح أن بداية المعركة بين الطرفين قد جرت في ذلك الموضع حيث سالت دماء غزيرة، فسمي المكان باسم الدمية، أي الأرض المدماة. وربما ظلت الكتيبة الأيوبية تواظب على التقهقر حتى دامية، التي وصلها الافرنج فوجدوا – على ما أرجح – قطعة أيوبية كبيرة بانتظارهم. وهنالك حول عين الماء سالت دماء كثيرة من الطرفين، وأرغم الافرنج على التراجع شمالاً صوب تل حطين. لقد كانت الكتلة الرئيسة من الجيش الأيوبي ترابط بالقرب من كفر سبت التي لا تبعد عن دامية أكثر من كيلو مترين. وهنالك خيم صلاح الدين نفسه. ومن المحتمل أن يكون الافرنج قد استبسلوا عند دامية، وذلك بسبب حاجتهم إلى الماء، فأدى استبسالهم إلى مجزرة سالت فيها دماء كثيرة جداً. ويبدو أنه لهذا السبب حصراً سميت دامية بهذا الاسم.

وكان الطريق الذاهب من لوبيا إلى طبريا شرقاً يمر فوق جسر وادي الشومر. وتحت ذلك الجسر، أي في ظله البارد، كنا نتناول طعامنا في أيام الحصاد الكاوية. وينحدر ذلك الوادي من الطرف الجنوبي الغربي لتل حطين، ويتجه صوب الجنوب، ولكنه يتلاشى في أرض اسمها الميشة (بفتح فسكون)، وهي تقع إلى يمين الدرب المتجه نحو طبريا. وأغلب ظني أن كلمة (الميشة) عربية الأصل، إذ إن الميش هو الخلط، كما يقول أحد المعاجم.

ووادي الشومر خصيب جداً، والقسم المزروع منه تملكه اسرتي وأسرة زوجتي وأسرة أمي. وكثيراً ما سمعت الناس يقولون بأن وادي الشومر قد جبل ترابه بدماء الصحابة أي صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم). ولكن الحقيقة غير ذلك. وأغلب الظن أن كتيبة أيوبية قد دهمت الافرنج يوم حطين في ذلك الموضع نفسه، وأنهت المعركة عند الساعة الرابعة بعد الظهر. ومن المؤكد أن ذلك الهجوم كان بقيادة أمير أيوبي اسمه عمر، وهو ابن أخ لصلاح الدين. ومن المحتمل أن يكون عمر قد شن هجومه من جهة الغرب، أي من جهة القنّارة، فتصدى له الإفرنج في الوادي العريض وغير العميق ابتغاء صده عن مواقعهم

التي كانت فعلاً إلى الشرق من الوادي. ولكنهم كانوا قد أنهكوا بعد قتال دام سبع ساعات في شمس تموز الحارقة. وأغلب الظن أنهم تعرضوا في الساعة الأخيرة من ساعات المعركة، لهجومين متزامنين، الأول من الجهة الجنوبية، أي من جهة السهل، قامت به الكتلة العظمى من الجيش الأيوبي، والثاني من الغرب قامت به كتيبة عمر الآنفة الذكر.

وكان بالقرب من وادي الشومر، وبجانب طريق طبريا – الناصرة من جهتها الشمالية، خان للمسافرين. وظلت آثار الخان باقية حتى عام النكبة، فشاهدتها بعيني. وكانت له آبار ظللنا ننتفع بها حتى خروجنا من ديارنا. وأنا أعرف تلك الآبار جيداً، وقد شربت منها مراراً، وهي قريبة جداً من حقلنا المجاور للجسر. وأذكر حجراً كبيراً في حقل جدي علي، أو على يسار الذاهب إلى طبريا، وقد رسمت عليه صورة سيف أتقن أيما إتقان.

* * *

وثمة إلى الغرب من ذلك الوادي، أو من قرن حطين، هضبة سهلية مرتفعة ومستوية بعض الشيء، أو منحدرة قليلاً نحو الجنوب، وصالحة للزراعة، اسمها القنارة. وهي جد قريبة من وادي الشومر. وإلى جوار حقلنا في القنارة كانت هنالك بركة اسمها بركة الرخ. وهي تمتلئ بالماء في قلب الشتاء، حين تكثر السواقي والسيول في معظم الأماكن، ولكنها تجف ابتداء من شهر نوار، بل هي تجف قبل ذلك في سنوات المحل. والرخ طائر خرافي يقال بأنه ينبعث من رماده، أو يتجدد تلقائياً. وربما كان الرخ هو طائر الفينيق نفسه، أو لعله ذلك الطائر الخرافي الذي سماه العرب (عنقاء مغرب) (بضم الميم). ومن المؤكد أن كلمة (عنقاء) هي تعريب لكلمة (عنخ) الفرعونية التي تعني الحياة. ولكن أهل قريتنا يسمونها (بركة الرق) (بضم الراء)، وذلك خلافاً لما ورد في بعض المصادر التاريخية التي تضع حرف الخاء مكان حرف القاف.

والى الجنوب من الميسة التي ينتهي عندها وادي الشومر، أو إلى الشمال من العريض، ثمة واد تمر فيه الدرب المتجهة من لوبيا إلى سهل الحمى، فتلامسه من جهته الشمالية الغربية، إذ إن ثمة دربين تربطان البلدة بالسهل، وهما هذا الدرب وطريق دامية التي تخرج من الطرف الجنوبي الشرقي لبلدتنا، بينما تخرج الثانية من الطرف الشمالي الشرقي.

ويسمى ذلك الوادي المحاذي للعريض من جهته الشمالية باسم وادي الشبابة (بضم المعجمة وتشديد الباء الأولى). وبجوار هذا الوادي، أو من جهته الجنوبية، ثمة أرض تنحدر انحداراً عمودياً نسميها المصّايات (بفتح الميم وشدة على الصاد) ويبدو أن هذه التسمية جاءت من أن الماء (يمصي) أي يسيل على شكل قطرات، أو بكمية طفيفة جداً، من أرض مرتفعة هي جزء من العريض الذي يندلح بين المصّايات وبين عقبة دامية. وينحدر الماء المتقاطر من ذلك المكان شتاءً باتجاه وادي الشُبابة الذي يبدأ بالقرب من طريق طبريا – الناصرة، أو بالقرب من جسر وادي الشومر، ثم يتجه شرقا حتى يتلاشى في سهل الحمى.

وإلى الغرب من منجبة، وهي الشديدة القرب من المصّايات أو من وادي الشُبابة، كانت هنالك قطعة أرض لجدي على أسمها العوينة، وهي القريبة من المنجّى، وكذلك من كرم الجندي. وتفصل بين العوينة ومنجبة درب تأتي من المدان والبركة وتنزل الى وادي الشبابة، وكذلك إلى طريق طبريا – الناصرة. وكلمة (عوينة) عربية، ولعلها أن تكون تصغيراً لكلمة (عينة) التي قد تعني الينبوع، بل ربما كانت كلمة (عوينة) تصغيراً لكلمة (عين) نفسها. وأذكر جيداً أن شطراً صغيراً من بحيرة طبرية كان يرى من العوينة قبيل غروب الشمس في الصيف. فالبحيرة لا ترى من أرض بلدتنا إلا من ذلك الموضع وحده، وفي ذلك الوقت حصراً. فهي في غور شديد الانخفاض أو العمق. ولن أنسى بتاتاً أن خالتي أمينة، الشديدة الذكاء، قد لفتت انتباهي إلى ذلك المشهد يوم كنت في الثامنة من سنوات عمري.

واعتاد جدي أن يزرع حقل العوينة المطل على طريق طبريا – الناصرة، أو القريب منها، بالبطيخ والشمام والقثاء والخيار وعباد الشمس، وذلك في الموسم الصيفي الذي تبدأ زراعته في نيسان. إن أرضنا كلها تروى بالندى طوال الصيف، وفي كل صباح تتبدى الآفاق وكأنها مغسولة بالأنداء والأنوار في آن واحد. وفي ميسورك أن ترى قطرات الندى وهي تلمع تحت أشعة الشمس البازغة للتو نقية صافية كحبيبات الماس، بل هي من الصفاء بحيث إذا مزجت بها نوراً فإنه سوف يمازجها بسهولة ما بعدها سهولة.

وكان تساقط الندى يبدأ زهاء الساعة التاسعة مساء. وفي الصباح ترى الأرض والنباتات كأنها مغمسة بالماء المقطر. ويظل الندى يغشّيها حتى الساعة العاشرة صباحاً. وهو يصير أكثر غزارة كلما تفاقم حر الشمس، أي في تموز وآب. ولهذا فإن مصيبتنا كبيرة، إذ خسرنا أرضاً نفيسة لا تبذها أية أرض سوى أرض الفردوس وحدها. والمثير للشجن أننا خسرناها لصالح كائنات ابليسية منسوجة من النجاسة والخساسة والتطفل على جميع البلدان. فيا لهذه الحضارة الحديثة التي منحت السيادة لليهود، والتي أفرزت السفلس والإيدز، ولكن الأهم من ذلك انها سملت الروح من سريرة الإنسان.

ولكم هي حسرة في قلبي أننا خسرنا جمال بحيرة طبريا الخلاب وكذلك برتقال يافا المنقطع النظير في العالم كله، والذي هو واحد من أهم المنجزات التي أنجزها الشعب الفلسطيني. ولكم يحز في نفسي أننا خسرنا هاتين الجوهرتين لصالح يهودي خسيس تحركه أطماع لا انسانية ولا عقلانية في آن واحد.

* * *

وأغلب الظن أن أرض دامية المجاورة للينبوع كانت معمورة ومأهولة في زمن سابق، وهناك من أخبرني بأنه شاهد حجراً في ذلك الموضع وقد كتب عليه" يا دامية، أنت بعد العمايري خراب." والعمايري رجل كان يعمر البيوت في دامية قبل مائتي سنة من الآن، أو زهاء ذلك. ولهذا سمي العمايري، أي البناء. وقد

رحل عن لوبيا وسكن في قرية الجعونة القريبة من صفد، وذلك إثر شجار دموي بين أفراد أسرته. ولكن سلالته ما زالت معروفة حتى اليوم في مخيم اليرموك.

ثم إن الأرض المحيطة بلوبيا مقسمة الى أماكن، أو الى أجزاء، وكل جزء له اسمه الخاص به، ففي أواسط سهل الحمى ثمة أرض تسمى المعترضة، وأخرى تسمى المعبر، وثالثة إسمها الزعفرانية ورابعة اسمها البِصاص، وإذا ما ابتعدت إلى الشرق رأيت ارضاً اسمها الخلال، وأخرى اسمها الكراسي، وهي الأبعد بين جميع أراضي القرية، إذ تقع في مكان ليس بعيداً عن ناصر الدين القريبة من طبريا.

وبجوار الكراسي، هنالك أرض في السهل اسمها البُسْكَنْدِية. ولقد لفت انتباهي يوم كنت في السويد سنة1994م، وفي مكان يقع بين مدينة يوتوبوري الواقعة على بحر الشمال، وبين ضاحية من ضواحيها اسمها هسنغن، حيث أقمت لمدة أسبوع في شهر تموز من ذلك العام، أو من الثالث عشر وحتى التاسع عشر من ذلك الشهر، لقد لفت انتباهي مكان اسمه بُسكنديا Boscandia، فنبهت من كانوا معي يومئذ إلى التشابه بين الكلمتين. ولا يمكن لهذه الكلمة أن تكون عربية، ولا أحسبها سريانية ايضاً، ومما هو جد محتمل أن تكون من بقايا الأسماء الافرنجية التي تركها الافرنج في بلادنا فلسطين.

وعلى أية حال، فإنني أذكر هذه الأسماء كلها وهذه التفاصيل جميعها من أجل تخليدها، أو ابتغاء تزويدها بالمناعة التي تصد عنها أمواج الزمان، وهو الذي من شأنه أن يترعرع في الكائنات فيحيلها الى خلاء. ثم انه لا بد من إطلاق هذه الاسماء مرة أخرى على الأماكن التي تخصها، إذ سوف يتاح لأحفاد أحفادنا أن يعودوا الى بلادنا المغدورة التي لا بد من استردادها كلها في المستقبل البعيد، على الرغم مما نواجهه من المحن والكوارث. وهذه الحقيقة هي الحتمية التاريخية الوحيدة التي أومن بها دون تردد أو ارتياب.

وإنني أهيب بأبناء لوبيا الذين ظلوا في فلسطين المحتلة حتى اليوم، أو حصراً في قرية دير حنا التي ولد فيها خليفة من الخلفاء الأمويين نسيت اسمه، أهيب بهم أن يرسموا خرائط مفصلة لأراضي لوبيا التي تبلغ مساحتها ثمانية وأربعين ألف دونم، وأن يثبتوا على كل جزء من تلك الأراضي اسمه الذي يخصه دون سواه، و ذلك بغية حفظه وصيانته من عبث الطفيليات المتطفلة على بلادنا، وهي الكائنات التي لا يبذها أحد في مضمار تزوير الحقائق وتشويهها، وذلك ابتغاء الحؤول دون وصول قوى التحرير التي سوف تنتزع الأرض منهم شبراً إثر شبر.

* * *

أما القرى المحيطة بلوبيا، أو القريبة منها، فعددها خمس. وفضلاً عن ذلك فقد كان هنالك ثلاث مستوطنات لليهود، وهي لوبيا الجديدة الواقعة في أواسط الحمى، ويمّا (بفتح فشدة على الميم) ومستعمرة الشجرة المجاورة لقرية الشجرة العربية. وأنا أعرف مستعمرة لوبيا الجديدة، إذ إن لنا حقلاً في أرض اسمها المعبر مجاورة لأرض المستعمرة. أما مستعمرة يمّا فبعيدة عن لوبيا إلى حد ما، إذ إنها تقع في الشطر الجنوبي الشرقي من سهل الحمى.

وأولى تلك القرى المحيطة بلوبيا هي قرية الشجرة التي تقع إلى الجنوب الغربي من بلدتنا، ولا تفصلها عنها إلا مسافة لا تزيد عن ثلاثة كيلو مترات. وعلى مشارف تلك القرية استشهد الشاعر عبد الرحيم محمود سنة1948، كما ولد فيها الشاعر علي الأحمد الذي لم أره بتاتاً، والذي ظل في الناصرة فنجا من بؤس التشرد وذل اللجوء. ولقد كتب قصيدة جيدة تسربت عبر الحدود إلى البلدان العربية المجاورة سنة1950، أو بعد ذلك بقليل، وراح بعض شباننا يحفظونها عن ظهر قلب، ولكن السلطات لم تسمح للناس بتداولها يومئذ. وفي تلك القصيدة يخاطب الشاعر ملوك العرب ورؤساءهم بقوله:

قسماً لو ان المومسات مكانكم لتركن ماخور الفجور عيانا

ولبسن مسح الراهبات تقشفاً هرباً من العار الذي أخزانا

ولئن كانت الشجرة إلى الجنوب الغربي من لوبيا، فإن نمرين إلى الشمال الغربي. وهي ترى بالعين المجردة من تبّة المقبرة الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية من تلة لوبيا، ولهذا فإن تلك التبّة تطل على الشمال والغرب في آن واحد. أما المسافة التي تفصل نمرين عن لوبيا فأظنها لا تزيد عن كيلو مترين، وربما أقل من ذلك.

وأما كفر سبت، فهي مثل نمرين قرية صغيرة جداً، وموقعها على تلة يلامس شطرها السفلي سهل الحمى من جهته الغربية، أو الجنوبية الغربية. وكانت ترى من لوبيا بسهولة. ولا تزيد المسافة الفاصلة بين القريتين عن أربعة كيلو مترات. وهي إلى الجنوب الشرقي من بلدتنا.

ولكن قرية حطين ذات الينابيع الغزيرة هي أشهر القرى الخمس وأكثرها ينعاً واخضلالاً وإمتاعاً للبصر. وهي تقع عند أسفل السفح الشمالي لتل حطين، ولهذا، فإنها لا ترى بالعين من لوبيا، إذ يفصل التل بين القريتين. ولقد زرتها ثلاث مرات قبل أن تطردنا من بلادنا قوى البغي والشر المتحالفة والمتحدة ضدنا، والمغرمة بالعدوان وصنع البؤس لبقية الجنس البشري، بل المختصة بالفاجع والكارث وكل ما هو من فصيلة الشقاء.

ففي المرة الأولى كانت هنالك في حطين امرأة هي بنت أخت جدتي لأبي، وأصلها–كجدتي– من كفر عنان الواقعة إلى الشرق من الرامة. ولقد زرتها بمعية جدتي خضرا التي هي خالتها، إذ ركبنا حمارنا وذهبنا إلى هناك حيث قضينا ليلة وعدنا في اليوم التالي. وأغلب ظني أن تلك الزيارة قد تمت سنة 1946، وفي فصل الربيع، وربما في شهر أيار حصراً.

وكانت لها بنت تكبرني بأربع سنوات أو خمس، وقد أخذتني مع أختها الصغرى إلى بستانهم اليانع، وأطعمتني خساً، فأكلت ذلك النوع من الخضراوات لأول مرة في حياتي. ورأيت الماء ينساب غزيراً في بساتين حطين. وهذا مشهد

غير مألوف عندنا في لوبيا التي تجمع ماء المطر في الآبار ليشرب الانسان والحيوان. فحطين محاطة بجنة غناء تغرد فيها الطيور مفعمة بالنشوة كأنما سقيت سلافاً، على حد عبارة أمرئ القيس.

وأذكر أنني ذهبت مع أبي إلى طبريا ذات يوم (ربما في سنة 1946)، وكان معنا حمار ركبناه إلى تلك المدينة. ولا اذكر الغرض من تلك الزيارة، ولا ما فعل ابي هناك. وقد وصلنا الى البحيرة حيث سبحت لأول مرة في حياتي، ولكن على الشاطئ تماما. كما اذكر اننا اشترينا تينا وخبزا واكلنا في الخان حيث وضعنا الحمار ريثما عدنا من البحيرة. ولم نرجع الى لوبيا عن طريق الناصرة، بل سرنا مع وادي الحمام من طبريا الى حطين. وفي الوادي لفت أبي انتباهي الى طائرين يطيران في الجو، وقال إنهما يمامتان. واليمام هو الحمام البري، أو هكذا كنا نعتقد. فسألت أبي: هل سمي هذا الوادي بوادي الحمام لأنه مأهول بالحمام البري؟ فقال: ربما.

وفي الوادي مررنا ببيت شعر فيه أعرابي، دعانا للاستراحة عنده. فدخلنا وشربنا الماء أولاً، ثم صب البدوي لكل منا فنجاناً من القهوة العربية اللذيذة التي نسميها السادة. ثم تابعنا سيرنا إلى حطين حيث زرنا ابنة خالة أبي، وحيث تناولنا الغداء. وبعد ذلك غادرنا تلك القرية إلى لوبيا، فوصلنا قبل الغروب.

وحين قرأت (سفر نامه) أي كتاب السفر، للرحالة الإيراني ناصر خسرو، علمت أن وادي الحمام هو الطريق الذي سار عليه ذلك الرجل حين سافر من حطين إلى طبريا، مع أنه لم يذكر اسم ذلك الوادي بتاتاً. وقد سبقني إلى هناك بتسعمائة سنة، إذ وصل إلى فلسطين سنة 1047م. ونوه الرجل بأن سكان طبريا ومحيطها كانوا من الشيعة يوم مر بها في العصر الفاطمي.

ومما هو معروف أن حطين فيها قبر النبي شعيب، أو لعله أن يكون مزاراً فقط. والدروز يهتمون بذلك النبي اهتماماً يفوق اهتمام سواهم من الطوائف الإسلامية. وهو في ظاهر القرية وليس في داخلها، أو على السفح الشمالي

الغربي لتل حطين. وقد جاء في الأخبار أن السلطان الظاهر بيبرس قد جعل إحدى قرى صفد وقفاً على النبي شعيب، وذلك بعدما استرد تلك المدينة من الفرنجة سنة 1266م.

وذات مرة زرته في يوم عيده، الذي يأتي كل سنة في شهر نيسان. وكانت تلك هي الزيارة الثالثة لحطين. فبينما كنت أسير في أحد أزقة لوبيا من الجهة الشرقية، وكان الوقت صباحاً، صادفت مجموعة من الأولاد، بعضهم من تلاميذ صفي. فقال لي أحدهم بأنهم ذاهبون إلى حطين لمشاهدة عيد النبي شعيب، وطلب مني أن أذهب معهم، ففعلت بعدما أبلغت أبي بذلك. وأغلب ظني أن تلك النزهة قد حدثت في شهر نيسان سنة 1947م. وكانت معنا مجموعة صغيرة من البنات الصغيرات أيضا. وأذكر جيداً أنه كان يوماً ممتعاً جداً، لا ينسى بتاتاً. كما أذكر أن المسافة لم يزد اجتيازها عن ساعة واحدة في الذهاب ومثلها في الإياب.

ولقد ذكر ناصر خسرو قبر النبي شعيب، ولكن دون أن يذكر حطين صراحة في كتابه الآنف الذكر، كما ذكر قبر أبي هريرة الذي في ظاهر طبريا. وذكر أسماء الكثير من المدن والقرى الفلسطينية، وخاصة عكا وحيفا وطبريا في الشمال، وكذلك قرية كفر كنا، التي هي قانا الجليل المذكورة في العهد الجديد، حيث حول السيد المسيح الماء إلى خمر في عرس يعرفه كل من قرأ الأناجيل، والعهدة على الراوي. إنها قرية مشهورة بالرمان الذي وصفه الشاعر ابراهيم طوقان في إحدى قصائده، يوم كان معلماً فيها. أما موقعها فهو إلى الغرب من لوبيا على طريق الناصرة، بعدما يسير المرء عشرة كيلو مترات، أو أكثر بقليل.

كما أن ناصر خسرو قد ذكر عين الماء الساخن في مدينة طبريا، ثم تحدث عن سور طبريا وبحيرتها وجامعها الكبير، ولكنه لم يذكر لوبيا قط. والجدير بالتنويه أنني رأيت تلك العين بعدما صارت حماماً، أي بعدما بني عليها بناء كبير يستحم الناس في داخله. ولقد دخلته مع أمي لنستحم وذلك في سنة

1944، أو ربما بعد ذلك بسنة واحدة. فقد خصصت إدارة الحمام يوماً واحداً من كل أسبوع للنساء. وكان مسموحاً لهن أن يصطحبن معهن أطفالهن إذا كانوا دون السادسة. ولا زلت أذكر مشهد المستحمات اللاتي كان بعضهن يلبس لباساً صغيراً يستر العورة الغليظة، بينما كانت غالبيتهن في حال من العري التام.

وهنالك قرية اسمها طرعان، وموقعها إلى الشمال الغربي من لوبيا، وكذلك من نمرين. وهي ترى من تبّة المقبرة بالعين المجردة، والمسافة الفاصلة بينها وبين بلدتنا لا تزيد عن أربعة كيلو مترات أو خمسة. وهي ترخم عند أسفل السفح الشرقي لجبيل كنا نسميه جبل حجفا (بفتح فسكون). وهو يرى من سطح بيتنا الواقع في حارة الجرينة التي تتوسط لوبيا على وجه التقريب، والتي هي حتماً أقدم جزء من أجزاء بلدتنا، وذلك لأن فيها الجامع وحجر المعصرة. كما كان تل حطين يرى من سطح بيتنا هو الآخر. ولئن كان جبل حجفا إلى الشمال الغربي من لوبيا، فإن تل حطين إلى الشمال الشرقي. ولا ريب في أن السيد المسيح قد رأى ذينك التلين إلى يساره وهو يسافر من الناصرة إلى بحيرة الجليل، على الدرب الذي يلامس لوبيا من جهتها الشمالية.

لقد حاولت أن أرسم صورة لما يحيط بلوبيا من القرى والأراضي. ولقد استنبطت تلك الصورة من الذاكرة، وكذلك من أحاديث الناس.

* * *

وأذكر أنني قرأت في أحد الكتب منذ زمن بعيد أن الامبراطور الروماني فسباسيان، الذي جاء إلى فلسطين ليقمع ثورة في ستينيات القرن الأول الميلادي، قد خيم في أرض طرعان لمدة من الزمن، وذلك قبل أن يعهد بقيادة الجيش لابنه تيتوس، إذ عاد إلى روما ليتسلم العرش بعد وفاة نيرون سنة68 للميلاد. وأغلب الظن أن مرج الذهب هو المكان الذي نصب خيامه فيه. ويقع ذلك المرج، وهو أرض سهلية فسيحة، بين نمرين وطرعان، ولكنه يرى بالعين المجردة من قريتنا،

أو من طرفها الشمالي الغربي، حيث المقبرة التي ما زالت على حالها حتى يوم الناس هذا.

والى الجنوب من قرية طرعان، ثمة مفرق تنشعب منه أربع دروب: واحدة تذهب شرقاً نحو لوبيا فطبريا، وثانية تذهب غرباً صوب الناصرة بعد أن تمر بكفر كنا التي هي قانا الجليل، وثالثة تسير شمالاً باتجاه صفد وعكا ولبنان، ولكن دون أن تمر بطرعان التي هي إلى الغرب قليلاً من الدرب، ورابعة تذهب جنوباً باتجاه جنين فنابلس فالقدس، ولكن بعدما تجتاز مرج ابن عامر. ويمر ذلك الدرب الرابع نفسه بقرية العفولة القديمة المتوضعة في سواء ذلك المرج الخصيب الذي باعه لليهود أرمني لبناني اسمه سرسك، وذلك زهاء سنة 1900.

وكانت هنالك بجوار المفرق، وعلى يمين الذاهب إلى الناصرة، بركة تحتشد فيها المياه أثناء الشتاء والربيع. وأذكر عموداً أثرياً قديماً في وسط البركة، أو إلى جوارها، ولعله أن يكون رومانياً حصراً. ونحن نسمي هذه البركة، أو ذلك المكان كله، باسم مسكنة. وهذه تسمية قديمة جداً، وأغلب الظن أنها كلمة كنعانية. فلقد اكتشفت الحفريات مدينة للهكسوس اسمها مسكنة، وذلك بين حمص وسلمية. وكان بعض الأولاد الذين يكبرونني سناً يذهبون في الربيع إلى تلك البركة ليسبحوا ويتنزهوا في ذلك المكان الفسيح.

ويمتد مرج الذهب من مسكنة إلى مشارف قرية عيلبون التي هي بين طرعان والمغار، أقصد مغار حزور، إذ ثمة قرية أخرى اسمها مغار الخيط، في محيط مدينة صفد الراخمة على ذروة جبل كنعان الرابض إلى الشرق من جبل الجرمق. أما جبل حزور الذي تقع بلدة المغار على سفحه الجنوبي فكان يرى من سطح بيتنا بوضوح.

ولا أذكر أن أحداً كان يستخدم مرج الذهب للزراعة، مع أنه خصيب ومنبسط وواسع، وربما راح الرعاة يسّرحون فيه أغنامهم لترعى، وخاصة في الربيع. وأذكر أنني ذهبت مع أبي ذات يوم لجلب الحطب من ذلك المرج، أو

ربما من الوعر المجاور له من الجهة الشمالية الشرقية. ومن الطرائف أنني أتذكر مرج الذهب دوماً حين يذكر على مسامعي كتاب (مروج الذهب) للمسعودي. وهذا سفر ممتع حقاً، طالعته منذ أكثر من عشرين سنه، ومما هو مؤسف جداً أن معظم ذلك الكتاب النفيس قد ضاع.

أما قرية عيلبون، الواقعة إلى الشمال من طرعان، والى الجنوب من مغار حزور، والتي لا ترى من لوبيا قط لأنها في أرض منخفضة، أو في واد لعله أن يكون امتداداً لسهل البطوف الذي هو واد عريض يقع إلى الغرب من عيلبون، ولعل الوادي الذي ترخم فيه تلك القرية أن يمتد حتى يصل إلى حطين، ثم إلى وادي الحمام المتصل ببحيرة طبريا – إن قرية عيلبون ربما كان اسمها هو عين لبون، ولكن الناس حرّفوا ذلك اللفظ ابتغاء تسهيل النطق به. وبالفعل هنالك عين في تلك القرية الصغيرة، وهي تصنع مجموعة من البساتين، ولكنها ليست وارفة ويانعة مثل بساتين حطين، أو هكذا رسخ في ذاكرتي، أو في الذكريات التي ورثتها من طفولتي. وفي مخيلتي أن جميع سكان عيلبون كانوا من المسيحيين، أما طرعان فأمرها مختلف، إذ كان بعض سكانها مسيحيين وبعضهم الآخر مسلمين. ولا أدري ما هو وضعها في الزمن الراهن.

ومن المؤكد أن الملك غاي، ملك القدس الافرنجي، حين تحرك بجيشه من صفورية صوب طبريا لإنقاذ الأميرة إيشيفا، زوجة الكونت ريمون التي كان صلاح الدين يحاصرها داخل قلعة تلك المدينة، والذي كان يقود مشاة الافرنج، بينما أُسندت قيادة الفرسان لذلك الكونت نفسه – إن الملك غاي قد خيم مساء يوم الجمعة الموافق للثالث من تموز سنة 1187، في أرض لوبيا، وذلك بعدما تمكنت الكمائن الأيوبية من إنهاك جيشه، ولا سيما الساقة التي يقودها الكونت أرناط، وهو من قتله صلاح الدين بيده في اليوم التالي. ثم أرسل الملك إلى ريمون، الذي كان يتقدمه بمسافة قصيرة، يأمره بالتريث، فالتجأ هذا الأخير إلى السفح الجنوبي لتل حطين، بحيث صار التل درعاً يقيه الهجمات من الخلف

على الأقل. وفي الصباح، أي يوم المعركة الفاصلة، التحق الملك بالكونت في سفح التل، وخاضا كلاهما معركة حطين.

ولا أدري، وربما لا أحد يدري، أين خيم الملك غاي بالضبط، أو أين قضى تلك الليلة التي يسميها المؤرخون الغربيون (ليلة لوبيا). ولعله قد خيّم في الأرض السهلية المحاذية لبلدتنا من جهة الشمال الغربي، حيث بنيت قرية نمرين في القرن التاسع عشر، على أيدي أناس أتوا من سهل حوران. وتقع تلك الأرض الفيحاء التي تتسع لآلاف الجنود إلى الشرق من مرج الذهب، أي إلى الشرق من طرعان ومسكنة. ولكن، من المحتمل أن يكون الملك الافرنجي قد خيّم في المغراقة، أي في الأرض السهلية التي تقع إلى الغرب تماماً من تلة لوبيا، لأن من شأن التلة أن تحمي ظهره. وربما كان أهل لوبيا مسيحيين في ذلك الزمان، وهذا يعني أن لا خطر على الافرنج منهم. فمن المؤكد أن تانكرد وهو أحد الفرسان الافرنج الصناديد، قد طرد المسلمين من الجليل بعدما احتله الافرنج في بداية الحروب الصليبية، وذلك بعدما عينه ملك القدس الافرنجي حاكماً على هذا الاقليم الذي عاش فيه المسيح معظم حياته.

أما إلى الجنوب من لوبيا، وعلى مسافة قد تبلغ بضعة عشر كيلو متراً أو أقل، فثمة تل تسميه كتب الجغرافية جبل طابور، ونسميه نحن جبل الطور (والطور كلمة سريانية معناها الجبل)، وموقعه عند الطرف الشمالي لسهل مرج ابن عامر الذي هو سهل يزر عيل في اللغة الكنعانية (أي يزرع إيل، وإيل هو الله عند الكنعانيين) وينساب في وسط هذا السهل نهر يسمى نهر المقطع، ولا أدري من أين ينبع هذا النهر، ولكنه يصب بالقرب من حيفا، أو من جهتها الشمالية. أما اسمه الكنعاني فهو قيشون، ولقد ذكر اسمه في ثلاثة من أسفار التوراة التي كتبت باللغة الكنعانية وادعت انها اللغة العبرانية. وكنت أرى ذلك التل وأنا في طريقي إلى المدرسة.

ومما هو معروف أن معركة كبيرة قد دارت بين الجيش التركي وبين نابليون يوم كان هذا الأخير يحاصر عكا. فقد جاء من دمشق جيش كبير ليطرد الفرنسيين من فلسطين. وتقول المصادر الفرنسية بأن طليعة الجيش التركي قد تمركزت في (هضبة لوبيا). وأغلب الظن أن تلك الطليعة قد تمركزت في الخربة وفي الوعر الممتد منها إلى مشارف قرية الشجرة. أما نابليون وكليبر، الذي قتله سليمان الحلبي في مصر، فقد تمركزا على السفح الشمالي لجبل طابور. ومن المؤكد أن المعركة جرت في السادس عشر من نيسان سنة 1799. ويبدو أنها امتدت من جنوب طرعان وغرب لوبيا وأرض الشجرة إلى الجنوب حتى جبل طابور. وانتهت بأن مُني الأتراك بهزيمة نكراء، إذ طاردهم الفرنسيون حتى عبروا نهر الأردن إلى الشمال من بحيرة طبريا.

وكان على ذروة ذلك الجبل دير يُرى بالعين المجردة من لوبيا. والدير قديم يعود إلى الطور البيزنطي. وذات يوم ذهبت مدرستنا في رحلة ربيعية إلى ذلك الدير نفسه، ولكن المعلمين أخذوا تلاميذ الصفوف الثلاثة العليا، أما أنا فكنت في الصف الثاني، أي في أحد الصفوف الدنيا. ولهذا فإنني لم يقيض لي أن أزور ذلك المكان الأثري القديم.

وهنالك في بطون بعض الكتب خبر مفاده أن الظاهر بيبرس قد خيم في جبل الطور الذي هو جبل طابور، أو مستنداً اليه ابتغاء حماية ظهره من أي هجوم مباغت، وذلك سنة 1263، أي قبل نابليون بأكثر من خمسة قرون، وأنه هدم ذلك الدير الآنف الذكر لأن الافرنج حاولوا أن يحيلوه إلى قلعة حصينة.

ولقد عبرت مرج ابن عامر يوم سافرت إلى حيفا عن طريق اللجون، وذلك في الشهر الثاني من عام النكبة. ولكن صورته ليست صافية في مخيلتي. بيد أنني التقيت في مخيم اليرموك، منذ بضع سنوات، بشاعر فلسطيني مغمور يعيش في الشطر الشمالي من فلسطين المحتلة، وقد جاء لزيارة بعض أقاربه في هذا المخيم. فسألته عن أماكن كثيرة في ذلك الإقليم النبيل. وحين سألته عن مرج

ابن عامر فوجئت بإجابته الشاعرية، إذ قال بأنه صورة للانديا‌ح المترامي، وخاصة بسبب التقائه بسهل عكا قرب شفا عمرو، مما يجعله رمزاً للحرية والانفتاح على جميع الأشياء. وكان في ميسوره أن يضيف صورة شعرية أخرى فحواها أن المرج يشبه المزدلفة التي تزدلف إليها الجهات الأربع وتحتشد على نحو تلقائي، ودون ريث أو تلكؤ، حتى لكأنها تستجيب لندائه الشائق الجذاب. فالجنوب يأتيه ليبترد، ولكن الشمال يجيئه ليدفئ عظامه المقرورة دون أي أمل في الدفء.

أما الجبال الرابضة إلى الشمال من المرج فهي فسحة لأنشطة البرق والرعد والصواعق، بل ترتع فيها جميع قوى الطبيعة وفاعلياتها الكثيرة على هواها، كما قال ذلك الرجل الخبير بالمكان، أقصد بالجليل الجميل الذي أنجب السيد المسيح، كما أنجب مجموعة كبيرة من الكتاب والشعراء في الزمن الحديث.

* * *

وقد جاء ذكر لوبيا في بعض المصادر التراثية، وخاصة كتاب ابن شداد الذي عنوانه (المحاسن اليوسفية)، وهو المكرّس لأفعال صلاح الدين يوسف بن أيوب. وينص هذا الكتاب على أن معركة حطين جرت في أرض لوبيا. كما أن لوبيا قد ذكرت ثلاث مرات في الجزء الثالث من (كتاب الروضتين) لأبي شامة المقدسي. فقد جاء في ذلك الجزء نفسه أن شاعراً يسمى الجلياني الأندلسي قد مدح صلاح الدين بقصيدة رائية فيها هذا البيت:

أما رأيتم فتوح القادسية في أكناف لوبيّة تجلى، وذا عمر؟

ويبدو أن المؤرخين العرب قد نسبوا المعركة إلى لوبيا، وليس إلى حطين. ولكن الافرنج هم الذين سموها بهذا الاسم، لأن ملكهم قد التجأ إلى تل حطين في ذلك اليوم. (وكل شي فرنجي ابرنجي) كما يقول أحد الأمثال الشعبية.

وأذكر أنني قرأت ذات مرة في كتاب نسيت عنوانه أن السلطان سليم، حين فتح بلاد الشام سنة 1516، قد أعدم شيخ لوبيا في مدينة عكا، لأنه كان موالياً للمماليك ومعادياً لآل عثمان. وأظن ظناً أن ذلك الكتاب هو (مفاكهة الخلان) لابن طولون. كما أذكر أن كتاباً آخر قد أشار إلى شيخ كان يعيش في دمشق أثناء القرن السابع عشر، وكان اسمه الشيخ اللوبياني. وقد بلغني بالمشافهة أن ابراهيم باشا، حين غزا بلاد الشام سنة 1832، قد أعدم في مدينة الناصرة عدداً من رجال لوبيا. ويبدو أن أهل لوبيا، أو بعضهم، كانوا في عداد الثائرين على المصريين. كما بلغني بالمشافهة أن لوبيا دفعت الجزية لنابليون يوم غزا فلسطين.

* * *

كانت لوبيا التي راح وعيي يتفتح عليها بين سنة 1944 وسنة 1948، أي خلال السنوات الأربع الأخيرة من وجودي فيها، مكاناً خصيباً كثير الخيرات. فالقرية محاطة بكروم التين والزيتون على نحو خاص، ولا سيما من الجهة الشرقية، أي إلى الشرق من الصافح الذي هو السفح الشرقي لوادي العين. والكرمة متوفرة في كرومنا، وكذلك اللوز والمشمش، أما الصبار فهو كثير جداً، ولا سيما في الجهة الشرقية حيث تشكل الأشجار شيئاً يكاد أن يكون غابة كثيفة.

ولكن بلدتنا لا تعتمد على الشجر، أو على الفاكهة، ولا حتى على الخضراوات، في انتاجها الزراعي، بل على الحبوب بالدرجة الأولى، إذ إن سهل الحمى كان ينتج القمح أولاً، ثم الشعير والعدس والكرسنة. أما الفول فكان الناس يزرعونه في الأرض القريبة من البلدة. ويزرعه جدي علي في منجبه، ويزرع كذلك السمسم والحمص، فضلاً عن القمح والشعير والعدس.

وفي الميسور أن يقال بأن لوبيا كانت شديدة الاهتمام بمادتين زراعيتين، وهما القمح والزيتون، إذ إن القمح هو الغذاء الأول للناس، أما الزيت فشيء مقدس في نظر الجميع حتى لكأنه سر مجسّد.

ثم إن لوبيا التي رأيتها قد كانت واسعة الانتشار ومكتظة بالسكان. وفي تقديري أنها كانت مأهولة بأربعة آلاف نسمة في ذلك الحين، وربما بلغ عدد سكانها خمسة آلاف نسمة في عام النكبة. وينتسب ناسها إلى سبع أسر، وكل أسرة تنقسم إلى عدد من الأسر الفرعية الصغيرة. ويعتقد الجميع أن تلك الفروع تربطها رابطة قرابة أو نسب. وأغلب ظني أن الأمر ليس كذلك، وإنما هي تكتلات كان يمليها النظام القبلي السائد في فلسطين يومئذ، والذي هو صورة عما كان عليه الحال منذ زمن بعيد.

وثمة جامع في لوبيا، وموقعه إلى الغرب من بيتنا، وعلى مسافة لا تزيد عن مائة متر إلا قليلاً، أي هو في حارة الجرينة، أو عند طرفها الغربي. وتقع معصرة الزيتون في مكان قريب من الجامع. وهي إلى الشمال الغربي من بيتنا، وعلى مسافة لا تزيد عن مائة متر. وهي ملك للبلدة كلها. ولها حجر كبير كان يدار بالثيران أو بالحمير. وكانت هنالك زاوية، أو تكية، إلى الجنوب من الجامع، يؤمها الصوفيون المسافرون، ولاسيما اولئك الذين يتنقلون بين مصر والشام، أو بالعكس، فيبيتون ويأكلون على حساب أهل القرية. وقد دخلتها ذات مساء ورأيت الصوفيين وهم يمارسون فيها الذكر والصلوات.

وأخبرني أحد الناس ممن زاروا لوبيا بعد مضي عشرات السنين على تخريبها بأن قبة الزاوية مازالت قائمة حتى يوم الناس هذا. كما كان في الحارة الشرقية المطلة على وادي العين بقايا مسجد صغير. وكانت هنالك في مكان ليس بالبعيد عن ذلك المسجد مزبلة كبيرة جداً نسميها مزبلة العجاينة، وذلك نسبة إلى حمولة العجاينة التي تسكن في الجهة الشرقية من لوبية. وتتوضع تلك المزبلة على جزء من الحافة العليا للمنحدر الغربي المطل على وادي العين.

وفي مقبرة لوبيا ثمة ضريح مميز لنبي اسمه شوامين. وأغلب الظن أنه قديم جداً، وأن قدمه يؤكد قدم لوبيا نفسها. ولعل ذلك النبي أن يكون من الكنعانيين القدماء، إذ إن الكنعانيين والمصريين قد كان لهم أنبياء قبل اليهود، بل

لقد كانت هنالك في مصر الفرعونية مرتبة كهنوتيه اسمها مرتبة النبوة. ويبدو أن اليهود قد أخذوا هذا التقليد من الفراعنة. كما أن الجليل، صقعنا الفاتن، لم يكن يهودياً في أي يوم من الأيام، ولا سيما بعد استثناء مدينة طبريا وقرية الجش. ولهذا، فإن التوراة تسميه جليل الأمم. ومن المحال أن يكون الاقليم الذي أنجب السيد المسيح، ملك اللطف والمحبة، أرضاً يهودية بأي حال من الأحوال. فالأرجح أن النبي شوامين الآنف الذكر شخصية كنعانية، وليست غير ذلك.

لم يكن أهل لوبيا يكثرون من الصلاة، أما الصوم فهو شعيرة لا يتنكر لها أحد، فلا يفطر من الناس في رمضان الا الأطفال. ومن أفطر فهو في نظر الجميع خسيس، مالم يكن مريضاً أو على سفر. ولهذا، يشعر المرء بأن الصوم في لوبيا ينتسب إلى الأخلاق أكثر مما ينتسب إلى الدين، إذ إن مما هو شائن أو معيب جداً ألا تصوم في رمضان.

ومع أن لوبيا لا تخلو من اللصوص والزناة والمقامرين والمحتالين وهواة الشجار والعدوان، بل هي لم تخل حتى من القتلة، فإن أهلها، مع ذلك، من ذوي الكرامة والشهامة والنجدة والنخوة. ومقولة الشرف وكذلك مقولة الطيبة هما المثلان العاليان في البلدة كلها. ومن عادة الناس هنالك أن لا يسمحوا لأحد بأن يعتدي على أحد، كما أنهم دوماً مع المظلوم ضد الظالم. وإذا مرض طفل أو كبير، أو أي أمرئ، وطال مرضه، فإن معظم أهل لوبيا، أو أقله معظم أهل حيه، يأتون زائرين، وهم يحملون بعض الهدايا، ولا سيما الفاكهة أو الحلوى. ولا يتزوج أحد إلا ويساعدونه بالمال، إذ إن ثمة تقليداً اجتماعياً يسمونه (النقوط)، وخلاصته أن يدفع المرء للعريس مبلغاً زهيداً من النقود. ولكن كثرة من يدفعون تملك أن تجعل المبلغ كبيراً في بعض الأحيان. أما العروس فتحصل على النقوط هي الأخرى، ولا سيما من ذويها وصديقاتها وجاراتها. ويلمس المرء في هذا التقليد صنفاً من أصناف التكافل الاجتماعي، أو التضامن الذي من شأنه أن يخفف من وطأة الحياة على الانسان. وفي الحق أن الفرد تكفله أسرته الكبيرة، أو

تحمله عند الشدائد، ولهذا السبب تسمى (الحمولة) عندنا. وهذه لفظة مشتقة من (حمل)، بكل وضوح. فما من أحد يتعرض للإهمال والاغفال في لوبيا بتاتاً.

أما المرأة التي تلد، فإن عدداً كبيراً من النساء يأخذن لها شيئاً يسمى النقل (بضم فضم). وربما جاءته هذه التسمية من كونه شيئاً ينقل من بيت إلى بيت آخر. والنقل في الغالب مقلى بيض كبير، فيه أربع بيضات، أو أكثر، وهي مقلية بزيت الزيتون الممتاز. وربما كان النقل ربع رطل من اللحم، أي ستمائة غرام، أو نحو ذلك. وفي كثير من الأحيان يكون النقل لحماً مع بيض في آن واحد. وفضلاً عن ذلك، فإن المولود، أكان ذكراً أم أنثى، يتلقى بعض النقوط من الجيران والأقرباء أو الأصدقاء، فالعطاء شيمة من شيم شعبنا الطيب، بكل تأكيد. والطيبون هم حملة الهوية الإنسانية وحراسها أو سدنتها المخلصون.

وحين تلد امرأة، فإن الجارات والقريبات يتوافدن الواحدة إثر الأخرى إلى بيتها، وذلك للإسهام في التنظيف والخدمة والعمل على راحة الوالدة والمولود معاً. ففي الحق أن الشهامة والنخوة في قرانا كلها أكثر حضوراً من الخسة والنذالة. أما الفرد الأناني الذي يقف متفرجاً عند شدة الحاجة اليه، فهو كائن مكروه من الجميع. فالمثال في قرانا هو بذل الجهد والإسراع إلى الفعل الكريم الذي يجعل من الفرد كائناً زاكياً شريفاً. ولكم أصاب الرواقيون حين أكدوا على أن القيمة الأولى بين القيم البشرية هي بذل الجهد، ولاسيما الجهد الشديد.

* * *

ويبدأ الزواج عادة بأن يعرض أهل الشاب على ابنهم أن يخطبوا له هذه الفتاة أو تلك، ولكن بعدما يسبروا نيته ويتأكدوا من كونه عازماً على الزواج. ثم يذكرون على مسامعه أسماء بضع فتيات ليختار واحدة منهن. أما الفتاة التي يفضلها الشبان على سواها فلها ثلاث مزايا أو صفات جسمانية: طويلة وسمينة وبيضاء. وإذا غابت مزية واحدة من هذه المزايا، ولاسيما البيضاء، تناقص الطلب عليها، أما إذا غابت المزايا الثلاث كلها، فلا يتزوجها أحد إلا على مضض.

ولئن وافق الشاب على أن يخطب فتاة معينة، ذهبت أمه إلى والدة تلك الفتاة وتحدثت معها بالأمر. ثم إن المرأة تستشير زوجها وابنتها وأبناءها، وربما بعض الأقارب الآخرين. فإذا تمت الموافقة بلغوا أهل الشاب بذلك. وحينئذ يذهب والده ومعه مجموعة من الرجال المسنين إلى والد العروس ليكونوا بمثابة (جاهة)، أي بمثابة وفد يتوجه اليه راجياً منه أن يهب ابنته المتفق عليها سلفاً للشاب المتفق عليه. ويقولون له إنهم يطلبون القرب منه، أي يطلبون ابنته زوجة لابنهم. فيقول (أتتكم بلا جزاء ولا وفاء.)، وذلك يعني بغير مهر. ولكن الطرفان يكونان قد اتفقا على المهر سلفاً.

ثم تتم الخطبة، فيكتب الكتاب الذي كنا نسميه العقد، أي عقد الزواج. ويتقرر يوم الزفاف، والفلاح يفضل أيلول أو تشرين الأول لأنه يكون قد أنهى الموسم الزراعي، فلديه فراغ كاف ينفقه في شؤون العرس، إذ إن الموسم الجديد يبدأ في تشرين الثاني، وربما في كانون الأول. وتبدأ الدبكة في مساء اليوم السابق، وربما دبكوا لمدة أسبوع قبل يوم العرس. وهم يسمون الاحتفال السابق على يوم الزفاف بليلة أو أكثر باسم (التعليلة)، أي السهرة المصحوبة بالدبكة. كما أن أهل قريتنا يطلقون اسم التعلل على الاجتماع مساء. فيقول لك جارك أو صديقك" تعال نتعلل "، أي تعال لنمضي المساء معاً.

وقبل العرس بيومين أو ثلاثة يطوف شبان من أقرباء العريس على أهل البلدة يدعونهم لحضور العرس. كما تطوف فتيات من قريبات العريس، ولا سيما أخواته، على بعض نساء القرية يدعونهن إلى العرس. وكثيراً ما تتم دعوة أناس من القرى المجاورة، ولاسيما من الشيوخ المرموقين، أعني الزعماء المحليين، وكذلك من كان مشهوراً من أهل الطرب والغناء.

أما يوم العرس فهو يوم فرح أصلي للجميع، ولذلك فإنهم كثيراً ما يسمون العرس باسم الفرح. وفي الليلة السابقة على العرس، التي هي ليلة التعليلة، فإن الشبان يحنون العريس بالحناء، وكذلك تحني الصبايا العروس بالمادة اياها، وكل

منهما على حدة، إذ الاعراس في بلدتنا ليست مختلطة، على خلاف الحال في بعض قرى الشمال الأقصى.

وفي صبيحة يوم العرس، أو بعد الفجر بقليل، تذبح الذبائح ويبدأ الطبخ. وغالبا ما كان يطبخ اللحم باللبن ليخلط بطبخة ثانية من البرغل الذي كان الموسرون يستبدلون به الارز.

وبعد الغداء تتم زفة العريس، إذ يركب على حصان أو فرس، ويسير خلفه الشبان وهم يرودون. والترويد هو هذا الغناء الذي يغنيه الشبان حين يزفون العريس. ووراء الشبان كانت تسير الصبايا وهن يغنين أيضاً. أما غناء الفتيات فهذا مثاله:

عددوا المهرة وهاتوا البارودة واصمدوا العريس براس العقودة

أما (عددوا) فمعناها أعدوا، وأما العقودة فهي الأروقة ذات الأعمدة أو القناطر. وكانت هذه الأغنية واحدة من أغانيهن في لحظة الزفة:

منهو حويدركم، ومنهو دليلكم ويامين يرد الحمل لو كان مايل؟

العريس حويدرنا، العريس دليلنا العريس يرد الحمل لو كان مايل.

أما (منهو) فمعناها: من هو؟ وأما الحويدر فمصغر الحيدر، والحيدر هو الأسد. والمقصود بها الرجل الذي يعتمد عليه.

وأذكر بعض الأغاني التي كانت النساء تغنيها في دبكتهن اللطيفة وهذا مطلعها:

على بلاط عكا رنت كنادرنا

ومن أغانيهن هذا القول:

يا رايح الشام جيب الشام بالمنديل

والقمر بالمكحلة والشمس بالقنديل

ومثل هذه الأغنية التي تجعل اللغة تخرج عن مألوف عاداتها هي برهان على أن النزوع السريالي هو سمة راسخة في النفس البشرية طوال الأزمان كلها.

ولئن كانت دبكة الرجال على هيئة نصف دائرة، فإن دبكة النساء دائرة مقفلة. وفي وسط تلك الدائرة يقف عدد من الأطفال، فتدور النساء حولهم أثناء الدبكة. إنه الدوران حول مركز. ثم إن دبكة النساء لطيفة لا تعرف العنف، وذلك على النقيض من دبكة الرجال التي تحتاج الى جهد كبير. وقد الغيت دبكة النساء في مخيماتنا الراهنة وحل محلها نوع من أنواع الرقص لا يتمتع بأي عمق أو أصالة.

أما الرجال فكان غناؤهم في الزفة ينم عن نازع القوة أو العنف. فهم يغنون أغنية من هذا الصنف:

عريسنا عنتر عبس ---------- عنتر عبس عريسنا

يا شمس غيبي من السما ---------- عالأرض في عنا عرس

وأيضاً

صهيوني لا بد ما تموت من موزر ضربه عطيب

وأيضاً

واللي يعادينا بنذبحه، وبنشرحه بسيوفنا

هذا النوع من الغناء هو ما نسميه التراويد. ونحن نستعمل الفعل (روّد)، بتشديد الواو المفتوحة.

ثم يصمدون العريس، أي يجلسونه على كرسي مريح، وعند ذلك ترجع النساء إلى العروس. وهي تصمد عند أخوالها في الغالب. أما الرجال فيدبكون على أنغام الشبابة، وأحياناً على أنغام المجوز، الذي يسمى بهذا الاسم لأن له أنبوبان. فالمجوز كلمة تعني المزدوج.

أما أعظم أصناف الدبكة فهو ذلك الصنف المميز الذي يسمونه الدبكة الشعروية، وهي من اختصاص الشبان ذوي الأجسام الطويلة الرشيقة المتينة، إذ لا يصلح لها سواهم. وقد رأيت أبي يدبك هذه الدبكة على نحو مميز، وذلك في بعلبك سنة 1950، أو بعد ذلك بقليل.

وأثناء الدبكة يكون هنالك من يغني أغاني الدلعونة والجفرا وظريف الطول. ولا أعلم لكلمة (الدلعونة) أصلاً مؤكداً، اللهم إلا أن يكون كلمة (الدلع) العربية، والتي تعني أن يربى الطفل في العز والنعمة. أما الجفرا فعربية حقاً، ومعناها العنزة التي بلغت أربعة أشهر. ولكنها في بلدتنا تعني الفتاة التي مازالت في مقتبل العمر. (يقول أحد أمثالنا الشعبية: أكل الجفار يخرب الديار) وقد بادت أغاني الجفرا، أو كادت أن تبيد، في هذه الأيام، فلم يعد هنالك من يجيدها كثيراً، أو يهتم بها إلى الحد المطلوب.

وإثر غروب الشمس يزفون العريس من جديد إلى باب بيته. وتكون العروس قد وصلت إلى ذلك البيت قبله، كما أن النساء تكون قد زففنها هي الأخرى، أي سرن وراءها وهن يغنين غناء جماعياً. أما هي فتركب فرساً أو جواداً، ويمسك الزمام أحد اخوتها، كما أن أخاً ثانياً يمسكها هي نفسها لكيلا تسقط على الأرض أثناء سير الجواد. وتكون مغطاة بعباءة وإحدى يديها مرفوعة إلى الأعلى. وحينما تبلغ إلى بيت زوجها، فإن إحدى النساء تناولها قطعة عجين جاهزة فتلصقها فوق الباب تماماً، أو إلى جواره إذا كان عالياً. وقطعة العجين

هذه رمز للخصوبة بكل وضوح. وقبل أن تزف العروس على الفرس أو على الجواد، فإن النسوة يضعن على وجهها منديلاً شفافاً ويثبتنه جيداً. وهي تسبق عريسها إلى بيته فحين يدخل يجد العروس ومعها مجموعة كبيرة من الصبايا. وأول عمل يعمله هو أن يرفع المنديل عن وجه العروس ويراها. فكأنما هو يميط اللثام عن وجه الحقيقة ويعرفها. ثم يجلس إلى جوارها بينما تغني الفتيات وترقصن لحظة وجيزة من الزمن. ومن أشهر أغانيهن في تلك اللحظة أغنية مطلعها:

عمّر البيت عمّر
بحياة الرجال
خشب البيت صندل
يا عمودو ريحان

(أي إن عموده من نبات الريحان.)

وفي بعض الأحيان يحضرون إلى العرس رجلاً يسمى (الحدا) ليغني في ذلك اليوم البهيج. فيصطف الرجال على أحد البيادر بالمئات في صف واحد. ويقف الحدا أمامهم ويقول كلاماً غنائياً، فيرددونه وهم يسحجون.

والسحجة أن تضرب الكف الأيسر بالكف الأيمن. فهو يقول مثلاً:" واحنا على ظهور الخيل تعلمنا الفروسية". أي: نحن تعلمنا الفروسية على ظهور الخيل. وقد رأيت ذات مرة على بيدرنا صفاً من الرجال يناهز المائتين أو الثلاثمائة، يقفون في نصف دائرة، ويقف أمامهم الحدا وهو يقول وهم يرددون بعده. وقد ختم السحجة بهذا القول: يا عرب صفوا النوايا، يا عرب. فكأنما هو قد راح يستشعر الكارثة قبل حدوثها، ويتوقع موقف العرب المراوغ الخداع.

ولئن كان العرس فرحاً لا يبذه فرح في بلدتنا، فإن الزفة هي قلب العرس، أي هي فرح الفرح. يقيناً، انها برهة سرية لا تبذها أية برهة أخرى في الحياة الجماعية للقرية، إذ يشعر المرء بالنشوة والبهجة الخالصة، حتى لكأنه يشارك في شعيرة من الشعائر الاستسرارية، فيشعر بأنه في قلب الروعة نفسها، أو كأنه خرج من ضيق الحاضر والمياوم إلى تفتح يندا ح فوق مساحات مطلقة السراح. فهكذا

كنت أشعر يوم أسير في الزفة، مع أنني لم أكن إلا طفلاً، ولا محل لي في العرس كله إلا على حاشيته وحسب.

والزفة كلمة عربية معناها اهداء العروس إلى زوجها.

واليوم لم يعد هنالك في مخيماتنا شيء من هذا كله. فلقد ابتزنا الصهاينة حتى تقاليدنا التي عتقها الزمان، والتي كان من شأنها أن تجعل لحياتنا معنى أو مذاقاً عذباً تستسيغه الأفواه والأذواق. ولعل أهم ما في أمرنا أننا خسرنا الكثير من قيمنا النبيلة الرفيعة، ولا سيما ذلك العُرف الذي يرسخ المثال بوصفه كرامة الغايات التي تهدف اليها الأفعال، ولهذا، كانت قيمة الانسان عندنا، بل في قرانا ومدننا كلها، تتحدد بأفعاله الكريمة ومقاصده النبيلة. فأنت حصراً ما تفعل والفرق بين الكريم واللئيم هو ما يتحدد بالفرق بين الفعل الرفيع والفعل الوضيع.

* * *

ينتابني على الدوام شعور بأن المكان الأول قد امتزج بالزمان حتى ما عاد أي منهما يقبل الانفكاك عن الآخر. وهذا يعني أن لوبيا لم تعد مكاناً خالصاً في وعيي، بل صارت زمناً راسخاً مستتباً ثابتاً لا يريم في الوقت نفسه. فهي طفولتي بقدر ما هي وطني الذي عشت فيه السنوات العشر الأولى من عمري، وبذلك غدت صوره علياً ومصباً خيالياً لأشواق تندفع بين الفينة والأخرى صوب البرهة الابتدائية التي صارت أشبه بفردوس مفقود. فإذ تخطر في البال تلك الأيام الشبيهة بالأحلام، فإن حنيناً أبعد من أن تطاله اللغة، ولهفة حارة ممزوجة بالأسى، ينتشران في روحي، فينتابني شعور غامض لا يخلو من مرارة يخالطها حزن واكتئاب. ولولا ذلك الحزن لما تجشمت عناء تصنيف هذا الكتاب. وعندما أتذكر المروج الشديدة الاخضرار في آذار ونيسان من كل سنه، فإنني أوشك أن أطلب إليها قائلاً:" آه! لا تسرفي في الخلب والسحر، أيتها المروج، فإن فؤادي يوشك أن يتفطر." وبداهة، ما زالت الطبيعة تمارس فتونها مثلما كانت من قبل. ولا زالت الطيور تحلق في الجو وتغرد بعذوبة (عند بوابة السماء)، على حد

عبارة شكسبير. وأخص بالذكر العصافير وطيور الزرزور وطيور السمّان، وكذلك الشحارير، ثم القبرّات التي لكل منها قنزعة جميلة على رأسها! ويبدو أن كنوز الروح هي من الثراء والوفرة بحيث لا تحيط بها لعثمة الوهم وهذيانه.

فعند تخوم السهل، حيث ما برحت تنهل طوال الصيف أنداء رطبة منعشه، ما زال في ميسور المرء أن يسمع للنسيم جرساً منغوماً، وأن يحس فيه، لا أرجاً فنشوة وحسب، بل خصيصة من تلك الخصائص التي لا يملك الذهن أن يدرك ماهيتها أو فحواها. فها هنا ما برح شعاع الشمس البرتقالي ينثال رائقاً على المرج الشاسع النديان، وكذلك فوق الآكام والهضاب الساجية الراخمة في مكانها بوقار جليل. وفضلاً عن ذلك، فإن الشمس تغدو وفية أو إخائية في الربيع، لأنها تفي لك بحاجتك إلى الحرارة ولا تزيد على ذلك إلا على ندرة وحسب.

فإذا جاء نيسان، الذي يرث جهود أمطار غزيرة تهطل بين تشرين الثاني وبين آذار، رأيت الحمرة والصفرة، فضلاً عن الخضرة، توشّي أديم الأرض السندسي الفينان، ورأيت السماء تسرف في الزرقة اللازوردية الصافية. إنها الزرقة المطلولة من الأفق الأيمن إلى الأفق الأيسر. فيا للانديا ح المترامي الشاسع الرحيب، ويا للعالم الذي يغدو في نيسان وكأنه استحضار أو تجسيد للألطاف الحسنى، بل حتى للأسرار والمستورات نفسها.

وعندئذ يخيّل للمرهفين أن الطيبة والرقة والبشرى قد راحت تتخارج من مكامنها المكتومة، أو كأن الأرض في عرس، بل كأن ثمة زواجاً رائعاً بين بساط الأرض وقرص الشمس العظيم. وهذا يعني أن اليهود قد ابتزونا عذوبة الحياة حصراً، أو ما يضفي البهجة على وجود خسر كل رونق وفتون، بل خسر السلام، إذ لا سلام، وفقاً لطبع الأشياء حصراً، بعد تلك الكارثة المهولة السوداء. يقيناً، إن صهيون قد اغتال السلام، كما اغتال مكبث النوم.

ويرق النسيم المسرف في العذوبة والقدرة على الانعاش والإحياء، ولاسيما بعد العصر في أيام الصيف، يرق كأنه مادة تبث في النفس شيئاً من الثمالة أو

النشوة المسكرة، بل يصير أشبه بأنفاس ساحرة تعزّم وتهينم، كأنما هي تسترضي الأرواح المستورة، وتحاول تلبية سؤلها المنشود. وأذكر أن رقة النسيم المعتل كان من عادتها أن تعاود حضورها الفاتن الخلاب في النصف الثاني من تشرين الأول، حين يستتب الخريف ويفرض نفسه. وعندي للخريف مذاق لا يدانيه مذاق الربيع، بل إنني لا أبالغ إذا ما زعمت بأن الخريف فصل صوفي، أو غموضي، بامتياز.

فمن شأن الانبهام التشريني أن ينتج في نفسي شعوراً بأن الزرقة في الفضاء البعيد ترعش أو تخفق وتتماوج بوجيبها الخاص، وكأنها مفتونه بشيء سري مكتوم. وقد يشعر المرء بأن الأفق الراخم مثل يمامة فاتنة، هو برزخ يتلاحم فيه البر والبحر على نحو حميمي رؤوم. ولا يسعني حين أتذكر تلك المستورات الجليلة المهيبة، التي عتقها الزمن في ذاكرتي، فأحالها إلى ما يشبه الخمرة الصوفية القديمة التي شربها ابن الفارض قبل أن يخلق الكرم، إلا أن أتذكر الوثنية وأسرارها، فأستوعب كم هي عميقة الغور وعظيمة المقدار، وذلك لأنها مختصة بالتهجس لهذا الانبهام المهيب. أو يعقل أن للخبث واللؤم راح التاريخ يمنح تلك الأرض الجليلية الطيبة المعطاء؟

فسّرح البصر ليجوس ذات اليمين وذات الشمال، تشاهد آكاماً وروابي ونجوداً تغطيها الخضرة الزمردية الساجية المطمئنة المفعمة بالحيوية والفتون في آن معا، وتبصر القمم أو الجبال وقد توجها غمام أبيض طري شامخ نبيل، يمخر أجواء الفضاء من الجهة الشمالية التي ترى بنصوع من سطح بيتنا. وكثيراً ما كنت أشاهد في الافق الشمالي قوس قزح فاتن إثر المطر الربيعي الهادئ الناعم، فيتفتح له الفؤاد وتنتعش الروح. ولا زلت أذكر تلك اللحظات التي كنت فيها أشاهد ذلك القوس من شباك بيتنا المطل على الشمال، وهو ينتصب في عنان السماء بألوانه المتعددة الزاهية. إنه الخلب نفسه وقد تجسد أو صار برسم العيان، بل إن الأرض، إذ تتزين في الربيع لتهزم الشناعة وتطردها من الدنيا، تضمر نية

فحواها أنها أنثى تتزين استعداداً لزواج سري وسرمدي. وبالتأكيد يملك المشهد حينئذ أن يذيق المرء سعادة الاتصال بالمنعش والحميم، بل بكل ما هو من سلالة البكارة والابتهاج.

ولكن، وا أسفاه! إن الأنساغ لا تدري ولا تشعر بالذبول يلازمها ويستوطن معها في كل نبتة مخضلة ريانة، مما يجعل التناوب بين الينع والذبول سنة من سنن الحياة. ومع ذلك، فإن الاخضلال أو الاخضرار قيمة كلية من شأنها أن تضارع الشباب. والربيع هو فورة السنة أو سورتها وشبابها. فحين يسمع المرء تنهدات النسيم الحريري الملمس في نيسان، يخيل اليه أنها توشوش وشوشة ذات لون لا تستوعبه البصيرة، وعندئذ قد يشعر بموجة من حنين الى مجهول صوفي غامض لا يملك أن يعرف ما هو ولا أين هو، حتى كأن ما لا زمن له قد حضر أمام الخيال، بل أمام الوهم، بعد ما كان ملكاً للحدس وحده. وقد يشعر من يجيد الإصغاء لصمت الطبيعة بأن الأفق يضمر سراً مكنوناً، ولكنه قرر الآن أن يبوح به أو يفشيه للآذان، فهو يوشك أن ينطق بكل ما لديه من مكتومات. إن بوح الطبيعة منعش وهمسها مريح للنفس، ولكنه لاينفع أحداً غير اولئك المرهفين الذين يجيدون الإصغاء. يا إلهي! إن ما لا يعنو لسطوة الزمان هو شيء نفيس حقاً.

وفي سواء مرج زمردي أخضر يمكن للعين أن تشاهد أرخبيلاً من الزهور الصفراء، أحياناً، والحمراء، أحياناً أخرى، ولا سيما تلك التي نسميها البرقوق في الشمال والحنون في الجنوب، والتي أحسبها من سلالة النور حصراً. أما اسمها العربي فهو شقائق النعمان، وهي المضرجة بدم تموز الذي اغتالته الخنازير البرية. إنه التلوين، أو تعدد أصناف الصباغ الذي من شأنه أن يضاعف الملاحة، وأن يحيل الحسن الى بهجة وفتنة للناظرين، وربما شعر المرء بأنه الحرية وقد صارت برسم البصر والعيان. فالزهور التي تتفتح أكمامها في الربيع، حتى لكأن الحقيقة المضمرة في المادة قد جنحت إلى التجلي، أو إلى المجيء

من الغياب، هي ذات أصناف كثيرة وذات أصباغ أو ألوان متنوعة، كما أن لكل منها قدرتها الخاصة على الاجتذاب والتأثير في الألباب. وربما جاز الزعم بأن الازهرار الذي تنتجه الطبيعة في الربيع من شأنه أن ينتج ازهرارا مماثلاً في روح الإنسان، ولا سيما إن كان حساساً ومرهف السريرة، أو رقيق الشعور.

ولكن عندما يتأهب الربيع للرحيل في أواخر نوار، طفقت البراءة نفسها تستعد للزوال هي الأخرى. فإذا جاء ذلك الشهر الخامس، ولاسيما إذا انتصف، تفاقمت الحرارة وافتحلت، وهاجت الزواحف والحشرات. ويبدأ النبات حينئذ بالتيبس والاضمحلال، كما تجف الغدران والمستنقعات وتأخذ مياه الينابيع بالتناقص التدريجي. فالربيع يرتحل شيئاً فشيئا، ولكنه يكون قد ولى تماماً إذا جاء موسم الحصاد في حزيران.

وقد يسعفني هذا البيت أقتبسه من ابن الفارض المرهف الشعور والدافئ الوجدان:

سلام على تلك المعاهد من فتى على حفظ عهد العامرية ما فتى

تلكم هي أرض الجليل التي أنجبت السيد المسيح، أرض الخلب والينع والمسرة، أرض الغبطة والسعادة في ذاكرتي التي كانت غضة يوم استتبت هذه الصورة في جوفها الغرير. ولست لأبالغ إذا ما قلت بأنها الفردوس المفقود الذي خسرنا كرامتنا يوم خسرناه، فقدمنا عدداً كبيراً من الشهداء الذين صنعوا شرفاً لشعبنا الأبي. ولو لم يصنعوا شيئاً سوى هذا الصنيع لكفاهم فخراً.

ولعل أهم ما في الأمر أن تربة الجليل، صُقْعنا الطاهر الشريف، تأبى أن ينبت فيها اليهود، لأنها زاكية بررها الله. أما أن يأتوها متسللين، فذلك شأن ممكن. ولهذا فإنني لا أصدق البتة أن الجليل قد كان شطراً من مملكة التوراة، هذا إن كانت للتوراة مملكة في أي يوم من الأيام. كما لا أصدق أن السيد المسيح ينتمي إلى الدماء اليهودية. أما أن ثقافته، أعني أخلاقه، سريانية، فهذه حقيقة لا يتمارى فيها عاقلان. فالمكان الذي ينتج المسيح لا ينتج اليهود بتاتاً.

* * *

قد لا تكون بلادنا كما وصفتها تماماً، فربما كانت الطفولة، بمالها من ميول سرانية، هي التي ضخّمت صورتها فظهرت على هذا النحو الفردوسي الجميل. وربما جاءت هذه الصورة الخلابة من جنوح الإنسان الدائم إلى تمجيد ماضيه وتفضيله على حاضره الذي يبالغ المرء أحياناً في تسفيهه والتنصل منه، حتى ليتبدّى الماضي، في الغالب، وكأنه منسوج من الغبطة وهدأة البال. فمشهد اللوز والمشمش في كرم جدي قد تضخم كثيراً في مخيلتي حتى صار كأنه الفتون نفسه. وانني لا أتذكر اشتعال تلك الأشجار بالزهر البهيج إلا بوصفه اندلاعاً مفاجئاً للجمال الخلاب، أو فورة تنقل جميع الكائنات من كيفية إلى كيفية أخرى لها مذاق لا تطاله اللغة. وإن كنت أضفي شعوري على الماضي وأشيائه الغابرة، فإنني، في هذا الوضع، لا أصف شيئاً إلا طفولتي، بل ربما كنت لا أتحدث إلا عن أطلال عمري وحسب.

ولا يسعني اليوم أن أتصور طفولتي بمعزل عن قريتنا التي راح وعيي يتفتح فيها كما تتفتح البراعم في الربيع. وهذا يعني أن المكان والزمان قد امتزجا في بنية واحدة لا فكاك لعراها بتاتاً. وإنني أعتقد بأن الحنين هو المحمول الأنفس بين جميع محمولات الذات، أو قل إن أسّ النفس منسوج من الأشواق، بل إن المرء، أو جوهره حصراً، هو الشوق والحنين الدافئ الأصيل.

وليس من قبيل الشطح أن أزعم بأنه ما من شيء في ريفنا يملك أن يشرح هذا الشوق أكثر مما تملك شبابة الراعي التي تصدح في البراري والسهوب، والتي يتدفق منها الشجن والحنين بصوت شديد القدرة على التأثير. والتأثير، أو مداه، لا يقل عن كونه معيار القوة، كما أنه الهدف الأكبر لكل طاقة أو فعل. فمن المؤكد أن للريف أدواته الموسيقية كالربابة والمجوز والدربكة والطبلة، ولكن الشبابة وهي كلمة عربية مشتقة من التشبيب (وهو الغزل) تكاد ان تكون وقفا على الرعاة والمشتغلين بالإبل. وربما جاز الزعم بانها أنبل أداة موسيقية في الريف، وذلك

لأنها الأقدر على تخريج البدئي أو المحتوى النفسي الاول، أقصد الحنين إلى الحب والحياة والرغبة في البقاء الأبدي. ولا مبالغة إذا ما زعم المرء بأن موقع الشبابة في الموسيقى الريفية يعادل موقع الكمان في الموسيقى الأوروبية، إذ كلا الشيئين له مرتبة القلب بين جميع الأدوات.

وليس من قبيل الصدفة أن يعتمد الرعاة، وهم دوما من البدائيين، على آلة نفخية من أجل تخريج الفحوى والعواطف المشبوبة أو المفعمة بالحرارة أو الحيوية. فالنفخ شبيه بالنفح أو بالبث أو التضوع وتفريغ الشحنة التي تثقل الروح. وربما جاز لي ان أزعم بأن الشبابة هي أقدر أدوات النفخ نفسها على تحويل العواطف إلى أنغام.

* * *

وفي الربيع. بل ابتداء من أواسط آذار، تكثر الأعشاب البرية الصالحة للأكل أو للغلي فالشرب. ومنها العكوب والقرصعنة والعلت (الهندباء) والخبازى والشومر والرشاد والسنارية والعوصلان والحليّان والبابونج والميرمية والزعتر البري والفطر والعصصوب والخرفيش واللوف والجعدة والصنيبعة والفرفحينة (البقلة) والدريهمة والخردلة، وما إلى ذلك مما تنبت الأرض وتمنح للإنسان بالمجّان. فتخرج النساء، ولا سيما الشابات، إلى المروج والحقول في دفء الشمس ولطف النسيم، بحثاً عن تلك الهبات الطبيعية السخية. فيصنع الناس من هاتيك النباتات أغذية شهية جداً، ولا سيما العكوب الذي يقلون بيضه بزيت الزيتون والبيض البلدي، فيحصلون على طعام لذيذ وخاصة بعد أن يعصر عليه الليمون الذي هو متوفر، بل جد متوفر، في بلادنا فلسطين.

أما اليوم، إذ أعود إلى الوراء، إلى برهة سلفت وغاصت في هاوية العدم منذ أكثر من نصف قرن، فإن لواعج الشوق الكاوي لا بد لها من أن تعتلج في جوف نفسي عارمة موّارة. فلئن كانت فلسطين تقبل الاسترداد، بل هي سوف تستعاد جزماً ولو بعد ألف سنة، فإن تلك البرهة الجلى ما عاد في الميسور

استردادها قط، لأنها اندثرت إلى أبد الآبدين. وإذا ما قيض لي أن أعود إلى لوبيا، أو إلى الأماكن التي أعرفها، أو تلك التي عشت فيها طفولتي الباكرة الأولى، فلا أدري كيف سيكون شعوري بعدما ذبلت النفس أو جفت وفقدت لألاءها المتألق، فما عادت تملك أن تفوح أو أن تتضوع بتاتاً، إذ مر ريّق العمر، فتلاشت صورة الحيوية الروحية التي كانت تستطيع أن تنتج مشاعر الاغتباط والاحساس السعيد. فتباً لجميع أهل العدوان في كل زمان ومكان.

* * *

وأياً ما كان الشأن، فإن لوبيا التي أحن اليها وأشتاق هي لوبيا القلب، أو تلك التي تخص الداخل وحده. إنها المكان الذي تصون الروح رعشته في جوفها الدافئ الحنون. ففي الحق أن تلك الصورة العليا المهيّمة إنما تستمد فحواها من الأزلي الراخم في نواة الباطن السحيق. ولكم هو شاعر صادق ذاك الذي قال:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

فمما هو صادق عندي أن فلسطين وطفولتي قد اندغمتا في صورة واحدة لا تعنو للتحلل بتاتاً إلا يوم يتحلل جسدي ويستحيل إلى تراب. وهذا شأن بديهي، إذ يتعذر وجود الزمان بمعزل عن المكان.

ولقد لاحظت أن شعوراً مريراً بالخسران ينتاب كل لوبياني عندما يزور أرض لوبيا بعد النكبة، أو في هذه الأيام. وكثرهم الذين فعلوا ذلك، ومنهم خالتي ذيبة التي زارتها زهاء عام1990. وحينما شاهدت حقول أبيها التي حرمت منها ومن ثمارها بعدما استولى عليها الصهاينة، سقطت على الأرض مغشياً عليها من شدة الصدمة، وعندما أفاقت أخذت تبكي وتنشج وتحثو التراب على رأسها، في وسط أناس راحوا يناشدونها التجمل بالصبر.

ويبدو أن هذا العالم المتجمد الوجدان لا يملك أن يدرك عمق الكارثة التي حلت بنا في عام النكبة. فقد استطاع العدو الناشط في قلب الظلام أن يستولي على بلاد الغربيين والشرقيين معاً، كما استطاع أن يجند العالم العربي الرسمي

لخدمة مآربه على نحو شائن معيب. وما كان باستطاعة اليهود أن يستولوا على بلادنا قبل أن يستولوا على العالم كله. فمما يرفضه العقل السليم رفضاً باتاً أن تتمكن عصابة صغيرة، ذات ماهية طفيلية، من بناء مجتمع لها في قلب العالم العربي دون موافقة الحكومات العربية كلها. ترى، كيف تسلل اولئك الأشرار الظلاميون إلى المواقع الكفيلة بأن تجعلهم يتحكمون بمصير الكرة الأرضية بأسرها؟

ومع ذلك فإن على المرء ألا يخاف اولئك المتطفلين الذين لا يشبهون سوى العملة المزورة، والذين ليس من شيمتهم أن يتشبثوا بغير المال بتاتاً. فهم يستوطنون داخل المال، وحيثما كان المال كان حضورهم الطفيلي المقيت. ولهذا، فإنهم سوف يظلون يتمسكون بفلسطين ما داموا ينهبون ثروات العرب، وبخاصة نفطهم الغزير. ولكنهم سوف يغادرونها من تلقاء أنفسهم عندما تشح تلك الثروات، أو تنضب، في المستقبل البعيد. وعندي أن طريقتهم في الاستيلاء على بلادنا ليست طريقة كائنات تريد أن تتعايش مع الناس في منطقتنا، بل هي نهج عصابة تبحث عمن يجزرها أو يلحق بها كارثة مريعة. ولا ريب في أنهم يجهلون ذلك المثل الشعبي الذي يقول (الأسى ما بينتسى) والمقصود بالأسى ههنا هو الأذى. وهذا يعني أن الأذى لا ينسى. وهذه صفة من صفات النفس. فلا مهرب لهم من عقاب فتاك. ولئن كانوا يعيشون اليوم في حماية الغرب، فماذا سوف يحل بهم عندما يضمحل الغرب نفسه؟

يقيناً، إن هذا المنهج الدموي الذي اتبعوه ليس منهجهم التقليدي، بل هو منهج الغربيين الذين أمضوا القرون الخمسة الأخيرة وهم يحملون الأسلحة ويطورونها ويدهمون بها كل صقع من أصقاع الأرض، بحيث يجوز القول بأنهم يتخذون العدوان والارهاب حرفة لهم يعيشون من ممارستها على الشعوب المنهوبة. وهذا يعني أن حضارة الغربيين ما صنعها الا القرصنة والارهاب وغرائز العدوان ذات العرام في الشخصية الاورو–أمريكية. فنهبوا جميع الأمم

التي لم تقدر أن تنافح عن ثرواتها ضد عدوانهم الدؤوب. ولكن تلك الحضارة سوف تكف عن الوجود يوم تكف عن ممارسة العدوان. أما طريقة اولئك الظلاميين في الاستيلاء فهي الهيمنة على الأسواق والسلع ومصادر الثروة. وسلاحهم دوماً هو المال وليس النار. اليهود يستولون بالمال. أما أن يكون لهم جيش مسلح فهذا يعني أن التاريخ يمزح.

ولكم كان اليهود خبثاء يوم أشاعوا أن الفلسطينيين باعوا أرضهم للصهاينة. وهذا حديث إفك لا تخفى غايته الفاسدة على الألباء. فهم يبتغون من وراء ذلك أن يفكوا الارتباط القائم بين الشعب الفلسطيني وبين الشعوب العربية التي تسانده ضدهم. ولو كان هذا الخبر صحيحاً لنشروا الوثائق في كل مكان من أماكن العالم، ولا سيما العالم العربي الذي يصرون دوماً على تحييده واخراجه من حلبة الصراع، وذلك بغية الاستفراد بالشعب الفلسطيني الذي لا يملك أن يغلبهم بسبب البون الشاسع بين الطرفين من جهة التسلح.

وههنا أود أن أذّكر الجميع بأن الفلاح لا يبيع أرضه لا للعرب، ولا لليهود، حتى وإن فرشها المشتري بالذهب، وذلك لأنها قوت أطفاله وضمان مستقبلهم. والفلاح الذي يبيع أرضه هو إما سكيّر أو مقامر، أو ما إلى ذلك من المتسيبين. واولئك نادرون جدا في ريفنا ذي التقاليد المؤصَلة المجَذرة في القرار الصخري لحياتنا العامة

ومما هو مؤكد أن نفراً من الشعب الفلسطيني لا يزيد عن نصف العشر، أو ربما عشر العشر، قد باع أرضه للصهاينة فعلاً. ولكن هذه الحقيقة الثانوية لا تصلح أن تكون سُبّة على الشعب الفلسطيني الذي ينزف كل يوم، وطوال عشرات السنين، نجيعاً مثل حناء العرائس، دفاعاً عن الأرض الغالية بالدرجة الأولى. ولقد ابتلي شعبنا الطيب البسيط باللؤم الذي يسمى الصهاينة، وبالإرهاب الذي يسمى الغربيين. وها هو ذا يكافح ويناضل منذ عشرات السنين كي يصون أرضه من جشع اولئك المتطفلين الذين يؤسسون وجودهم على خرافة شائهة زائفة

يتعذر أن يكون لها أية قيمة في نظر أي عاقل، ومفادها أن يهوا قد اختار لهم فلسطين وطناً أبدياً. فمن سوى الممرور يشتغل على وعد إلهي في زمن العلم واكتشاف الفضاء؟ وأي صنف من أصناف الأصولية هو هذا الصنف الكئيب؟ ما شاء الله كان!

إن كائنات من هذا القبيل هي نفوس موغلة في السفاهة والتفاهة وضمور العقل. ولكن الأسخف منهم، بل ذوي الضمائر المترمدة، هم اولئك الذين دعموهم بجميع أساليب الدعم المادي والمعنوي. وفي تأييد الغربيين للصهاينة على هذا النحو المريض، الذي من شأنه أن يؤشر إلى اتضاع الغرب وجنوحه نحو الزوال، ثمة برهان حاسم على أن الجنون، وليس العقل، هو القوة التي تسهم الاسهام الأكبر في تحريك هذا الجحيم الجاحم الذي يسمى التاريخ.

الفصل الثاني

تسع سنوات

حين بلغ حسين محمود، الذي هو جد جدي، والذي لا بد له من أن يكون قد عاصر حملة نابليون على فلسطين، سنة1799، حين بلغ السبعين في أواسط القرن التاسع عشر، وجد نفسه وحيداً في البيت، بعد أن ماتت زوجته وأولاده جميعاً. وكان ذلك الفلاح يملك زهاء أربع مائة دونمأ من الأرض الخصبة. فمن سوف يرث حقوله بعد وفاته؟ ولهذا فقد خطب فتاة صغيرة، ووافق أهلها على زواجه بها لأنه ملاك كبير.

وأنجبت الفتاة ثلاثة أولاد وبنتين. وقد مات اثنان من الأولاد وهما طه وحسن. أما عبد الرازق، الذي أرجح أنه ولد سنة1850، أو نحو ذلك، فعاش حتى بلغ الثمانين. وأما البنتين فقد عاشتا طويلاً وتزوجتا، وكان نصيب احداهما رجلاً اسمه ياسين أبوعلي فأنجبت ولدين هما محمد وعلي. وهذا الاخير هو جدي لأمي.

وورث عبد الرازق أرض أبيه، لأن اخويه ماتا دون ورثة، ولأن أختيه لا ترثان، فالمرأة في بلدتنا محرومة من الميراث، ذلك خلافاً لإرادة الشريعة الإسلامية السمحاء.

وتزوج عبد الرازق امرأة فأنجبت له ولدين، أولهما حسين وثانيهما رشيد. أما حسين فذهب إلى الحرب ولم يعد، بل انقطعت أخباره تماماً. وقد ذكر بعض رفاقه في السلاح من أهل بلدتنا إنهم شاهدوه لآخر مرة في مدينة إستانبول. وأما رشيد فكان جميلاً جداً ذا لون أشقر، إذ كانت ضفائره معلقة بجانب باب البيت مع سيف أبيه عبد الرازق. وقد مات رشيد قبل أن يتزوج بالهيضة (الكوليرا) التي اجتاحت لوبيا سنة1907.

وتوفيت زوجة عبد الرازق الأولى قبل وفاة ولديها. فما كان منه الا أن تزوج فتاة اسمها زليخة، وقد عاشت إلى ما بعد ولادتي بقليل. وأنجبت ولدين وبنتين. أما الولدان فهما جدي يوسف، وهو ابنها الأكبر، وأخوه سليمان. وأما

البنتين فأولاهما ندى وثانيتهما شمسة. وقد تزوجتا كلتاهما قبل وفاة أبيهما. وما عدا جدي فقد عاشوا جميعاً حتى الشيخوخة.

وتوفي عبد الرازق سنة1931، إثر مرض قصير، وترك ثروة جيدة لولديه، وكلاهما متزوج وله أطفال يومئذ، أو لنقل إن جدي يوسف لم يكن لديه سوى ولد واحد، وهو والدي سامي، وبنت واحدة، وهي عمتي فاطمة. ولكنه كان يبحث عن زوجة ثانية، لأن زوجته، أعني جدتي خضرا، لم تعد تنجب أطفالاً. وما من أحد في بلدتنا يكتفي بولد واحد.

وكانت تلك الجدة امرأة جميلة شقراء، زرقاء العينين، طويلة القوام، أو هي من ذلك النمط الذي يسمونه الرياضي. وأغلب الظن أنها من بقايا الفرنج الذين ظلوا في فلسطين بعد انتهاء الحروب الصليبية، إذ هي لا تختلف بتاتاً عن نساء اوروبا الشمالية، أو عن بعضهن. ولكن هذه المزايا الجمالية، ولا سيما متانة البنية الناجية من السمنة والرهل، لم تشفع لجدتي، إذ لا بد من كومة أطفال، وإلا فإن حياة الفلاح ليست على ما يرام.

وأظن أنه ما من أحد في الدنيا كلها قد أحبني أكثر من تلك المرأة، كما أنني لا أعرف من هو طيب إلى هذا الحد الذي تتمتع به جدتي البسيطة والبريئة، والتي تجهل النزق والتوتر أو الاضطراب. ولقد حزنت عليها كثيراً يوم توفيت في شهر شباط سنة1970 في مخيم اليرموك. وأظن أن علاقتي الطويلة بها، وهي علاقة محبة صادقة وحارة، قد علمتني درساً خلاصته أن القيمة الأولى في الحياة هي الإخاء وليس الذكاء. إن الطيبة هي الصفة الأولى للمرأة التي احبتني أكثر من سواها، والتي ما أحببت أحداً أكثر منها. ولهذا، ترسخ في ذهني شعور فحواه أن الطيبة هي القيمة الأولى في الحياة، وأن الانسان الطيب هو وحده الانسان على الأصالة أو على الحقيقة.

كان القدر بالمرصاد لجدي يوسف عبد الرازق، الذي عهد بأرض الأسرة لعمال زراعيين، كما عهد لأخيه سليمان بالجمال الثلاثة التي تركها أبوه. وتفرغ

الرجل للصيد والمضافة وسباق الخيل في الأعراس، فقد كانت لديه فرس متميزة جداً.

وذات يوم أتاه أعرابي اسمه موسى الشرع، وقال له إنهما مدعوان إلى عرس في يوم الجمعة القادم (كان ذلك يوم الاثنين). ولهذا، فإن عليهما أن يذهبا إلى عكا ابتغاء تزيين فرسيهما استعداداً للسباق، إذ كانوا يضيفون الشّرابات (بضم الشين وتشديد الراء) الزاهية الألوان إلى سرج الفرس ليصير المشهد أجمل.

ووافق جدي، وخرج مع الأعرابي باتجاه مدينة عكا، التي لا تبعد عن بلدتنا أكثر من أربعين كيلو متراً وربما أقل، وذلك في شهر تموز الشديد الحر، سنة1932. وعندما وصلا إلى إحدى القرى المجاورة لتلك المدينة، وردا إلى العين ليسقي كل منهما فرسه. وكان البدوي سباقاً، فمضى على الدرب قبل جدي الذي تأخر ولم يتبعه. وحين التفت الاعرابي إلى الخلف رأى الفرس تقف بجانب صاحبها الملقى على الأرض. فأسرع إليه ونزل عن فرسه واقترب منه، ولكن فرس جدي أخذت تدور حوله، وبدا عليها الاضطراب، وأطلقت صهيلاً صاخباً جداً، ومنعت البدوي من مقاربة الرجل الملقى على الأرض. ولكنه عاملها بالحسنى حتى استطاع أن يلمس صديقه فحركه فوجده ميتاً. وعند ذاك ساعده بعض الفلاحين على رفع الجثة ووضعها فوق ظهر الفرس، ثم سار به إلى عكا. وهناك سلمها للمشفى، فقام الأطباء بتشريح الدماغ، وتبين لهم أن الرجل قد أصيب بأزمة دماغية أودت بحياته.

اتصل الأعرابي بالهاتف مع لوبيا، وأخبر المختار أن يوسف عبد الرازق توفي فجأة وأن جثته في المشفى الحكومي في عكا. وعلمت جدتي بالنبأ الفاجع، كما علم أخوه سليمان وأخته ندى وركبوا سيارة وسافروا إلى تلك المدينة، وأحضروا الجثة ودفنوها في ذلك اليوم نفسه. وكان الرجل في الثامنة والثلاثين من سنوات عمره، أما أبي ففي الثانية عشرة، وأما عمتي فاطمة فهي أكبر من

أخيها بأربع سنوات. وأظن أن جدتي خضرا لم يكن عمرها أقل من أربعين سنه، فقد كانت أكبر من زوجها الذي تزوجها لجمالها النادر.

بعد سنتين تزوجت عمتي فاطمة، أما أبي فقد تزوج سنة1936، وهو في السادسة عشرة، يوم كانت الثورة الفلسطينية في بدايتها. ولكن تلك الثورة استفحلت وبلغت أوج عرامها بعد سنتين، أي يوم ولدت بالضبط. وكانت أمي أصغر من أبي بسنة واحدة، فقد ولدت سنة 1921.

* * *

عندما ولدت في العام الثامن والثلاثين من القرن العشرين، وربما في شهر تشرين الثاني، كانت هنالك مفرزة من جيش الانجليز تتمركز داخل لوبيا، إذ استأجروا بيتاً في حارة الجرينة (بضم ففتح) وهي الواقعة إلى الشرق من الجامع. واتخذ الجنود ذلك البيت بمثابة معسكر لهم، تنطلق منه دورياتهم في الليل والنهار. وفرضوا حظر التجول على القرية منذ غروب الشمس حتى بزوغها. كما فرضوا على جميع البيوت ألا تشعل نوراً أو ناراً خلال الليل. وكانت هذه حال سبعمائة قرية في فلسطين.

وذات ليلة كانت هنالك امرأة تلد طفلاً في أحد بيوت المدان، فاضطر أهل البيت إلى اشعال سراج ليتمكنوا من مساعدة المرأة على أن تضع مولودها. وعند ذلك جاء الانجليز الهمج إلى النافذة وأطلقوا النار وقتلوا جميع الموجودين في الغرفة، وبينهم الطفل الذي ولد للتو، أو ربما الذي لم يولد قط. ومع ذلك، فإن الغربيين ليسوا إرهابيين، ومن ضربهم ضرب التقدم والحرية والديمقراطية. فيا لهذه الحضارة التي بنتها القرصنة والإرهاب من عظام الشعوب ذات الأدوات المتخلفة، أو غير القادرة على حماية ثروتها من جشع الغربيين الذي لا حد له بتاتاً. ولا زالت بقية تلك الأسرة، وهي من بيت صالح، تعيش في شارع فلسطين بجانب الساحة حتى اليوم الراهن.

إنني لست هجّاء ولا شتاماً، ولا ابتغي التنديد بتاتاً، ولكن الازدراء هو ما تستحقه الأمم الاورو–أمركية التي تحترف الإرهاب والعدوان. وعندي أن تلك الشعوب لا تزيد عن كونها عصابات من الهمج تقتل بلا رحمة من أجل ترفها. والمصيبة أنه ما من أحد يملك أن يشكم تلك الأمم اللاحمة التي ما فتئت تعربد طوال القرون الخمسة الأخيرة. أما سبب عجز البلدان المنهوبة فهو أن الأمم الارهابية قد تحالفت مع جزء من كل شعب تقريباً، على أن تتقاسم مع ذلك الجزء ثروة بلده. فوظيفة الجزء الحليف أن يقمع الشطر المتبقي من الناس مقابل حصة من الغنيمة، وحين ينعدم ذلك التحالف فإن الامبريالية مهزومة حتماً. وأمثلة ذلك كثيرة، ولا سيما كوريا والفيتنام والجزائر.

لقد نهب الانجليز مصر والهند على نحو خاص بطريقة متطرفة أو مفرطة في القسوة والنذالة. ولقد نشر أحد الانجليز كتاباً عنوانه (نهب مصر) وأتيح لي أن أقرأه بعد ما ترجم الى اللغة العربية منذ ثلاثين سنة تقريباً. وفيه وصف مفصل ودقيق للنهب الشرس الذي مارسه الانجليز على ذلك البلد البائس والموغل في الفاقة والعوز. وفي قناعتي أن ذلك الكتاب يجب تقريره في المدارس والجامعات ليطلع الناس على البؤس الذي جلبته الامبريالية للشعوب.

وعلى أية حال، فإن الانجليز قد فتحوا النار في أماكن كثيرة من فلسطين، وارتكبوا الكثير من المجازر. فقد أطلقوا نيرانهم فجأة على الناس في شوارع جنين خلال تلك الفترة، فحصدوا الأبرياء كما تحصد السنابل. وأظن أنه ما من مدينة فلسطينية قد شهدت من الصدامات مع الأعداء كما شهدت جنين، التي لا تبعد عن لوبيا أكثر من خمسين كيلومتراً، والتي استشهد عزالدين القسام على مشارفها سنة 1935. ومما يحرّض المرء على التأمل الفلسفي أنه لا الانجليز، ولا الصهاينة، ولا أية أمة من تلك الأمم اللاحمة التي ظهرت على مسرح التاريخ الحديث، قد أدركت أن الإسراف في سفك الدماء لا يحل أية معضلة من معضلات الأرض. فلماذا المجازر، إذاً؟

إن الانجليز هم أصل محنتنا نحن الفلسطينيين. ولهذا، فإنني أتمنى ألا أموت قبل أن أرى لندن، بل انكلترا كلها، وهي تحترق حتى تستحيل إلى رماد، أو تغوص في البحر فلا تعود ترى بتاتاً. وربما صدق الزعم أن جل الانجليز، وربما كلهم، لا يعلمون أنهم نكبونا نكبة لا مثيل لها في التاريخ البشري بأسره. فالإنجليز، بل الغربيون عن بكرة أبيهم، أقصد ساستهم، ليسوا سوى أدوات في أيدي اليهود الذين هم وحدهم يفعلون ما يريدون. وفي السداد أن يقال بأن الناطقين باللغة الانجليزية كلغة أولى هم أشرس الكائنات وأكثرها ضراوة وميلاً إلى العدوان. وفضلاً عن ذلك، فإنهم ألد أعداء العرب والمسلمين. لقد أبادوا الهنود الحمر في أمركا الشمالية، وارتكبوا هناك أضخم المجازر التي عرفتها الكرة الأرضية طوال جميع الأزمان. وقصفوا اليابان بالأسلحة النووية مرتين، وصنعوا حربين عالميتين، بل حمامين دمويين، لا مثيل لهما في التاريخ، ولا يشبههما شيء سوى الأعاصير. ومع ذلك فهم ملائكة هبطوا من السماء. أما نحن الذين ندافع عن قوت أطفالنا فإرهابيون ومخربون ومعادون لحضارتهم العظيمة. وأما سادتهم اليهود فينهبون الجنس البشري ويقدمون أنفسهم بوصفهم ضحايا الاضطهاد المعادي للسامية. فلقد طحنت عظام الأمم ذات الأدوات المتخلفة كي يصاب يهود امريكا حصرا بالتخمة التي لابد لها من أن تؤدي إلى تحللهم وتعفنهم في المستقبل البعيد. فالترف هو ألد أعداء الانسان، كما بيّن ابن خلدون.

لا أستطيع أن أدرج اولئك الذين قصفوا اليابان بالأسلحة النووية في عداد البشر، كما لا يستطيع أن يفعل ذلك أي انسان سويّ، أو ذي ضمير حي. فما من مسوغ يسوغ ذلك الفعل الاجرامي الموغل في الهمجية. ويبدو أن نفوسهم تفرز الشر كما تفرز الكبد الصفراء. وأنهم في معظم الاحيان، لا يقتلون البشر إلا من أجل القتل، أو إلا لأنهم مرضى. ففي الحق أن تربيتهم المبتسرة، أو المشوهة، لم تمكنهم من البلوغ إلى الرتبة الانسانية، وربما كانوا يجهلون ما فحواه

إن الغاية النهائية لكل تربية سوية هي أن تجعل الكائن البشري انسانا. إنهم في أمس الحاجة إلى صقل وتهذيب اولئك الذين يظنون أنهم متحضرون جدا والذين تتخذهم الأمم المتخلفة الأدوات قدوة لها.

ولعل أهم ما في أمرهم أن ضمائرهم مطفأة أو متمردة. وعندي إن الانسان سوف تكون له حضارة فقط يوم تغدو مقولة (الضمير) مبدأه الاول، بل يوم يلغي كل محكمة وكل ناموس وضعي، لأن المحكمة الحقيقية لن تعقد جلساتها إلا داخل روحه حصراً. وبما أن الانسان لم يصل إلى هذا الطور من أطوار النمو والسمو، فإنه ما زال سادراً في همجيته وحيوانيته حتى يوم الناس هذا.

* * *

بعد ولادتي بشهرين أصيبت أمي بوجع في أحد ثدييها، فأخذها أبي إلى مشفى في الناصرة، حيث أجريت لها عملية جراحية أجبرت ابويّ كليهما على البقاء هناك لمدة عشرين يوما. ولم يبق في البيت سوى جدتي وأنا، فضلا عن عم أبي وأسرته. فقد كنت أنا الحفيد الأول والوحيد في الأسرة بفرعيها يومذاك.

راحت جدتي تحملني إلى المرضعات لأحصل على غذائي. وذات يوم التقت إحدى دوريات الإنجليز بجدتي وأنا على صدرها، فسألوها عن شأني بواسطة الترجمان الذي يرافق دورياتهم النهارية، فأخبرتهم بمشكلتي. وعند ذلك عرض الجنود على المرأة ان يمدوا يد العون، فوافقت، وصاروا يأخذونني يوميا إلى مقرهم فيأتونني بالحليب في زجاجة أحضرتها ممرضتهم، كما أن طبيبهم راح يفحصني ويقدم لي الدواء عند اللزوم. وكنت أظل معهم من الصباح حتى المساء، وعند ذلك يعيدونني إلى جدتي ومعي زجاجة مترعة بالحليب. وفي تقديري انهم ما فعلوا هذا الفعل الانساني إلا لذر الرماد في العيون، أو ليجعلوا الناس ينسون ضراوتهم الهمجية وميلهم إلى سفك الدماء.

وعلى أية حال، كانت صحتي سيئة على الدوام طوال الشطر الذي لا أعيه من طفولتي الباكرة. فكثيرا ما كنت أمرض حتى أشرف على الموت، ثم

أشفى بعد ما أتناول الكثير من الادوية، وههنا تنبغي الاشارة إلى أن أبي كان عمره ثمانية عشر عاما وكانت أمي أصغر منه بسنة يوم ولدت. ويبدو أن البشر إذا تزوجوا في هذه السن المبكرة، فانهم ينجبون أطفالا قدر على أجسامهم أن تكون هزيلة طوال حياتهم.

لقد كانت جدتي لأمي في الرابعة والثلاثين من عمرها. وكانت شيخة الكيلاني، جدة امي، أو ام جدتي فدوى، لا تزال في الخمسين من سنوات عمرها. ففي الريف يتزوج الناس في وقت مبكر جدا. ولقد كانت شيخة، جدة امي، خبيرة بالأعشاب البرية ذات الآثار الطبية، وكانت تخرج إلى الكروم والحقول ومعها كيس، كلما أصابني المرض، فتحشوه بالنباتات النافعة وتأتي إلى بيتنا، ثم تغلي تلك الأعشاب وتغسلني بها، بل تنقعني في مائها لمدة ساعة من الزمن. وتظل تكرر هذه العملية كل يوم حتى أشفى.

ولقد ظل جسدي هزيلا نحيلا طوال عمري، ما عدا فترة قصيرة تجاور سنة 1980 من طرفيها. فأنا كثير التردد على الأطباء منذ طفولتي وحتى يومي هذا. كما أنني أستهلك الكثير من الأدوية، وخاصة أدوية جهاز التنفس، التي أضيفت إليها أدوية القلب منذ سنة 1999. وحتى في طفولتي كنت اعاني السأم نهارا والأرق ليلا، وذلك قبل ان أبلغ العاشرة من سنوات عمري. وما زال الأرق يعذبني حتى اليوم، فانا لا أنام بسهولة. وكنت إذا نمت أشبع نوماً، بحيث أنام عشر ساعات متتاليات. أما اليوم فلا أشبع نوما إلا إذا تناولت المنومات.

ولطالما اعتقدت بأن المرض الكثير التكرار هو الأسلوب الذي تلجأ اليه نفسي لترفض عالما موحشا وعدوانيا يخلو من كل ما هو برسم الروح. ولقد كنت نحيفا، بل كنت قضيفا منذ طفولتي وحتى بداية كهولتي زهاء عام 1976. وكان وجهي معروقا وخداي متكهفين، حتى كأنهما جلد على عظم. ففي سنة 1960 لم يبلغ وزني ستين كيلو غراما، مع أن طولي هو مائة واثنان وثمانون سنتميتراً. وفضلا عن ذلك فإن بشرتي الحنطية اللون كانت تشوبها صفرة تنم بوضوح عن

نقص في الحيوية صريح. ولا مرية في أن سوء التغذية الذي كان حتما علينا أن نكابده بعد النكبة التي أنزلها بنا الشر الضاري، هو السبب الأول الذي جعل صحتي سيئة إلى هذا الحد. فما من أحد في جيلي إلا وقد تضرر من نشوء الغيتو الصهيوني على ترابنا المغتصب. وهذا يعني أنهم أبادوا طفولتنا ونحن أحياء. لقد ابتزونا أرضنا، مصدر عيشنا، وطوحوا بنا إلى جوف الفقر والجوع والبرد والمرض وجميع أشكال الشقاء. فمنذ عشرات السنين وأنا أتساءل قائلاً: أما من علالة لهذا الاغتراب؟ ويبدو أنه ما من علالة لهذا الاغتراب بتاتاً.

* * *

لست أعي تلك الفترة التي قضيناها في بيت عبد الرازق، جد أبي، أو ربما ترسبت منها في ذاكرتي صور باهتة وحسب، كما لا أذكر رحيلنا عن ذلك البيت نفسه إلى البيت الذي اشترياه في حارة الجرينة، أي في منتصف لوبيا، يوم انفصل أبي عن عمه سليمان، إثر اقتسام الارث الذي تركه جده. وقد تم رحيلنا سنة 1943، بعدما ولد أخي محمد بسنتين.

ولقد ترعرعت في ذلك البيت الكبير ذي القناطر الثلاث، إذ كان خليل العبد، مالكه الأول، مختار قريتنا أو عمدتها يومذاك. وبما أنه رجل ميسور الحال فقد كان بيته كبيراً جداً، وربما كان أكبر بيت في لوبيا كلها. وقد ظل خليل العبد، الذي لم أره قط في الناصرة، إذ كان ابنه محمد معلم مدرسة في تلك المدينة التي لم يحدث فيها أي قتال بتاتاً.

يبدأ البيت بباحة صغيرة فارغة نسميها عادة قاع الدار، وفي الناحية اليسرى حين يتجه المرء صوب الباب، فإنه يرى المضافة الواسعة التي يفتح بابها نحو الشمال. وهي غرفة كبيرة قد تتسع لاستضافة خمسة عشر رجلاً. وعلى يسار المضافة ثمة ممر يفضي إلى التبان الذي هو مستودع التبن.

أما على الجهة اليمنى، فأول شيء تراه هو الفرن. والفرن غرفة صغيرة وفي داخلها المحل الذي نخبز فيه، والذي هو بمثابة جدار دائري من الطين،

ربما كان ارتفاعه شبراً، أو أكثر بقليل، كما لا يزيد سمكه عن سمك الأصبع، وفي داخله حجارة رقيقة أو مسطحة وصغيرة الحجم نسميها الرضف. وهذه كلمة عربية يشرحها القاموس المحيط بأنها (الحجارة المحماة). وهي تملأ أرض الفرن الدائري، وعليها يوضع الرغيف عجيناً، وحين ينضج فإنه يستحيل إلى خبز مقمر شهي. ولا تتسع الدائرة الا لرغيف واحد فقط.

وهنالك اداة صغيرة اسمها المقحار (بضم فسكون) وهي خشبة مسطحة ورفيعة عند المقبض. أما وظيفتها فهي تحريك الرماد عند الحاجة. وهذه كلمة عربية هي الأخرى، إذ إن الفعل الثلاثي الذي تصدر عنه مثبت في المعجم.

ويوضع الوقود، الذي هو قش أو تبن، حول الجدار المستدير، أي من الخارج، ثم تشتعل فيه النار، فيحمى الجدار وتنتقل الحرارة إلى الرضف الذي في قاع الفرن، فيخبز الرغيف على نار لينه، إذ ليس هنالك من لهب بتاتاً، وإنما احتراق بطيء يأكل التبن على مهل. وهذا الاعتدال في الحرارة هو سبب جودة الخبز. فمما هو معلوم أن الحياة في الريف ايقاعها بطيء، أو هي تعاش دون عجلة أو سرعة في الحركة.

وبعد الفرن يأتي الكنيف. وهو واسع بعض الشيء، إذ إن المكان في الريف لا يعرف الازدحام. وفي مقابل الكنيف على الجهة الأخرى، وبالقرب من الباب المفتوح باتجاه الشمال، هنالك مطبخ صغير موقعه تحت الدرج الذي يصعد إلى سطح المضافة. ونحن نستعمل ذلك المطبخ منذ أيار وحتى بداية تشرين الثاني، لأننا نطبخ في داخل البيت أثناء الشتاء مستفيدين من نار الموقد في التدفئة.

أما المنزل من الداخل، وهو بناء مربع أظن أن كل ضلع من أضلاعه يساوي عشرة أمتار، فهو مجزأ إلى ثلاثة أجزاء. وأول جزء من الأسفل هو ما نسميه قاع البيت. وهو شيء مختلف عن قاع الدار، لأن قاع البيت داخلي وقاع الدار خارجي. إنه المكان المخصص للحيوانات. وهو يحتل نصف الشطر

الأرضي من البيت. أما النصف الآخر فهو المصطبة التي ترتفع زهاء متر، أو أكثر قليلاً، عن قاع البيت. وهي مخصصة للسكن في الشتاء، ولها درج يرقى عليه المرء ليبلغها. وعلى المصطبة كانت هنالك كوارتان. ولفظة الكوارة، التي لا أعرف لها مأتى، هي ما يعادل كلمة (الهري) العربية. وكنا نضع في احدى الكوارتين طحيناً وفي الأخرى قمحاً، وهو ما نطحنه يومئذ في مطحنة آلية، إذ كانت هنالك مطحنتان في بلدتنا، واحدة جنوبية في الأرض السهلية، وقرب مزرعة المدرسة، وأخرى شمالية محاذية لخط طبريا–الناصرة. ولقد اعتدنا على أن نسمي المطحنة الآلية باسم الببور.

وتشبه الكوارة خزانة كبيرة، ولكنها مصنوعة من الطين وهي تمتد من المصطبة إلى ما دون السقف بمتر، أو زهاء ذلك، أي أن ارتفاعها لا يقل عن ثلاثة أمتار. ولها ثغرة كبيرة في سطحها الأعلى وهي تُفعم بالحبوب من تلك الثغرة. كما أن لها ثغرة من الأسفل، ولكن في جدارها الأمامي، نسدها بخرقة. أما الثغرة العلوية فتسد بطبق من تلك الأطباق الجميلة الزاهية الألوان، التي كانت نساء قريتنا تصنعها من قش الحنطة. وهذا عمل نسميه (البدي) (بفتح فسكون). ولكي يتم تفريغ الكوارة كلياً أو جزئياً، يكفي أن يسحب المرء السدادة، كما يكفي أن تعاد السدادة إلى مكانها لكي يتوقف التفريغ.

وبجانب كل كوارة، ثمة خابية من فخار عليها غطاء خشبي له مقبض. والخابية جرة كبيرة، وإذا صارت كبيرة جداً سميت باطية. واليسرى مخصصة للماء، وعلى غطائها الخشبي المستدير ثمة إناء صغير للشرب نسميه الكيلة. أما اليمنى فمخصصة للزيت، إذ إن وجود الزيت في بيوتنا هو واحد من تقاليدنا الشعبية المجذرة على نحو متين في حياتنا الريفية. بل إن الزيت في بلادنا مادة مقدسة. وهذا شأن موروث منذ أيام الوثنية الشديدة القدرة على أن تقنع الانسان بأنه في قلب السر. ولقد كان يتوجب على من يملك زيتاً أن يهب شيئاً منه لمن لا يملك، ولا سيما إذا كان من الجيران أو من الأقرباء. فمن شيمنا أنه ما من

أسرة تجوع إلا إذا جاعت البلدة كلها. وهذه، دون ريب، فضيلة عامة من فضائل شعبنا بأسره.

وأذكر أنه كان هنالك إلى جوار خابية الماء حامل طيني صغير مرتفع قليلاً وملتصق بالكوارة الشرقية، وهو مخصص للسراج نضعه فوقه. ولقد تغير السراج المعدني قبل طردنا من بلادنا بسنتين أو ثلاث، فصار شيئاً آخر نسميه ضوء الكاز، وهوما زال معروفاً حتى الآن. وهو يصنع من الزجاج ماعدا رأسه، فهو من النحاس، بينما يصنع السراج من التنك وحده. أما ذبالته فتصنع باليد من خرقة بالية، ولكن ذبالة ضوء الكاز لا يستطيع أن يصنعها أحد، فكنا نشتريها من الدكاكين. وفضلاً عن ذلك فقد كان هنالك نوع آخر من أدوات الإنارة اسمه القنديل. أما أرقى تلك الأدوات كلها فهو ما يسمى باسم اللوكس (LUX). وهذا جهاز معقد وثمين، ولا يملكه إلا الأغنياء. أما نوره فشيء باهر حقاً. وثمة أداة نسميها البريمس. وهو جهاز نستعمله في الطبخ أو في صنع الشاي. ولكننا كنا نفضل عليه الحطب، لأن الحطب أرخص من الكاز الذي يستهلكه البريمس، وكذلك لأن الطعام المطبوخ على نار الحطب اللينة أطيب من الطعام المطبوخ على ذلك الجهاز.

* * *

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من بيتنا كان هنالك موقد صنعته جدتي خضرا. وللموقد مدخنة أنبوبية طينية وفجوة في السقف يخرج منها الدخان. وله غطاء فوقه نسميه الوجاق. وهو مصنوع من أغصان الشجر والطين، أو ربما من قضبان نبات السُعادى الذي نسميه السعد، والذي ينبت في الأودية والغدران. ووظيفة الوجاق أن يمنع انتشار الدخان في البيت، ويساعد على خروجه من المدخنة. وفي الشتاء نستعمل ذلك الموقد للتدفئة والطهي في آن معاً. أما الخبز فلا نصنعه إلا في الفرن. كما أننا نشوي فيه اللحم والكبة، ونطبخ بعض الأطعمة أحياناً.

وحين يطبخ الطعام في الفرن الطيني، ولا سيما المجدّرة، تلك الأكلة التي نصب عليها الزيت المأخوذ من زيتوننا الشامخ كالسنديان، والتي نمزجها باللبن الخاثر، فإنه يصير طيباً زكي المذاق، أو هو أشهى من ذلك الطعام الذي يطبخ على نار الحطب. ولقد كنا نطبخ المجدرة، وهي الأكلة الأكثر شيوعاً بين أوساط شعبنا، في إناء فخاري يشبه الطنجرة، ويوضع داخل جدران الفرن ذي الحرارة المعتدلة، ويترك حتى ينضج على مهل، فنحصل على غذاء من ألذ الأغذية. وكانت طنجرة الفخار تلك أكبر من الطقة (بفتح المهملة وتشديد القاف). والطقة إناء فخاري كنا نضع فيه اللبن الخاثر.

وكان الفخار مادة شديدة الشيوع في قرانا. فهنالك الخابية والجرة والطقة وطنجرة الطبخ وإبريق الماء والكوز، وهو ابريق صغير جداً للأطفال. كما أن هناك شيئاً كنا نسميه الكرزم (بضم فسكون فضم)، وهو ابريق مسطح ضحل السمك ومستدير بعض الشيء، ولا يستعمله إلا الجّمالون (بفتح فشدة على الميم) يربطونه إلى حداجة الجمل بعدما يملأ بالماء ابتغاء التزود منه في السفر. ولا يجوز أن يكون كروياً ما دام يشد إلى الحداجة، إذ إن كونه مسطحاً أنسب لهذا الغرض.

لقد اخترعت الحضارات القديمة الزجاج والخزف والفخار، وهذه مواد شديدة الشبة بالمنجزات الفنية حقاً، أما الحضارة الحديثة، وهي العديمة الذوق، أو المنسوجة من الهمجية حصراً، فاخترعت البلاستيك الشديد الافتقار إلى الجمال، أو إلى ما يرضي الروح ويسهم في تعزيزه. فيالها من حضارة سمجة وصفيقة هذه الحضارة الحديثة التي تعبد المال والنار والمعادن وغرائز الجسد. لقد كان الأنس غاية الانسان الذي اشتق اسمه من الإيناس. أما اليوم فلا يفتقر عصرنا الموحش المعكور إلى شيء قدر ما يفتقر إلى الأنس، أو إلى الحميم الذي لا أصالة للحياة من دونه قط. وربما كابد الانسان الحسّاس في الوقت الراهن من أن هذا

العصر الكالح يلتهمه كما يلتهم النسر كبد بروميثيس المكبل بالسلاسل والأغلال في جبال القفقاس.

وفي بعض الأحيان، ولاسيما في سنوات المحل، نخبز من الذرة البيضاء خبزاً نسمي الرغيف الواحد منه كردوشاً (بفتح فسكون فضم). والكردوش رغيف كبير وسميك يشبه رغيف الجيش الضخم الذي يسمى السمون. والكردوش شهي جداً حين يخرج من الفرن ساخناً، ولاسيما إذا أكله المرء مع زيت الزيتون. ومما هو جدير بالذكر ههنا أن الذرة البيضاء كثيراً ما يزرعها أهل بلدتنا في سهل الحمى خلال الموسم الصيفي الذي يروى بماء الندى. أما الذرة الصفراء فلم أرها إلا بعد النكبة.

ومن أشهى المأكولات التي كنا نُعدها في الفرن أكلة اسمها المحمّر (بضم ففتح فشدة على الميم المفتوحة)، واسمها المسخن في جنوب فلسطين. وهي مصنوعة من الخبز والدجاج البلدي والبصل المفروم وزيت الزيتون. وما زلنا حتى اليوم نأكل هذه الأكلة في مخيم اليرموك، ولكنها ليست شهية كتلك التي كنا نأكلها في فلسطين. فقد حل دجاج المزارع المصطنع محل الدجاج البلدي الذي ينمو على مهله، وبطريقة طبيعية، كما أن زيتنا موثوق لأننا نصنعه بأيدينا، بينما لا يدري أحد حقيقة هذا الزيت في الزمن الراهن الموغل في التزوير. والأهم من ذلك كله أن الحرارة اللينة التي ينتجها الفرن الطيني لا تملك أن تنتجها الأفران المبنية على مبدأ السرعة في زمن بغير قواعد ولا جذور.

ثم إن مأكولاتنا كثيرة ومتنوعة جداً، منها الكبة والبسارة (بكسر الموحدة) والططماجة (بضم فسكون) والششبرك (بضم فسكون) والبحته والمهلبية، وحساء العدس المجروش، وحساء العدس غير المجروش، وكذلك الباذنجان بالحمص، والحمص المدمس والفول المدمس (وأظن أن الكلمة الصحيحة هي المدمث، وليس المدمس)، والبطاطا والباميا والفاصولياء، وما إلى ذلك من مأكولات شعبية كثيرة. وكنا نزرع صنفاً من أصناف البندورة الصغيرة الحجم نسميها

الرصاصية، كما نزرع ضرباً من البطاطا الصغيرة الحجم أيضاً. ولم أشاهد تينك المادتين في أي مكان بعد طردنا من بلادنا الغالية.

يقيناً إننا راسخون في المكان، مؤصلون أصالة الأهرام. أما أعداؤنا فعرضيون زائلون وزائفون، ويفتقرون إلى الجوهر أيما افتقار، وذلك لأنهم بغير جذور أو أصول. والغيتو الذي بناه لهم الغربيون (لا يسوى قشرة بصلة)، كما يقول أهل بلدتنا حين يريدون أن يزدروا شيئاً أو شخصاً بغير قيمة. ومع ذلك فإنهم يلقموننا حقيقة ذلك الغيتو التافهة المذاق مضغة إثر مضغة، وببطء، وعلى مهل، ودون أية عجلة. ويبدو أنهم يدركون وجع الصدمة التي أحدثها النشوء الفاجع للغيتو في نفوس الناس. ولهذا فإنهم يراهنون على الزمن الذي يرون أنه يسير لصالحهم، لأن من شأنه أن يداوي جميع الكلوم والآلام.

إن كومة خرافاتهم لا تصنع أصولاً ولا تنجز رسوخاً، ولا تملك أن تصمد في وجه أمواج الزمان. فليس بالصدفة أنهم يحتاجون إلى دعم الدنيا بأسرها، كي ينتصروا على شعب صغير وفقير، تشكل الدالية والزيتونة والخابية والجرة وسكة المحراث أبرز مظاهر حياته. وأهم ما في أمرهم أنهم سوف يكفون عن الوجود يوم يكفون عن ممارسة القتل، فلقد كان قدرهم العلمي أن يعيشوا وأيديهم ملطخة بدماء الأبرياء.

إنهم لا يستحقون البتة هذا العز الذي حصلوا عليه في الزمن الراهن، وذلك بسب قدرتهم على التسلل في الظلام. وما من شيء في الوجود يجعلني أتميز من الغيظ سوى اولئك الذين نالوا من الأشياء ما لا يستحقون. فتباً لعالم وضع نفسه في خدمة اليهود دون حياء.

* * *

وثمة درج يصعد من المصطبة إلى القسم الثالث من بيتنا، وهو ما نسميه السدة (بكسر وشدة على الدال)، ولكن اسمه السقيفة في أماكن أُخرى. وتغطي السدة قاع البيت كله، ولكنها لا تغطي من المصطبة شيئاً. ولسدة بيتنا ثلاث

نوافذ، اثنتان تطلان على الشمال وأخرى تطل على الغرب. ومن هذه الأخيرة تدخل الشمس إلى البيت طوال أيام السنة. كما أن ثمة ثغرة في سقف المنزل فوق السدة، وهي ما يسمى عندنا باسم الروزنة، وهذه لفظة لا أعرف مصدرها، وأظن أن لها صلة بكلمة (الروشن)، وربما كانت اوروبية المنشأ: أما وظيفتها فهي التهوية، أو تخليص البيت من الروائح الكريهة.

ويتدلى من السقف، غرب الروزنة، حبل طوله متر ونيّف، ويرتبط به شيء اسمه القرطل (بفتح فسكون ففتح). وهذا وعاء يشبه السلة، ولكنه أوسع منها، كما أنه مصنوع من جذوع نبات السُعادى، أو ربما من أغصان لا أعرف مصدرها. أما وظيفته فهي صيانة الطعام في منأى عن القطط وسواها.

وبمناسبة ذكر القرطل، يجب أن أذكر القبعة (بضم فسكون) والقفة (بضم فشدة على الفاء) والجونة (بضم الجيم). وهذه أوعية نستعملها للحبوب والفواكه والخضراوات. والقفة والقبعة شكلهما كروي. والأولى أكبر من الثانية، بل ان القفة هي قبعة مكبرة جداً. وهي تصنع من نبات لا أذكره، وربما كان قش الحنطة أيضاً. وثمة شيء يسمى الزنبيل (بفتح فسكون). وهو يصنع من سعف النخيل. ويستعمل كوعاء للتمور التي تأتي عادة من خارج فلسطين.

وثمة ثلاثة أوان فخارية تستحق الرسوخ في الذاكرة والصيانة من سلطة الزوال، وهي الطقة (بفتح فشدة على المثنّاة) والهّشة (بكسر فشدة على المعجمة)، والكوز. والطقة اناء فخاري بابه مساو لقعره من جهة المساحة. وهو لا يتسع الا للقليل من اللبن أو الحليب. أما الهشة فإناء فخاري يشبه الابريق، ولكنه بغير زنبعة. وأما الكوز فإبريق صغير جداً، مزخرف ببعض الألوان الزاهية، يشتريه الناس ليبهجوا به أطفالهم. إن من واجبنا نحن الفلسطينيين، أن نخلد جميع الأدوات التي كانت تستعملها حضارتنا المفعمة بالأنس قبل أن يطالها الخراب على أيدي اولئك المخربين الإرهابين. وفي قناعتي أن صيانة هذه

العناصر الحضارية المحلية من سطوة التدمير هي واجب وطني وصنف من أصناف المقاومة والجهاد.

* * *

ولقد أسلفت ما فحواه أن سدتنا الواسعة لها ثلاث نوافذ، إحداها غربية، والثانية، أو الوسطى، فوق باب البيت تماماً، وتطل على الشمال البعيد. وبما أن جدارها سميك جداً، فقد كنت أجلس فيها لأكتب وظائفي المدرسية على الطبلية. ولهذه النافذة الوسطى قضبان حديدية. وللنافذة الغربية مثلها، فضلاً عن مصراعين لكل منهما.

وينداح المشهد عبر النافذة الوسطى على امتداد مسافة طويلة. ومنها تعودت أن أطل على المطر في الشتاء، وهو شيء أحبه حباً جماً. وأذكر أنني كثيراً ما رأيت قوس قزح من تلك النافذة. كما تعودت أن أشاهد الغيم عبرها، والغيم عندي سر، أو شبيه بالسر. فقد كنت وما زلت مغرماً به إلى حد الهوس. ولا أحسبني أحب شيئاً من أشياء الطبيعة قدر ما أحب الغيم، أو بعض أصنافه، اللهم إلا القمر أو البدر حصراً، وهو ما أواظب على رؤية بزوغه من مكان مرتفع في اليوم الرابع عشر من كل شهر قمري، ما لم يكن هنالك برد شديد أو أمر يفرض نفسه.

ولكم راقني الغيم الذي شاهدته في السويد حين زرتها خلال تموز وآب سنة1994، وبوسعي التأكيد على أن أجمل شيء رأيته في ذلك الاقليم النائي هو الغيم، ثم أشجار السرو والسنديان العملاقة الشامخة. ويبدو أن جمال الغيم في السويد أثناء الصيف، حينما يكون النهار طويلاً جداً، سببه كمية النور المراق من الشمس على الأرض.

أما النافذة الشرقية وهي المطلة على الشمال أيضاً، فلم يكن لها قضبان معدنية بتاتاً، بل مصراع واحد يشبه الباب الصغير، إذ كنا نمرّ منها إلى سطح المضافة حيث اعتدنا على قضاء ليالي الصيف الحارة. وهنالك عريشة على

سطح المضافة، وقد اعتادت جدتي خضرا أن تصنعها بإتقان كل عام. كما اعتادت تلك المرأة النشيطة أن تزرع النعناع والحبق والعطرة وعرف الديك، ونبات آخر كنا نسميه الشيب، وهو شديد الشبه بالشعر الأشيب الطويل.

وينبغي ألا أُغفل حامل الفراش الذي كان في الجدار الجنوبي فوق المصطبة. وهو تجويف مربع لا يقل طول كل ضلع من أضلاعه عن مترين. وأما في الجدار الغربي، وعلى ارتفاع متر ونصف المتر من المصطبة، فقد كان ثمة تجويف آخر يشبه المشكاة، وكنا نضع فيه جميع أدواتنا المطبخية الصغيرة، ولا سيما الصحون والملاعق. كما كنت أضع فيه كتبي ودفاتري وبعضاً من أشيائي الأخرى.

وأذكر أن الكوارة الغربية كان إلى جوارها، ولكن على السقيفة هذه المرة، صندوق كبير جميل، بني اللون، ومطعّم بالعاج، أو ما يشبه العاج، يضم ملابس عرس أُمي. وهو بمثابة خزانة ملابس، أو بديل عنها. ورأيت فيه فستاناً من المخمل الأزرق الداكن. وهو الفستان الذي لبسته أمي يوم عرسها سنة 1936. والمخمل ترف في ريفنا يومئذ، فلا تلبسه الفلاحة إلا في المناسبات السعيدة، ولا سيما في الأعراس والأعياد. كما رأيت قطعة ملابس أخرى اسمها المنتيان (بكسر فسكون فسكون)، وأغلب الظن أن هذه الكلمة سريانية. والمنتيان يشبه البلوزة الضيقة، فهو يجعل النهدين يشرئبان إلى الأعلى، أو يحتشدان ويبرزان على نحو لافت للانتباه. ولم تكن تلبسه إلا الفتيات البالغات اللائي ما زلن في ميعة الصبا، وإلا في المناسبات السعيدة فقط.

ولئن كان المنتيان يلبس فوق الفستان ليغطي الجهة العليا من الجذع، فإن الشنتيان يعادل البنطال، ولا يلبس إلا تحت الفستان الذي يغطيه تماماً على وجه التقريب. وفي بعض القرى، ولا سيما قرى الشمال الأقصى، لم تكن النساء تلبس الشنتيان، وانما كن يلبسن ملبوساً يشبهه ويسمى الكشكش. وفي الشتاء تلبس

النساء، ولاسيما العجائز، نوعاً من أنواع الجاكيت اسمه السلطة (بفتح المهملة، ثم سكون). ولا أعرف لهذه الكلمة أي مصدر.

وكانت هنالك خزانة خشبية صغيرة اللون تستند إلى الجدار الشرقي، ولكنها على السدة. وهي قريبة جداً من النافذة الشرقية. وكنا نضع فيها جميع ملابسنا.

وإذا ما خرجت من تلك النافذة إلى سطح المضافة وجدت على يمينك درجاً صغيراً، وإذا ما ارتقيته صرت على سطح البيت الذي يطل على جميع الجهات ما عدا الجنوب، إذ لم يكن بيتنا في أعلى التلة، ولكنه دون الذروة بقليل، أي على سفحها الشمالي. وفي الصيف كنا ننام، في بعض الأحيان، على ذلك السطح الواسع البارد، ولا سيما حين يشتد الحر كثيراً في بعض ليالي تموز. وعلى السطح تتبدى السماء واضحة جداً بنجومها الكثيرة. وكان الكبار يحذروننا، نحن الأطفال، من أن نعد النجوم، ويقولون لنا بأن من يفعل ذلك تنتشر الثآليل على جلد يديه. ولهذا كنت أحرص كثيراً على أن أخبّيء يدي تحت اللحاف كي لا تراها النجوم.

وكانت لدينا بقرة لها عجلة صغيرة، وكنا نشرب حليبها، وأحياناً نروّبه، أي نخثره، ونأكله مع الخبز الساخن في الصباح. وكان لنا حمار نجلب عليه الماء من بئرنا الذي في الصافح. ونستعمل عادة شيئاً اسمه المشتيل (بفتح فسكون)، وهو مصنوع من عيدان نباتية متينة، لها شكل كروي يقبل احتواء جرة من الجهة اليمنى وأخرى من الجهة اليسرى. واعتدنا على أن نملأ الجرتين بالماء يومياً ونعود بهما إلى البيت لنفرغهما في الخابية. والحقيقة أن الانسان في بلدتنا قليل الاستهلاك للماء.

إذن، كانت حضارتنا الريفية بسيطة العناصر والأدوات. ولكن بساطة أدواتنا هي السبب الذي جعل حياتنا طفيفة التوتر. وحيثما كان التوتر طفيفاً كان الشقاء خفيف الظل هو الأخر. وحسب المرء أن يتذكر أعراسنا وأعيادنا، وقدرتها

على أن تجعل الفرح يتدفق في صميم النفس، كي يدرك إلى أي مدى كانت حياتنا منسوجة من الهناء وهدأة البال. فالعرس عندنا طقس جماعي وروحي شديد العمق، حتى كأنه يأتي من النائيات لينعش أرواح الناس، ويكسر رتوب المجرى اليومي للحياة، ويطلق سراح النفس كأنما هو يمنحها إجازة من المياومة. ولهذا، كنا نسمي العرس باسم الفرح.

أما العيد فبرهة ذات ماهية غنائية تهدف إلى إنعاش الروح، أو إلى تزويدها بنشوة سرية تذاق جوانياً قبل كل شيء. كما أنه يجدد الصلات بين الناس الذين يشعرون يومئذ بأن اتصال بعضهم ببعض واجب مقدس. فهو يوم بهجة عظيمة تهبط على البشر من السماء. ويرى المرء في ذلك النهار مجموعات من الرجال وهي تطوف على البيوت لتهنىء أصحابها بالعيد، والمسرة بادية على الوجوه، بل ناصعة. كما أن كل فرد يلبس الملابس الأنيقة النظيفة، التي يغلب عليها أن تكون زاهية الألوان.

ويشتري الناس اللحم الذي يشوونه في أفرانهم على هيئة شرائح يضعونها في صينية كبيرة، كما يشترون شيئاً من الحلوى الجافة، ولا سيما الملبّس والكعكبان والطوفي، وما إلى ذلك، فيشعر المرء بان فرحا أصليا يتدفق في الشرايين وينتج شعورا غامرا بالسعادة. ومن عاداتنا أن كل والد يأخذ فستانا إلى كل بنت من بناته المتزوجات صبيحة العيد. وكان ذلك الفعل نفسه واجبا على كل أخ منتج له أخت متزوجة، أو أخوات متزوجات، فوصل الرحم واجب مقدس لدى شعبنا كله.

وفي ليلة العيد تحني الأمهات أيدي أطفالهن ذكورا واناثا، وتصنع النساء الزرد والكعك المحشوين بالتمر واللذين يشويان في الفرن عند الفجر. ويسلقن البيض ويضعن معه ورق البصل لكي يصير أحمر اللون، أو بنيا ضاربا إلى الحمرة بعدما كان أبيض تماما. وفي الصباح نخرج، نحن الأطفال، ومع كل منا بيضة أو أكثر، فنقوم بفعل نسميه (المفاقسة)، وهي أن تضرب البيضة التي

معك بالبيضة التي مع طفل آخر لتعرف أي البيضتين تكسر وأيهما تبقى سليمة. وفي بعض الأحيان يكون هنالك رهان، فمن كسرت بيضته خسرها.

وكنا، نحن الاطفال، نلعب معا، ولاسيما في المساء الباكر. واختلاط الجنسين من الأطفال شائع تماما في قريتنا. وإنني أجد بعض الحرج في هذا الموضع إذ أذكر علاقتي الجسدية بفتاتين صغيرتين في مثل سني تقريبا. ومن المؤسف أن أدب الاعتراف ضامر في الثقافة العربية، إن لم يكن معدوما تماما. فقد عبثت ذات مرة بفتاة على بيدرنا. وقد رآني والدها فزجرني بصراخ شديد، فما كان مني إلا أن هربت، ولا أدري ما إذا كان قد جازى ابنته أم لا. وكانت هنالك فتاة أخرى ترى نفسها زوجتي وتراني زوجها. وظلت على هذه الحال زهاء سنتين، مما يعني أنني لهوت بها كثيرا خلال تلك المدة. ولقد امسكتني أمي في إحدى الأيام وأنا أعابثها في فرن بيتنا، فنهرتها وضربتني وطردت الفتاة، ثم سحبتني من يدي وأخذتني إلى أبي وأخبرته بالأمر.

وعندما راح الاثنان يتهامسان لم أفهم أن ثمة أية خطورة، ولكنني استوعبت السر وجلية الامر عندما كبرت قليلا.

وأهم ما في الأمر أن ذلك الحب الذي عشته مع تلك الفتاة الرائعة، وفي غضون الطفولة الساذجة الغريرة، هو الأصدق والأعمق بين جميع حكايات الحب التي عشتها طوال حياتي، وذلك لأنه علاقة بسيطة ومباشرة وتنشأ على نحو تلقائي شديد السهولة. فكثيرا ما أعتقد بأنه كان حبا طبيعيا لأنه يمثل الالتحام البدائي بين الذكر والأنثى، أي الاتحاد الفوري السهل الذي كان بينهما قبل بدء الحضارة العالية. إنه بسيط ومباشر وتلقائي تماما كالتنفس الذي تمارسه الكائنات الحية عندما نكون خالية من الأمراض. ولهذا، فإن التعنيف والتهديد لم يمنعانا من الالتقاء كثيرا فيما بعد، ولكننا صرنا نتوخى الحيطة والحذر هذه المرة. ومع أن ستين سنة قد مرت، ومع أنني شخت وشاخت هي الأخرى، فأنا لا أستطيع أن أذكر اسمها في هذا السياق بتاتا.

* * *

أما لعبتنا الأكثر انتشارا فهي الطميمة (بضم فشدة مفتوحة على الميم). وتقضي هذه اللعبة أن ينقسم اللاعبون إلى شطرين، أحدهما يختبئ، والآخر يغمض كل فرد من أفراده عينيه وهو يضع جبهته على أحد الجدران. وبعد أن يتم التواري يأخذ الطرف الظاهر بالبحث عن المختبئين وينبشهم من مخابئهم كأنه يبحث عن أسرار. أما المختبؤون فيتسللون أو يندفعون سرا إلى الجدار نفسه، فكأنما الوعي ينقب عن الفحوى المكنون في باطن الاشياء. ومن وصل من المختبئين إلى الجدار دون أن يمسك به أحد من الفريق الظاهر، فإنه يكون قد نجا، وإذا نجوا جميعا توجب على الفريق الذي (طم) أن (يطم) من جديد. ومما هو لافت للانتباه أن الولد الذي يصل إلى الجدار دون أن يمسك، فإنه يقول (حجيت)، أي (حججت)، كأنما هو قد وصل إلى مكة المكرمة، أو إلى الكعبة نفسها.

وربما جاز الذهاب إلى أن اللعب والعيد والعرس والرقص تنتسب إلى سلالة الغناء الذي هو سمة الحياة الشابة السوية، والذي يهدف إلى تسريح النفس وتخليصها من كل توتر. اما المأتم فلا أتذكره جيدا، لأني لم أشارك في المآتم قط، وذلك بسبب صغر سني.

ومن مظاهر عبثنا نحن الاطفال اننا كنا نثير هياجا واضطرابا حول كلب إذا سفد. وكانت أزقتنا ملآنة بالكلاب والقطط. فنهجم على الكلب والكلبة ساعة السفاد ونطاردهما بالعصي والحجارة. والغريب أنهما يظلان متعاظلين على الرغم من جورنا واضطهادنا لهما بشتى الطرق الممكنة، وكذلك مع أنهما يتحركان بسرعة بغية النجاة من عدواننا الظالم.

* * *

ما من شيء في حياتنا إلا وهو ثابت مؤصل متين الجذور ونابع من المجرى الحي للتجربة الاجرائية، وذلك لأن أزمانا مديدة عتقته ورسخته، بعد ما

طهته على نار لينة، فجعلت له مذاقا طيبا، فصار عنصرا تركيبياً في بنية حية ذات قوام رصين. أما اليهود فما من شيء في حياتهم إلا وهو منتحل أو مسروق. إنهم تجمع مصنوع من الرغوة لو نفخ عليه المرء لتلاشى. ولكن هذا التجمع المصطنع له حماة كثيرون وأعداء قليلون بل قليلون جدا، لدى النظر إلى مستوى الفعل والإجراء.

وما كان في ميسور أية قوة ان تهدم بنيتنا الموارة بالحياة إلا هذه الصناعة اليرقانية، بل الجذامية، الموغلة في الحقد على روح الانسان. فلولاها لما كان في الامكان أن نتحول من مواطنين إلى لاجئين. وبفعل ما تختزنه هذه الصناعة الاستهلاكية من شرور خسرت الحياة عذوبتها ونكهتها الطبيعية، واستحالت الى كابوس محموم في نظر الحساسين على الاقل. فمن المحال أن يستهلك الانسان البضائع دون أن يستهلك روحه. بل إن استهلاكه لروحه، التي هي ماهيته، يتناسب طردا مع استهلاكه للبضائع. فكلما اسرف في ذلك اوغل في الانحطاط. وهذه حقيقة مضمرة أو مكنونة في لباب نظرية ابن خلدون الذي أكد على ان الترف هو ألد أعداء الانسانية، وأن الغنى، وليس الفقر، هو هادم الممالك والمجتمعات. (وإذا أردنا أن نهلك قرية، أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول، فدمرناها تدميرا) لقد صرح ذلك المفكر النادر بأنه استنبط نواة نظريته في التاريخ من هذه الآية الكريمة الصادقة.

* * *

ولأذكر شيئا عن جيراننا. فقد كان هنالك بيت إلى الشمال من بيتنا، ويشترك معه في المدخل والباحة ايضا. وكانت في ذلك البيت أسرة تتألف من رجل شاب وزوجته وأمه واطفاله الثلاثة وأخيه الذي لم يتزوج بعد. اما الرجل فهو حسين عبد الرحمن، وأما زوجته فهي زهرة. وستي أم حسين صديقة لستي خضرة، وخالتي زهرة صديقة لأمي. والأطفال الثلاثة من أصدقائي، أو ممن العب معهم كثيرا. وقد اعتدنا على أن نرسل لهم صحنا من طعامنا في بعض

الأحيان كما يأتوننا بصحن من طعامهم أيضا، ولا سيما في المساء، إذ أن ذلك الوقت هو ساعة الطهي في بلدتنا.

وكانت الجدات جميعا يروين لنا الحكايات الممتعة جدا في السهرات أو الأمسيات، ولاسيما على الدك الطيني الذي كان عند المدخل الشمالي الصغير لبيت ستي أم حسين، وهو ما نسميه القصة (بضم القاف)، وهذه كلمة مشتقة من القص حصرا، فما سمي بهذا الاسم إلا لأنه المكان الذي تروى عليه القصص والحكايات.

وأشهر المسرودات يومئذ حكاية الشاطر حسن، وحكاية الغولة، ومدينة النحاس، ونص نصيص، والست بدور، وما الى ذلك من أدب شفوي شديد القدرة على الامتاع والمؤانسة، ولاسيما قي نظر الأطفال. ويبدو ان الانس حاجة من الحاجات النفسية الكبرى. فهناك على تلك المصطبة الصغيرة كنا نتعلل في ليالي الصيف، أي نسهر أو نقضي المساء الباكر فقط، وذلك لأن الفلاحين لا يسهرون طويلا، لينهضوا مبكرين حتى لو لم يكن لديهم عمل. والتعلل في اللغة العربية وثيق الصلة بالعلة والعلالة. وأغلب ظني أن العلالة هي ما يعوض عن العلة أو ما يلهي عنها. ومن الواضح أن الاشتقاق في اللغة العربية كثيرا ما يكون شأنا سريا أو نصف سري. فهي تشتق الذاكرة والذكورة من جذر واحد، وكذلك البضاعة والبضاع، والطيب والطيبة. ولئن كانت العلاقة واضحة في الاشتقاقين الأخيرين، فكيف نفهم العلاقة بين الطرفين في الاشتقاق الاول، أي ما الذي يربط الذاكرة بالذكورة، يا ترى؟

وإلى الشرق من مصطبة ستي أم حسين كانت هنالك مصطبة (دك أو قصة) خارجية لأسرة اسمها أسرة يحيى الحاج قاسم. واعتادت العجوز صاحبة المصطبة أن تسرد لنا الحكايات المؤنسة. ولكن من الأهمية بمكان أن أشير إلى أن أضواء مدينة صفد، التي ترخم على جبل كنعان، كانت ترى في الليل من ذلك المكان، مع أنها تبعد زهاء أربعين كيلو مترا إلى الشمال الشرقي. ولا زلت

أذكر ذلك المساء الذي لفتت انتباهي فيه تلك العجوز إلى الأضواء المتلألئة في الشمال البعيد حيث ترخم مدينة صفد على ذروة جبل كنعان.

أما إلى الغرب من بيتنا مباشرة فتعيش أسرتان تشتركان بمدخل واحد وباحة واحدة. وفي الأسرة الشمالية امرأة عجوز اسمها ستي نجمة، وهي صديقة لستي خضرا. ولها حفيدة اسمها نجمة أيضا، وأظن أن هذه الحفيدة تصغرني بسنة واحدة. ولنجمة الصغرى أخت اسمها بدرية، وصديقة اسمها لولو. وهن جميعا صديقاتي، وألعب معهن في ساحة تتوسط حارة الجرينة. كما كان هنالك عدد آخر من الأولاد والبنات أصدقائي، فالناس في القرى مفتوحون بعضهم على بعض دوما ودون أي اغلاق او تحفظ.

أما الأسرة الثانية في ذلك المكان الغربي فتضم عجوزا طاعنة في السن، ولا عمل لها سوى العبادة والصلاة. كما تضم رجلا كهلا وثلاثة أبناء ذكور وبنتا صغيرة جدا. وكان ابراهيم، وهو أوسط الثلاثة، صديقا حميما لي. كما كان لي صديق آخر بيته إلى الغرب من بيتنا اسمه عوض، وثالث اسمه حمزة، ورابع اسمه توفيق. ولست أدري ما قد حل بهؤلاء جميعا، لأنني لم اصادف أحدا منهم قط، باستثناء نجمة التي رأيتها في مخيم اليرموك سنة 1958، بعدما تزوجت وأنجبت طفلة يومئذ. ومنذ مدة طويلة رأيت واحدة من بناتها متزوجة ولها أطفال وتقيم في المخيم نفسه.

وقد بلغني أن بدرية أخت نجمة، ماتت في حادث سير في بعلبك. وفي سنة 1970 ذهبت إلى مخيم البرج في صور بحثا عن ابراهيم حصرا ولكني لم أعثر عليه بتاتا، مع أنه كان يقيم في ذلك المخيم.

وبودي ان أشير اشارة خاصة إلى شيخة، جدة أمي لأمها. كانت المرأة عجوزا من أسرة تعرف بورعها وتقواها، بل إن تلك المرأة كانت تمارس صنفا من التدين يجوز للمرء أن ينعته بأنه تدين عابس أو متجهم يحتم عليها أن تكون قليلة الكلام، أو شديدة الميل إلى الصمت. فأنا لا أذكر أنني رأيتها تضحك، أو

تبتسم. وكانت تربي النحل وتنتج العسل، وربما كانت لها بضع نعجات تستفيد من ألبانها. وأذكر جيدا أنها كثيرا ما كانت تزودنا بشيء من العسل والزبدة. ولكنني لا أذكر البتة أنها سردت لي أية حكاية. ولم تغادر فلسطين، بل رحلت إلى قرية دير حنا مع بنت لها متزوجة، وتوفيت هناك بعد النكبة بقليل.

* * *

إن أول سنه أذكرها جيداً هي سنة 1944، أي يوم بلغت عامي السادس. وفي تلك السن كنا نلتحق بالكتّاب (بضم فشدة على التاء). وقد كان الشيخ علي الصالح هو الأستاذ الوحيد في ذلك المكان. ففي أواخر سنة1944 بدأت أتعلم القراءة والكتابة. وكان الكتاب في مكان قريب من المقبرة، أي في الجهة الشمالية الغربية من لوبيا، حيث توجد حفرة كبيراً جداً، وعميقة جداً، وقد اعتاد الناس على أن يأخذوا منها الكلس ليدهنوا به جدران بيوتهم من الداخل. وهذا فعل نسميه التشييد لأنه مأخوذ من كلمة (الشيد) الذي هو الكلس نفسه. أما هذه الكلمة الأخيرة، أعني (الكلس) فلم نكن نعرفها قط. وأما تلك الحفرة فاسمها خريوش (بضم ففتح فسكون فجرّ). وأذكر أن الكتّاب كان محاطاً بالأشجار من الشرق والشمال، وأن طيوراً كثيرة كانت تحط على تلك الأشجار، ومن بينها طيور السُمّان التي كنا نصطادها بالنقيفة نظراً لوفرة لحمها.

وكانت السنة الأولى في الكتّاب تسمى الصف التمهيدي. وهو ليس صفاً رسمياً ولا تعترف به السلطات التعليمية يومئذ. ولكن الشيخ توصل إلى اتفاق مع تلك السلطات مؤداه أن يدرس الأطفال الصف الأول في كتابه، وأن من يرفعهم إلى الصف الثاني ينتقلون إلى مدرسة الحكومة ويُقبلون فيها، شريطة أن يكونوا في السنة الثامنة من سنوات العمر، فلا يقبل الطفل في الصف الأول إلا إذ أتم السنة السابعة. وأغلب ظني أن السلطة التعليمية الرسمية قد رضيت بهذا الاتفاق نظراً لضيق مدرسة الحكومة التي تأسست في عصر السلطان عبد الحميد يوم كانت القرية أصغر مما هي عليه في عقد الأربيعينيات. أما موقعها ففي الطرف

الجنوبي الشرقي من الضيعة، بجوار بيادر آل كرزون، أو إنها قريبة من المدّان ومن بيت جدي علي الذي هو أول بيت في ذلك المكان.

* * *

وقد حدث حادث كبير في بلدتنا إثر دخولي إلى الكُتّاب سنة 1944، أو ربما خلال تشرين الأول حصراً، إذ قتل رجل كنت الشاهد الوحيد على مقتله الذي تم في رأد الضحى. كان الرجل اسمه صالح الرقية، ورقية هي والدته، إذ إن أهل بلدتنا ينسبون الولد إلى أمه في أحيان نادرة. والحق أن صالح هذا أفضل من ألف رجل على الأقل. فقبل أن يموت بسنوات كانت النساء في بلدتنا يغنين قائلات:

صالح، يا صالح، يا بو الشاليش قتلت الزابط مع الشاويش

أما الشاليش (وهذه لفظة تنتهي بشين مجرورة، وأحسبها تركية) فهو الشعر المسرّح بالمشط. والزابط هو الضابط. والشاويش كلمة تركية تعني الرقيب. ولكن هذه الأغنية لها تتمة ذات أصل واقعي، لأن صالح واحد من الثوار سنة1936. (وكان هنالك شاب شجاع مع الثوار من أهل بلدتنا، اسمه أحمد بكار، وقد استشهد في تلك الفترة بالقرب من نابلس وترك ابناً له في مثل سني) واعتاد صالح ورفاقه في السلاح أن يكمنوا ليلاً لسيارات الانجليز، وذلك عند المنعطفات الحادة المشرفة على مدينة طبريا من جهتها الغربية، أي إلى الشرق من لوبيا، وعلى مسافة لا تقل عن ثمانية كيلو مترات. ثم يطلقون النار على تلك السيارات فيقتلون ويجرحون بعض الجنود.

وللإنجليز عيون في كل مكان، فبلغوهم عن صالح وشأنه. فأرسلوا سيارة فيها سائق وضابط ورقيب. ولكن سبقهم إلى بيت صالح من أخبره بأمر السيارة، فما كان منه إلا أن حمل بندقيته وذخيرته، وامتطى حصانه واتجه صوب الشمال. وراح الجواد يخب في الأرض السهلية التي تفصل بين لوبيا ونمرين.

ولكن السيارة الصغيرة الحجم طاردت الرجل وأطلقت عليه النار، فأصابته في ساقيه، كما أصابت الجواد فأردته قتيلاً.

عند ذاك تمترس صالح خلف الجواد المقتول، وراح يطلق النار صوب السيارة، فأصابت الرصاصة الأولى الضابط فأردي قتيلاً. أما الثانية فقتلت الشاويش. وعند ذاك فر السائق بسيارته ليبلغ قيادته بما حدث.

والمثير للاستغراب أنه ما من أحد يعرف لماذا يتوجب على الانجليز أن يُقتلوا من أجل الصهاينة، أومن أجل أن يؤسسوا لهم صنفاً من أصناف الغيتو في بيئة معادية له أشد العداء. فكيف يمكن للمرء أن يفسر ظاهرة مفادها أن الغربيين متحمسون للغيتو الصهيوني أكثر مما هم متحمسون لبلادهم. وأغلب ظني أن الانجليز اليوم – عدا نخبتهم – يجهلون أننا، نحن الفلسطينيين، ما زلنا نكابد النتائج الفاجعة المريرة لوعد بلفور العجيب، بل المثير لكل استهجان واستغراب. ولهذا، أراني أظن بأن الأرض كلها لم تعرف في أي يوم من الأيام شعباً أكثر ميلاً إلى الشرور، بل إلى العدوان والارهاب، من الانجليز الجشعين الذين لا يعبدون سوى مامون، إله الذهب والمال، كاليهود سواء بسواء. ومما هو بديهي أن يقال بأن شدة ميل الانجليز إلى العدوان والارهاب هو نتاج طبيعي لشدة ميلهم إلى الإثراء وحيازة الأموال الطائلة.

إن الغيتو الصهيوني الذي لا لزوم له بتاتاً، والذي يقدسه الغربيون ببلاهة ودون فطنة، يكلف البشرية (أو ربما العرب حصراً) آلاف الأطنان من الذهب الخالص كل سنة، ولكن بلا أية فائدة أو جدوى. ثم أليس هذا الافراط في عبادة الصهيونية وخدمتها هو علامة من علائم انحطاط اوروبا وأمريكا؟ ومن الواضح لمن تتبع تاريخ الغرب الحديث أن إذعان الغربيين لليهود كان يتم بالتدريج، وأن انحطاطهم كان يترسخ كلما أمعنوا في الركوع أمام إرادة اليهود. وعندي أن الغربيين يثيرون الشفقة بسبب هذا الإذعان المغمى عليه وبسبب هذا الاتضاع الذي لا يدركون.

ويبدو أن الضمير البشري قد ترمد في هذا الزمن المتجهم الموحش والفقير إلى كل ما يؤنس ويبهج. والضمير هو الحقيقة اللبابية في ماهية الإنسان. فإذا تعطل استحال المرء إلى كائن ينحط عن رتبة الحيوان. والغربيون يلغطون دوماً بمقولة (الحرية)، ولكن مقولة (الضمير) لا تخطر لهم على بال بتاتاً، لأنها مناقضة لأنانيتهم وجشعهم، وكذلك لأنها من اختصاص النفوس الطيبة وحدها. ومما هو صادق في ذهني تمام الصدق أن الحضارة سوف تكون لها قيمة فقط يوم تصير مقولة (الضمير) رأس مثلها ومناقبها العليا.

أنظر إلى الغربيين على شاشة التلفزيون. إنهم دوماً يرقصون ويمرحون، أو يلعبون الرياضة ويتمتعون بمشاهدتهم للألعاب. لقد نهبوا جميع الأمم الأخرى وراحوا يتنعمون بما نهبوا دون وازع أو رادع من ضمير أو وجدان. أما الشعوب المنهوبة فتركوها تكابد بؤسها المرير على الدوام.

* * *

ولنعد إلى صالح. فقد زحف على مرفقيه وركبتيه، لأن رجليه الجريحتين لم تقويا على المشي. وظل يزحف حتى وصل قرية نمرين، أو إلى تخومها. فهناك حمله رجال تلك الضيعة الصغيرة ووضعوه في بئر جافه لا ماء فيها، ثم أغلقوا بابها من الأعلى، ولكن بعدما قدموا له خرقاً ليضمد بها رجليه، كما أتوه بالطعام والشراب الكافيين.

وبعد قليل وصلت قطعة عسكرية، وأحاطت بنمرين من جميع جهاتها. واعتقل الجنود رجال القرية كلهم، ولكنهم لم يعتقلوا النساء والأطفال، مع أنهم كثيراً ما كانوا يعمدون إلى الاغتصاب، بل حتى إلى اغتصاب الأطفال الذكور. نعم، إن الانجليز المتحضرين جداً جداً قد استباحوا أعراضنا ودماءنا وأرضنا، ليبنوا لليهود صنفاً من أصناف الغيتو في فلسطين. أجل هذا ما فعله الانجليز غير الهمج وغير اللئام وغير الأخساء. إنهم أهل حضارة ورقي، أما نحن فهمج نجهل الشوكة والسكين عند تناول الطعام. وها هم الغربيون الأشاوس

يتشدقون بحقوق الانسان كلما اقتضت مصالحهم أن يفعلوا ذلك، وجلهم يجهلون أنهم ما نالوا حريتهم إلا بعدما حرموا الشعوب المنهوبة من حريتها.

وعلى أية حال، راح الجنود يجلدون رجال نمرين كي يدلوهم على صالح، ولكن أحداً لم يعترف قط. ولم تنفع الكلاب المدربة المعدة لهذا الغرض، وذلك لأن الرجال قد حملوا الجريح بأيديهم، فانقطعت رائحته عن الأرض، أوعن التراب الذي راحت تشمه الكلاب.

وبعد ثلاثة أيام، يئس الانجليز من إمكانية العثور على صالح، فرفعوا الطوق عن الضيعة ورحلوا. وحين جن الليل أخرجه بعض الشبان من البئر ووضعوه فوق حمار واتجهوا به شرقاً حتى وصلوا إلى الحدود السورية بعدما عبروا نهر الأردن الذي نسميه الشريعة. ومن هناك نقلوه بسيارة إلى دمشق، حيث عولج وشفي تماماً. وظل في المنفى حتى بداية الحرب العالمية الثانية سنة1939، يوم أصدر الانجليز عفواً شاملاً عن الثوار. ولكن الجنود المحتلين قد جاؤوا إلى بيته بعد نجاته من براثنهم، ونسفوه بالمتفجرات.

ومما هو معلوم أن فرنسا كانت تحتل سوريا في تلك الأيام. ولكن الفرنسيين رحبوا بصالح عند الحدود السورية، فقد كانوا أنصاراً للثورة ضد الانجليز، الذين هم الأعداء التاريخيون لفرنسا. وعاد صالح إلى لوبيا، وبنى منزله من جديد وكان ذلك المنزل مجاوراً، بل ملاصقاً، للجامع من الجهة الجنوبية. ولقد درست فيه الصف الأول أثناء العام الدراسي 1945–1946، فالشيخ قد استأجره من ورثة صالح بعد مقتله بسنه واحدة تقريباً، وجعله مقراً لكُتّابه حتى حلت بنا النكبة على أيدي الصهاينة والغربيين الإرهابيين.

* * *

لم يتوان صالح عن الفعل الوطني، وهو المهموم بهّم المصير والمتيقن من أن الكفاح ضد الصهاينة وأدواتهم الانجليز لم ينته بعد، وأن الثورة سوف تتجدد، ولا سيما إذا منيت ألمانيا بالهزيمة في الحرب. ولهذا، فقد راح يسعى من

أجل السلاح. وأغلب الظن أنه كان على صلة ببعض رجال الحاج أمين الحسيني. كما كان في قريتنا رجل آخر أسمه يوسف الكيلاني له الصلة نفسها برجال الحاج أمين. وقد تمكن ذلك الكيلاني من أن يغتال واحداً من سماسرة الأرض الكبار في مقهى البنط المتوضع بجوار بحيرة طبريا.

وذات يوم التقى صالح برجل أسمه حسن، وهو من كان مختار الحارة الشمالية، بل زعيماً لواحدة من الحمولتين الكبيرتين في بلدتنا، واسمها حمولة العطوات التي تعادلها حمولة الشهابي في الحارة الجنوبية. وطلب حسن من صالح أن يعطيه مسدسه، فقال له الأخير إنه بحاجة إليه، ولا يستطيع أن يتنازل عنه لأحد. ولكن حسن أصر على موقفه، لأنه يعتقد بأن كل شيء في القرية ينبغي أن يرضخ لإرادته. ولهذا تشاجر الرجلان. فما كان من صالح إلا أن تناول حجراً وضرب به خصمه فأصاب ساقه. ولم يكن صالح قد بلغ الثلاثين، أما حسن فكان في الستين أو دونها بقليل. وليس من عاداتنا أن يضرب الصغير الكبير مهما يكن السبب. ولكن الرجل قد أرغم على ذلك.

وعلم أبناء حسن بما جرى، فكان قرارهم أن يموت صالح الذي صنع شرفاً، لا للوبيا وحدها، بل للشعب الفلسطيني بأسره. ولكن، لم يكن فيهم من يجرؤ على أن يواجه ذلك الرجل، لأنه قوي البنية وصنديد، ويحمل مسدساً تحت ملابسه.

وشعر صالح بأنهم سوف يسددون له ضربة غادرة، فشاور بعض أقربائه في الأمر، واقترح أن يرحل إلى صفوريا حيث يعيش أخواله، إذ إن رقية، أمه، من تلك البلدة الواقعة إلى الغرب من لوبيا. ولكن كان هنالك من قال له: لا عليك، سوف نسوّي الأمر. وجيء بصالح إلى حسن، وسوّيت المشكلة حتى ظن الجميع أن الخلاف انتهى إلى الأبد.

وذات يوم دخل صالح إلى دكان يملكه واحد من تلك الحمولة، ليسدد ديناً كان عليه من قبل. وبالصدفة الخالصة أرسلتني جدتي في تلك البرهة إلى ذلك

الدكان نفسه، لأشتري لها شيئاً لم أعد أذكره. ولما رأيت صالح يقف أمام طاولة الحساب، ويحسب الدين مع صاحب الدكان، فقد تريثت عند الباب، أو قرب العتبة من الخارج، وانتظرت ريثما يتفرغ لي البائع. وكان هنالك فتى لم يبلغ العشرين، اسمه رمزي، وهو ابن حسن الآنف الذكر. انه قصير ونحيف ولا يقارن بصالح العملاق. ولو لم يغدر خصمه من الخلف لتحتم عليه أن يكون المقتول وليس القاتل.

فمن فصيلة الخيال، بل من قبيل الشطح، أن يظن المرء بأن الفلاح طيب دائماً، كما ظهر في قصائد وردزورث، شاعر الطبيعة والريف، إذ الفلاح في كثير من الأحيان محتال ومراوغ وخداع، وفضلاً عن ذلك، فإن بعض الفلاحين لا يخلون من لؤم وميل إلى الغدر والشر والعدوان.

في البداية كان رمزي يقف وراء أحمد سعود، صاحب الدكان، ولكنه تحرك حتى صار خلف ضحيته، وتناول الرطل (وزنه 2500غ) عن الطاولة وضرب به رأس صالح، فسقط العيار من يديه، فسارع وتناول نصف الرطل الذي كان على الطاولة كذلك وضربه مرة أخرى على رأسه، ثم أفلت العيار الثاني من يده. وعندئذ هرب راكضاً نحو الشمال باتجاه بيت أبيه الذي لا يبعد أكثر من مائة متر.

ومما كان واضحاً لي تمام الوضوح، مع أنني، كما أسلفت، لم أكن إلا في السادسة من سنوات عمري، أن صالح الطيب لم يخطر في باله أن رمزي سوف يضربه، لا لأنهم منحوه الأمان، بل لأن ذلك الرمزي لم يكن يملأ العين بتاتاً. ويبدو أن ذلك الغدار قد كان عليه أن يقتل ضحيته على نحو نهائي، إذ لو نجا صالح من الموت لما كان لرمزي أن يعيش، بل ربما امتدّت يد الموت إلى بعض أقاربه أيضا.

أما المغدور فرأيته، حين خرج من الدكان، يرفع كوفيته وعقاله عن رأسه بيد ثم يمد يده الأخرى إلى موضع الضربة، لتخرج راحته مضرجة بالدم الأحمر

القاني. وسمعته يقول: إن نجوت سأريكم، يا كلاب. ثم اتجه غرباً صوب منزله. ونقل إلى المشفى في الناصرة، حيث توفي متأثراً بجراحه في ذلك اليوم نفسه. وأحضره بعض الجنود الانجليز مساء محمولاً في داخل مصفحة ذات عجلات مطاطية، ودفن ليلاً بإشراف أولئك الجنود.

ورأيت رقية، والدة صالح، وهي تلطم على خديها وصدرها، وتبكي وتولول من أجل ابنها الفقيد. وفي الحق أن معظم أهل بلدتنا، وبينهم بعض من أقرباء رمزي، قد تعاطفوا مع صالح، أي مع الرجل الصنديد الذي اغتيل غدراً ودون أي مسوّغ. فمما هو واضح أن ذلك الرجل المهموم بهم الوطن هو ضحية التخلف والرعونة وهزال العقل.

وعندما قرأت سيرة المتنبي بعد ذلك ببضع سنوات، علمت أن الذي قتل مالئ الدنيا وشاغل الناس هو أعرابي لا أحد يعرف قرعة أبيه من أين، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية. وعندئذ تعزيت عن صالح الطيب الذي غدره واحد من تلك الألوف التي تمر بلاعداد، كما يقول مثل آخر. فياله من منطق وضيع منطق هذا العالم اللاحم الذي يتأسس على مبدأ العداء أكثر مما يتأسس على مبدأ الإخاء.

واعتقل رمزي وسيق إلى السجن في طبريا. ولكن الصلح تم بين الطرفين في صيف السنة التالية (1945)، وذلك بسبب الضغوط التي مورست على أسرة صالح. فقد جاءت شخصيات ذات وزن نوعي من قرى كثيرة في الجليل الأدنى، وتوسطت من أجل الصلح. ودفع أهل القاتل دية لأبناء القتيل، وخرج رمزي من الحبس بعد سنه تقريباً، وذلك بعدما تنازل أهل المغدور عن حقهم في المحكمة.

وبعد خروجه نصبت خيمة في المرج المنتشر إلى الجنوب من البلدة، أو إلى الغرب من المدان بقليل، وجيء بشقيق صالح راغماً ودخل إلى الخيمة وصافح اليد التي قتلت أخاه، كما قبّل وجنتيه أيضاً، إذ هكذا تقتضي العادات. ورأيت ذلك الشقيق وهو يتعرض للضرب من قبل بعض الرجال لأنه رفض

الالتقاء بالجاني. وسمعت الجميع يقول له: إما الصلح وإما أن يقتل أهل البلدة بعضهم بعضاً. في الحق أن التوتر كان يسود لوبيا طوال تلك السنة. فتفادياً لكارثة عامة، أرغم ذلك الرجل على تقبيل ذلك المجرم. ولهذا، تم الصلح نهائياً، وطبخ الرز واللحم واللبن، وأكل منه جميع الحاضرين. وكنت بين الناس في تلك الساعة. ولهذا، فإنني اليوم أشعر بأن الرجل قد كلف بأداء فعل لا يطاق. ولو كنت مكانه لأحجمت عن أدائه، وبعدئذ فلتمطر السماء حجارة.

* * *

ولا أدري من الذي أبلغ البوليس (إذ هكذا كنا نسمي الشرطة) بأنني الشاهد الوحيد على الحادث، وذلك لأن أحمد سعود شريك في الغدر، وأظنه قد دخل السجن هو الآخر، ثم برئت ساحته.

فبينما كنت في بيتنا، وذلك بعد الحادث بساعة أو ساعتين، جاء رجل وقال لجدتي: خذي يوسف إلى مضافة يحيى السعيد. وهذا الأخير هو مختار الحارة الجنوبية وزعيم حمولة الشهابي المناوئة لحمولة القاتل يومئذ. وأضاف الرسول بأن المستنطق يريد أن يستجوبه.

وأخذتني جدتي إلى مضافة ذلك المختار التي تبعد عن بيتنا أكثر من خمسمائة متر. وظلت طوال الطريق توصيني بهذه الوصية: قل لهم بأنك لم تشاهد شيئاً، ولا علم لك بالأمر كله. وأضافت مراراً بأن العطوات سوف يقتلون أبي إذا أنا صرحت بالحقيقة، كما أنهم سوف يحرقون بيدرنا، ويقطعون زيتوننا ويسرقون ماشيتنا. ثمة، إذن، خطر جسيم. ورحت طوال الطريق أعدها بأنني سوف أكتم الأمر، وسوف أزعم بأنني ما رأيت شيئاً.

وعندما وصلنا دخلت جدتي إلى زوجة المختار، أما أنا فدخلت إلى المضافة، حيث يتجمع حشد من الرجال. ورأيت الانجليز لأول مرة في حياتي، إذ كان هنالك ثلاثة من رجال الشرطة ذوي القامات المديدة والوجوه الشقراء والعيون الزرقاء. ووقفت أمام المحقق، الذي كنا نسميه المستنطق، وسئلت عما رأيت، فما

كان مني إلا أن سردت الحقيقة كما هي، فقد حزنت كثيراً على صالح حين رأيت دمه يضرّج يده اليمنى، بل ظللت حزيناً عليه حتى اليوم. وكلما تذكرت مقتله، فإن واحداً من أمثالنا الشعبية يبرز في ذهني على الفور. يقول ذلك المثل (العرب فارسها مذبوح وكريمها مفضوح) وصالح هو ذلك الفارس المذبوح الذي يشير هذا المثل إلى من هم على شاكلته.

ما كان طبعي يسمح لي بالتدليس. وما زال طبعي حتى اليوم على تلك الحال. فأنا أُوثر الالتزام بالحق حتى لو أفضى الأمر إلى أسوأ العواقب.

وما سردت حكاية صالح هذه إلا لأُبيّن ما فحواه أننا لم نكن على مستوى قضيتنا التي صارت واحدة من أكبر المعضلات في التاريخ الحديث. هذا فضلاً عن أن تلك الحكاية ذكرى قاسية ما زالت تحز في نفسي حتى اليوم، على الرغم من أن أكثر من ستين سنة قد مرت عليها.

* * *

ولقد سبق لحسن الآنف الذكر أن شهد مقتل والده أبو دهيس. ففي أحد الأيام جاءت إلى لوبيا مجموعة من رجال البدو الذين ينتمون إلى عشيرة الصبيح، وهي التي كانت تقيم في مرج ابن عامر، وذلك إلى الجنوب الغربي من لوبيا، وعلى مسافة تبلغ زهاء اثني عشر كيلومتراً.

وذبح أبو دهيس خروفاً وأطعم الضيوف، ثم فرش لهم في المضافة وناموا. ومع الفجر نهض الحراثون وأخذوا الثيران والحمار والبذار، وذهبوا إلى الحقل ليحرثوا الأرض ويزرعوها. وعندئذ أفاق البدو من نومهم وركبوا خيلهم وتبعوا الحراثين إلى ظاهر القرية. وهناك هاجموهم وانتزعوا منهم كل ما معهم. فما كان من الرجال المنهوبين إلا أن رجعوا إلى البلدة وبلغوا أبو دهيس بما جرى، فركب حصانه على الفور وأخذ معه ابنه حسن الذي كان في العاشرة من سنوات عمره، إذ إن هذه الحادثة قد جرت في اواخر القرن التاسع عشر، أو ربما في سنة 1897، يوم عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية.

وعندما التقى بالبدو أخذ يرجوهم أن يفرجوا عن الحيوانات وأن لا يعرقلوا عمل الفلاحين، ولكن اللصوص حذروه وحثوه على أن ينجو بروحه. ولما أصر على موقفه المغاير لإرادة البدو رماه أحدهم بطلق ناري فأرداه قتيلاً. فما كان من ابنه حسن الذي شهد مقتل أبيه إلا أن وجه الجواد باتجاه القرية، وسار مسرعاً ليخبر الناس بما جرى. فاستنفرت لوبيا واحتشدت، وخرجت أعداد كبيرة من البشر إلى مكان الحادث وأتت بجثمان الرجل المغدور ووارته التراب.

ورجال لوبيا كثر حقاً. فالبلدة التي رأيتها وخبرتها قُبيل الكارثة قادرة على أن تحشد ما لا يقل عن ألف رجل أعمارهم دون الستين، التي هي بداية سن الشيخوخة في عرف أهل قريتنا. وقد ذكر جدي علي، الذي روى لي هذا الخبر، أن حشد لوبيا كان يضم مئات الرجال، وأن ذلك كله قد حدث يوم كان عمره سبعة عشر عاماً. والأرجح أن ذلك الجد قد ولد سنة1880.

وعلى أية حال، فقد وصل الحشد إلى مضارب الصبيح، فخرج البدو من خيامهم ليجابهوا الفلاحين وهم يركبون الخيول ويشهرون السيوف والحراب، ويلبسون الخوذات والدروع. وكان هنالك بواردي لوبياني اسمه على السعدة. وفي ضيعتنا قد ينسبون الولد إلى أمه بدلاً من أبيه، ولكن على ندره وحسب. وعلي هذا هو ابن عم المغدور لحّاً. وأهم ما في أمره أنه رام شديد المهارة، فكان إذا رمى أصاب حتماً.

وعندئذ تمترس علي وراء رجمة من الحجارة وسدد بندقيته ورمى الفارس الأول فأرداه قتيلاَ. وفعل الشيء نفسه بالثاني والثالث والرابع. فما كان من الفرسان إلا أن ولوا الأدبار، بعدما رأوا رجلاَ واحداَ يقتل أربعة منهم بأربع طلقات وحسب. وحينئذ أوقف علي السعدة النار لأن الخطر ارتفع عن أبناء قريته الذين كان الفرسان سوف يجزرونهم لولا بندقيته وجودة رميه، ولأن البدو خسروا أربعة مقابل واحد من لوبيا، وهذا كاف.

وحين رأى البدو فرسانهم مدبرين هربوا جميعاً وتركوا المضارب لأهل لوبيا الذين هاجموها ونهبوها، ثم أضرموا النار في كل ما تبقى منها. وعادوا الى قريتهم غانمين ظافرين. ولكن الصلح بين الطرفين لم يحدث حتى اليوم.

كان البدو منذ أزمان وأزمان معضلة كبيرة للفلاحين. فقد اعتادوا في بعض الأحيان، على أن ينهبوا مزروعات القرويين وأن يسرقوا مواشيهم. وكان سهل الحمى يعج بالبدو أو الرعاة. ولكن نفراً من أهل لوبيا قد اعتادوا على أن يسرقوا شيئاً من مواشي البدو في زمن العثمانيين وفي أوائل طور الانتداب، تماماً على النقيض مما هو مألوف. وذات مرة سرقوا بعض خيول البدو، فما كان من هؤلاء إلا أن هاجموا قرية نمرين وجلدوا بعض شبانها بعد أن اتهموهم بسرقة الخيل. ولكن أهل تلك القرية أكدوا للبدو أن الذين سرقوا جيادهم هم أهل لوبيا، وأنها مربوطة على بيادر تلك القرية، وهي مرئية بالعين المجردة. وراح أهل نمرين يُرونهم خيلهم وهي تأكل هناك، ويتحدونهم أن يذهبوا إلى لوبيا للمطالبة بها.

* * *

انتهى العام الدراسي الأول في أواخر شهر حزيران سنة 1945، فصار عمري سبع سنوات، وصرت مؤهلاً للدخول إلى الصف الأول الابتدائي، ولكن في كتّاب الشيخ علي. وقبل نهايته بشهر واحد ولد حسن أخي، فصرنا ثلاثة أطفال، وصار مجموع أفراد الأسرة ستة، نصفهم كبار ونصفهم الآخر صغار. وفي ذلك الصيف نفسه سمعت الناس يقولون بأن هتلر قد هزم. ورأيتهم مزعوجين من ذلك الخبر، لأن معناه أننا عما قريب، سوف نصير لاجئين، لا مستقبل لنا سوى الضياع في دنيا الوحوش اللاحمة التي يغتذي بعضها ببعض.

وفي تلك السنة نفسها، وربما في السنة السابقة، جاء نفر من البدو الخيالة الذين كانوا يشتركون مع جدي يوسف في سباق الخيل قبل بضع عشرة سنة من ذلك العام، جاؤوا إلى لوبيا لزيارة أخيه سليمان. وذهبت بصحبة أبي للترحيب

بهم، فرأيت خيولهم المسوّمة تأكل على المعلف، كما رأيت رماحهم الطويلة وقد أسندت إلى الجدار. وعندما قيل لهم إنني يوسف الذي جدد صديقهم يوسف، أخذوا يعانقونني ويضمونني إلى صدورهم، ويقبلونني بحرارة وصدق، وذلك وفاءً منهم لذكرى الرجل الذي كان الجميع يحترمونه أشد الاحترام. (ربما سمي الجد جداً في اللغة العربية لأنه يتجدد بحفيده، فالجد والجديد مشتقان من جذر ثلاثي واحد.) ولعل أهم حادث عشته في أواخر ذلك العام الدراسي التمهيدي، هو أنني ضربتني سيارة على الطريق بين طبريا والناصرة، بالقرب من المطحنة الآلية التي كانت هناك. وأخذني أبي إلى مشفى في الناصرة حيث بقيت زهاء أسبوعين. وقد ظل أبي معي طوال المدة تقريباً. وفي اليوم الأخير جاءت جدتي خضرا وأخذتني إلى لوبيا. وفي اليوم التالي عدت إلى المدرسة. وأذكر جيداً أنني أحببت القرآن الكريم كثيراً منذ ذلك العام الدراسي التمهيدي، ورحت أحفظ عدداً من سوره القصار عن ظهر قلب.

وطلب مني جدي علي أن أقرأ له شيئاً من تلك السور يومياً، فاستجبت لطلبه. وكان يصنع الشاي كل صباح ويسقيني كاساً تشجيعاً لي على قراءة المحكم المنزل على مسامعه، لأنه رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب. والشاي نادر في بلدتنا يومئذ. ولكن جدي فلاح ميسور الحال. ولقد ثابرت على تلاوة القرآن لجدي حتى توفي هنا في مخيم اليرموك سنة1975، عن عمر يناهز الخامسة والتسعين، أو زهاء ذلك.

وفي الحق أن جدي كان بريئاً كالأطفال، بل إنه واحد من أولئك الأنقياء الأبرار الذين يعيشون بصحبة الملائكة. ولست أعرف من يبذه في البراءة سوى جدتي خضرا الشديدة الطيبة، والشديدة الجمال في الوقت نفسه. وما زلت أذكر يوم ذهب إلى الحج في مكة، وذلك سنة 1946، على ما أرجح. وحين عاد جلب معه بعض الحلوى الشهية، وكذلك بعض التمر الأسود اللذيذ.

وفي تلك السنة نفسها صار أبي شرطياً في حيفا. وكان يقبض راتباً جيداً مقداره اثنتان وعشرون جنيهاً فلسطينياً كل شهر. وفي أواخر آب من تلك السنة، ترفعت إلى الصف الثاني، والتحقت بمدرسة الحكومة، وهي القريبة من بيت جدي في المدّان. وللمدرسة يومئذ مزرعة نباتية صغيرة في السهل الجنوبي، نتعلم فيها الزراعة العملية. واعتاد نفر من تلاميذ القرى المجاورة أن يأتوا إلى بلدتنا ليتعلموا في مدرستها، وخاصة أبناء نمرين المجاورة للوبيا من جهة الشمال الغربي.

* * *

كثيراً ما كانت هذه الأسرة أو تلك تبث اشاعة مفادها أن تبانهم يسكنه غول شديد الضخامة، وذلك ليرهبوا اللصوص ويمنعوهم من سرقة التبن. وكثرٌ هم الذين ادعوا أنهم قد شاهدوا الغول بأعينهم. ففي الظلام يتوهم الإنسان أوهاماً لا تخطر في باله حين يكون محاطاً بالأنوار. فالظلام ينشط الخيال والأوهام معاً.

وذات يوم بينما كنت عائداً من بيت عمتي فاطمة، الذي يبعد عن بيتنا زهاء ثلاثمائة متر إلى الجنوب، فقد مررت من أمام تبان في زقاق معتم وشديد الضيق. واعتاد أصحاب ذلك التبان أن يتحدثوا كثيراً عن الغول الذي يسكن فيه ويأكل التبن كالبهائم. فما أن بلغت باب التبان حتى تخيلت أن الغول قد فتحه وخرج، فما كان مني إلا أن ركضت وصرخت بأعلى صوتي، وأنا أتخيل أن الغول يطاردني. وعند ذاك أطلت بعض النسوة رؤوسهن من النوافذ بعدما سمعن صراخي، وأخذن يذكرن اسم الله، ويحاولن أن يبثثن شيئاً من الطمأنينة في نفسي، فالأخيار في بلدتنا أكثر من الأشرار جزماً.

ووصلت إلى البيت مصفر الوجه، مرعوباً، ونفسي مبهور، أو يوشك أن ينقطع. ولكن مثل هذه الأزمة العرضية لها علاج في بلدتنا. فهنالك شيء نسميه (طاسة الرعبة) وهي بالفعل طاسة نحاسية صغيرة كتبت عليها كتابات تشبه الطلاسم. وأهم ما في أمرها أن الشمس ينبغي ألّا تراها بتاتاً، فإذا رأتها بطل

مفعولها السحري أو السري. فالشمس نور أو ظهور، والسحر صنف من أصناف المستورات، أو مما يتوارى في الظلام. وأتوني بطاسة الرعبة، وشربت منها، ثم هدأت ونمت نوماً عميقاً. وفي الصباح وجدتني مرتاحاً تماماً. وحدث ذلك الحادث سنة 1946، على ما أرجح.

وكانت هنالك عادة خرافية أُخرى، ولكنها لا تخلو من حلاوة وعذوبة، وخلاصتها أن من فقد حيواناً من حيواناته ذهب إلى أحد العارفين بالقراءة على الموسى. ويجب أن يكون للموسى مقبض خشبي، فيطوى ويوضع داخل غمده، ويقرأ عليه الرجل الخبير بهذا الأمر شيئاً يشبه التمتمة، وإذا ما فتح الموسى، فإن الوحوش تنقض على الحيوان وتأكله فوراً.

وذات مساء لم تعد بقرتنا مع القطيع الذي نسميه العجال (بفتح فشدة على الجيم) فأرسلتني أمي إلى عمي صالح الضرير بعدما ناولتني الموسى. وقرأ ذلك الرجل ما لا أدريه من تمتمات، ثم أعاد لي الأداة وأوصاني بألا أفتحها حتى ترجع البقرة. وعدت إلى البيت مطمئناً ومتأكداً من أن الوحوش سوف لن تأكل بقرتنا المسكينة. وفجأة دخلت تلك البقرة إلى البيت من الباب المفتوح الذي لا نغلقه إلا حين ننام. فكأنما لها ذاكرة أو غريزة تهديها إلى معلفها دون سواه.

ومما هو قريب من التمتمة على الموسى، وكذلك من طاسة الرعبة، أنه كانت هنالك شجرة سدر قرب عين بسّوم التي في الطرف الجنوبي من سهل الحمى، حيث يرقد الشيخ بسّوم نفسه. ولقد اعتاد البدو المقيمون في السهل، وهم كثر، أن يعلقوا الخرز الأزرق على تلك السدرة، ويعتقدون بأن ذلك الفعل وثيق الصلة بالأسرار. وكان البدوي إذا سرق نعجة، مثلاً، وطلب منه أن يحلف على القرآن ليبرئ ساحته، فإنه يحلف مع أنه سارق. ولكنه يحجم عن أن يحلف على سدرة بسّوم ذات الخرز الأزرق. فهو يعتقد بأن الولي، أي الشيخ نفسه، سوف (يقرعه) (بضم ففتح فسكون فجرّ). فالقرعة تيبس الجسم على نحو كلي، ولكن دون موت ولا شفاء.

وفي قناعتي أن مجتمعاً يتنكر للخرزة الزرقاء وطاسة الرعبة والقراءة على الموسى، وكذلك للأولياء الذين (يقرعون)، وما إلى ذلك من خرافات، هو حشد بشري إنسانه بائس أو متخشب، بل يجهل مذاق السعادة العسلي، وذلك لأنه خسر طفولته بأسرها، ولم يحتفظ منها ولو بنتفة تعادل قلامة ظفر. وكل من خسر طفولته كلها لا محيد له عن أن يكون شائخاً وتعيساً إلى حد مثير للشفقة. وفي مثل هذه الحال، فإن الحياة لا تعود سوى اعتلاف بالتبن والزؤان. ولكم صدق اولئك الذين صرّحوا بأن إنسان عصر الصناعة هو كائن بائس أو شقي لأنه حرم من الأساطير والخرافات. والأصوب عندي أن يقال بأن هذا الطور قد خسر طفولته، وكل من خسر طفولته شاخ، ومن شاخ أطبقت عليه وحشة الوجود الخانقة.

لقد آن للبشر أن يضيقوا ذرعاً بهذا العلم وهذا الإفراط في العقلانية والجنوح صوب توثين النهج المنطقي في التفكير. فمما يؤسفني حقاً أنني عشت في طور تاريخي أنجز استقلابا كبيراً طرد الإنسان من مناخ الأسطورة الرحيب الى زنزانة العلم الشديدة الضيق، أو من التفكير الطفلي الى التفكير الاكتهالي المحاط بالأسوار الضيقة والخالي من كل قدرة على إنعاش الروح. وربما جاز القول بأن نفي الخرافات والأساطير قد ساهم في دفع الفنون والآداب إلى الإنحطاط.

ويبدو أن الرومنسية والرمزية والسريالية ما جاءت إلا كردود أفعال على هيمنة العلم والمنطق والعقلانية في العالم الحديث. فليس بالصدفة أن تبدأ الرومنسية مع ظهور المحرك البخاري، أو بعده بقليل، وأن تظهر الرمزية مع تعميم الكهرباء، وأن تجيء السريالية مع التقدم الهائل في العلم والصناعة الحديثة. وهذا يعني أن البشر يصرون على حقهم في الحصول على أوهام لذيذة فاتنة، هم دائماً في أمس الحاجة اليها، وإلا فإن حياتهم سوف تستحيل إلى وليمة من رماد. فبغير ذلك العنصر الطافح بالنشوة أو المنعش للروح، أو قل ذلك

الشيء الذي من شأنه أن يتجاوز المياومة ورتوبها الفاتر، فإن الحياة تخسر كل مذاق عذب أو طلي.

ومن الواضح أن الناس في الأرياف قد كانوا يعوذون بالقوى الوهمية أو اللامرئية لتذود عنهم شرور القوى الفعلية أو المرئية. وهذا يعني أنهم يوظفون اللاعقل في خدمة الحياة، وذلك بعكس الغربيين الذين يوظفون العقل في خدمة الجنون والموت، ثم يزعمون بأنهم هم الذين اخترعوا العقلانية وجعلوها سمة من سمات الحياة البشرية. إنهم يمارسون عقلانيتهم على أنفسهم، ولكنهم لا يمارسون على الشعوب سوى جنونهم وشرورهم وميولهم الشيطانية.

* * *

يجب عليّ الآن أن أمس ثلاث موضوعات، وهي (1) اللباس و (2) الأمثال الشعبية و (3) بعض الكلمات التي كانت تستعمل في لوبيا، ولكنها آلت إلى الإهمال والإغفال، أو حتى إلى الخروج من حيّز الحياة والاستعمال في هذه الأيام الراهنة.

تلبس المرأة غطاء للرأس نسميه الحطة (بفتح المهملة). وتضع فوق الحطة منديلاً أسود رقيقاً نسميه الشورة. وربما كانت هذه الكلمة عربية ومعناها الشارة، أي ما يؤشر إلى شيء ما. ولون الحطة والشورة معاً هو اللون الأسود. وتربط المرأة طرفي الشورة فوق الجانب الخلفي من رأسها. ولهذا، فإنها تصير شبيهة بالعصبة. أما وظيفة هذه العصبة الرقيقة فهي أن تغطي مقدمة شعر الرأس.

ويلامس بدنها من الكتفين حتى الركبتين لباس يسمى الثوب، وهو رقيق وبلا أكمام، أو ربما كان له نصف كم فقط. وتلبس كذلك شيئاً اسمه الشنتيان (بكسر فسكون فسكون)، وهو يشبه السروال أو البنطال الفضفاض. ولكن اللباس الذي يغطي جسدها هو الفستان. ويسميه أهل بلدتنا باسم الفستيان (بكسر الحرف الأول، وبوجود ياء مثناة بعد التاء). وهو على وزن منتيان وشنتيان. وأظن أن

هذه الكلمات من أصل سرياني، أو ربما فارسي. وكان لفستان المرأة العجوز جيب عند الخاصرة اليمنى تقريباً، وهو يتوضع داخل الفستان، ماعدا فتحته التي تشق نسيجه نفسه، ولهذا فإنه مخبوء عن الأنظار إلى حد ما. وكنا نسميه الشخلول (بفتح المثلثة وسكون الموحدة وضم اللام). ولا أدري لهذه الكلمة مأتى، وأظنها سريانية، إن لم تكن تركية أو فارسية.

كما تلبس المرأة حذاء نسميه الكندرة، ولكنها لا تلبس الجوارب بتاتاً. ولا يلبس الجوارب في ضيعتنا إلا الفلاح الميسور. وأهل بلدتنا يسمونها الكلسات. وفي أيام البرد تلبس المرأة، ولا سيما العجوز، شيئاً اسمه السلطة (بفتح فسكون). والسلطة هي جاكيت المرأة عندنا، ولها جيبان، واحد عن اليمين والآخر عن الشمال، كما أن لها أزراراً بغية إغلاقها من الأمام.

وتتمنطق المرأة التي تخطت منتصف العمر بزنار من قماش ما زالت رواسبه باقية حتى اليوم. أما المرأة الشابة فتتمنطق بنطاق كنا نسميه الشوحية (بسكون ففتح)، ونجمعها على شوحيات. وربما كان أصلها الشويحية (بضم ففتح فسكون)، ولكنها رضخت للتحريف من أجل سهولة اللفظ. وهذا نطاق سميك مصنوع من قماش خشن الملمس، وملون بلون زاه، وله شرابات من الطرفين. وكانت هنالك أرض في محيط فريتنا اسمها أم الشوح (بسكون ففتح). ومن المحتمل أن تكون هذه اللفظة الأخيرة صيغة جمع لكلمة (شويحية).

ويلبس الرجل كوفية نسميها الحطة (بفتح المهملة). وهي بيضاء اللون دوماً. ويلبس عليها عقالاً أسود وهو رمز العقل والكمال. ويلامس بدنه ثوب رقيق بغير أكمام، أو ربما كان له نصف كم. وهو يمتد من الكتفين حتى الركبتين. كما يلبس شيئاً نسميه اللباس. وهو شديد الشبه بالسروال. ولونه أبيض دائماً. وفوق هاتين القطعتين يلبس القمباز الذي يربطه برباط يجعله يستدير حول البدن كله. وللقمباز جيبان، واحد من كل جهة. ويضع فيهما الرجل علبة سجائره ونقوده ومحرمته ومسبحته، وما إلى ذلك من أشياء صغيرة. كما يلبس حذاء نسميه

الكندرة. وفي أيام البرد يلبس المسنّون عباءات، أما الشبان والكهول فيلبسون جاكيتاً على القمباز، ويسمونه الساكو. وربما لبس الرجل الجاكيت وفوقها العباءة أيضاً.

أما الأطفال الذكور الذين هم من جيلي، فكانوا يلبسون اللباس الحديث، وهو البنطال والجاكيت والكندرة. وفي أيام البرد كنا نلبس معاطف سميكة لها أزرار. ولكننا لم نكن نلبس الجرابات، اللهم إلا أن يكون ذلك شديد الندرة.

* * *

وبودي أن أختار مجموعة من الأمثال التي لم تعد شائعة في هذه الأيام، أوهي لم تعد تقال إلا على نطاق محدود. وهذه عينه من الأمثال المهجورة أو نصف المهجورة:

1- كلام الليل مدهون بزبدة. وهذا مثل معناه أن ما يقال ليلاً ينقض نهاراً. ويبدو أن حال النفس في الظلام يختلف عن حالها في النور. ففي الظلام تسرح النفس وتشطح فتصير أقوالها بلا ضوابط، أو هي تقول ما تستنكره إذا طلع الصباح.

2- انطر تييجي الترياق من العراق. وهذا مثل يضرب لمن يتوجب عليه أن ينتظر طويلاً ليحصل على شيء ما، وذلك لأن المجيء من العراق في أيام الجمل والحمار يحتاج إلى زمن طويل بسبب طول المسافة.

3- ياطول مشيك بالبراري حافي. وهذا مثل يضرب لمن يتوجب عليه أن ينتظر طويلاً، وهو يتألم، قبل أن يصل إلى الخلاص. وهو يشبه المثل السابق إلى حد ما.

4- بقولوا عكا وخمه. وهذا مثل يضرب عندما يأتي الفعل الجميل من انسان كثيراً ما يذمه الناس.

5- طلع من شرقي العواذر: لقد انطفأ هذا المثل تماماً في هذه الأيام، لأنه ما عاد هنالك إلا القليل ممن يعرفون معناه. فالعواذر هي حزم من أغصان

الشجر يضعها الفلاح على البيدر من الجهة الشرقية حين يريد أن يذري القمح بالمذراة فالقمح يتساقط أمام العامل، وينفصل التبن الصالح للحيوانات إلى الشرق من كومة القمح. أما التبن الناعم الذي لا يصلح لشيء فينتشر إلى الشرق من العواذر. وهذا التبن يهمله الفلاح تماماً. فالمثل يضرب لمن دخل في أمر كي ينتفع منه فلم يحصل على طائل.

6- كل ديك على مزبلته صياح. ومعنى هذا المثل أن كل أمرئ هو قوي حين يكون بين أقاربه، أو في حيه، أو في قريته.

7- الديك الفصيح من البيضة بصيح. وهذا مثل يضرب للطفل الذي ينم عن ذكاء مبكر.

8- الليلة السعيدة من العصر بتبيّن. حين تيأس من جدوى هذا الشيء أو ذاك، يقال لك انتظر ريثما تتبدى النتيجة، فإنك تقول هذا المثل وأنت تقصد أنه لو كانت له نتيجة ايجابية لظهرت بوادرها منذ زمن طويل.

9- عنزة ولو طارت. كان اثنان يسيران في البرية فشاهدا غراباً جاثماً على الأرض. فقال الأول هذا غراب. وقال الثاني: بل هذا عنزة. فهجم الأول على الغراب فطار. وعند ذلك قال لصاحبه: ها هو ذا طار، فلو كان عنزة لما فعل ذلك. ولكن الثاني ظل مصرّاً على رأيه، وقال: إنها عنزة ولو طارت. وهذا هو التشبث بالرأي على نحو مفرط وبعد اتضاح البينة.

10- الراعي إن قصد بحلب التيس. والمقصود بهذا المثل أن صاحب هذا الأمر أو ذاك يستطيع أن يذلل كل أمر عسير ضمن إطار اختصاصه.

11- ما بفلح بالحمى غير عجوله. وهذا المثل يشبه المثل العربي الجاهلي الذي يقول: ما حكّ جلدك مثل ظفرك. وخلاصته أنه ما من أحد ينفعك سواك. ولا يحمي بيتك إلا أنت.

ويبدو أن الأمثال تفرزها بيئة تناسبها، أو يشرطها شارط خارجي محلي محدد. ولعل في الميسور أن أسرد الكثير من هذه الأمثال، غير أن الأمر سوف

يطول كثيراً لو فعلت ذلك. ولكنني أتمنى أن يقوم أحد الباحثين بجمع أمثالنا الشعبية، ولا سيما المهجورة. وحبذا لو جمع الأغاني والنكت وما إلى ذلك من موروث شعبي.

* * *

وبودي قبل إنهاء هذا الفصل أن أذكر بعض الكلمات التي يجب تصنيفها على أنها محلية جداً، أي غير معروفة على نطاق واسع. فأهل بلدتنا يسمون السكين الكبيرة ذات المقبض الخشبي باسم الخوصة. ويسمون الملعقة باسم الزلفة أو الخشوقة. ويسمون الشباك باسم السر، ربما لأنه يكشف أسرار البيت. ثم إن كلمة (تنبيل) تعني السيارة. وهم يجمعونها على (تنابيل). ولاريب في أن كلمة (اوتومبيل) الأوروبية المنشأ هي أصل هذه التسمية. أما الصيدلية فاسمها (الفرمشية) وهذه كلمة ايطالية الأصل، على الأرجح.

ومن كان مزعجاً دون أن ينفع معه الردع أو العذل، قالوا عنه بأنه (يفدر) (بالفاء). وهذه كلمة عربية معناها يبرد، أو بالأحرى يبرد الطعام بعدما يكون ساخناً. وربما استعملت في الأصل بمعنى مجازي خلاصته أن ذلك الشخص يبعث على اليأس والتنصل من أمره. وفي ذلك ما يشبه البرود بعد التحمس.

وإذا وصفوا شيئاً بأنه ممتاز قالوا: برنجي. وهذه كلمة تركية معروفة، وهي تعني الأول. وهنالك كلمة أخرى أظنها تركية، وهي (جخة) (بفتح فشدة على المعجمة)، ويقصدون بها الشيء الجيد أو الممتع. ويقولون: هذا جديد لنج (بفتح فسكون). وأظن أن هذه الكلمة تركية هي الأخرى، ونحن نستعملها بمعنى كلمة (جداً) العربية. ولكننا لا ننطقها إلا مقرونة مع كلمة (جديد).

كما أن أهل بلدتنا يسمون القبرة (قنبورة)، ويسمون الكنزة (جرزاية)، وبوط الأطفال باسم اليستيك، أما البوط الذي يلبسه الكبار فاسمه المركوب، وهم يستعملون كلمة (دغشة) لتعني الظلام الذي يكون قبل الفجر. وهذه كلمة مأخوذة من (الدغش) العربية التي تعني الظلام بوجه عام. ويسمون شدة الفوضى باسم

(الهركلة) ومن كان هندامه غير لائق وصفوه بأنه (مهركل). كما أنهم يطلقون اسم (التعسيف) على تنظيف السقف والجدران. ويقولون شيدنا البيت حين يطلون جدرانه من الداخل بالكلس.

وهنالك مجموعة من الكلمات قد لا أعرف لها مأتى، ومنها(الدبعي) (بكسر فسكون) وهو الغبي البليد ذو المنظر السيء. وأما (الهكو) (بكسر فكسر) فهو الشديد الغباء والبلادة والفهاهة. وهذه كلمة عربية فصحى ومعناها الرجل الضعيف العقل. و (الطلهينة) (بفتح فسكون) هو من لا يعرف شيئاً حتى لكأنه أبله. ولئن كان (الهتلة) (بفتح ففتح) هو الجبان فإن (الخنجعة) هو الشديد الجبن الذي لا يدافع عن نفسه بتاتاً. وأما من كان بغير قيمة فاسمه (عضرط) (بضم فسكون فضم) وهم يضيفون اليها هذا القول :(لا يحل ولا يربط). وهي كلمة عربية الأصل مأخوذة من(عضروط) وهو من يعمل مقابل طعامه. وقد وردت في شعر المتنبي، وذلك في داليته التي يهجو بها كافور، الذي (تطيعه ذي العضاريط الرعاديد).

كما أن هنالك بعض الكلمات التي غيرنا دلالاتها. ومنها كلمة (المبدّى) (بضم ففتح فشدة على الدال)، وهي المأخوذة من (بدا)، أي ظهر. وقد صارت عندنا بمعنى من له الأولوية. ونحن نستعمل كلمات اشتُقت من جذور عربية، ولكنه اشتقاق عشوائي أو بلا قاعدة. ومثال ذلك كلمة (دُبار) (بضم فشدة على الموحدة) وهذه كلمة معناها الحل الخاص بمشكلة ما. فيقولون: لها دبار، أي لها حل. وأصلها العربي هو التدبير.

وهم يطلقون اسم (الحيط) على سطح البيت. أما الحائط فيسمونه الساس. وهذه كلمة لا يخفى أنها مشتقة من (الأساس) العربية. فما من أحد في بلدتنا يقول السطح أو الأسطوح، كما نقول اليوم. وهم يميزون بين الكرم والبستان. فالكرم يسقى بماء المطر، أما البستان فيسقى بماء الينبوع. وبما أن قريتنا بغير ينابيع، فليس فيها بساتين، وإنما فيها كروم.

ومن كان من سقط الناس سموه (سقاطة)، وهو الدنيء الذي لا يعتد به بتاتاً. ويوصف الجسم الطويل العريض الغليظ بكلمة (جلخ) (بكسر فكسر). أما الشخصية فكلمة تطلق على الرجل الضخم الهيئة والمتمتع بوجه أبيض مستدير. وهذا يعني أن الشخصية كلمة تخص العين قبل سواها. وهنالك كلمة (يتبغدد)، المشتقة من اسم بغداد. ويبدو أن أهل تلك المدينة متأنقون مترفون لا يأكلون إلا الطعام الشهي ولا يلبسون إلا الملابس النفيسة. فيقال عندنا: فلان يتبغدد على الطعام، أي لا يعجبه الأكل الذي تصنعه الأسرة، فلا يأكل إلا ما كان شهياً جداً. وأما من هو ميسور الحال، فيقولون عنه إنه (يعيش في مهد عيسى). وربما دلت على ذلك كلمة (المهد) التي قد تؤشر إلى كنيسة المهد.

وهنالك لفظة غريبة لا أدري كيف وصلت إلى بلدتنا، وهي كلمة (شنتاوي) (بفتح فجزم) التي لا يستعملونها إلا لوصف الكلام، فيقولون (حكي شنتاوي) وهم يقصدون بذلك أنه كلام مضطرب، أو مختل، أو لا معنى له. ومما هو معروف أن هنالك ديانة في اليابان تسمى (شنتو) (بكسر فسكون)، وأن كلام تلك الديانة عويص أو مبهم، أو ربما كانت معانيه مضطربة، بل مختلة. فهل أُخذت كلمة (شنتاوي) من (شنتو) اليابانية؟ ولئن صح هذا الافتراض فلا بد لهذه اللفظة من أن تكون قد وصلت إلى بلدتنا عن طريق الجنود الذين خدموا في الجيش العثماني، أو اولئك الذين كانوا يتطوعون في جيش الانجليز.

* * *

والآن أود أن أتحدث بشيء من الإيجاز عن تقسيم العمل بين المرأة والرجل في بلدتنا.

يتأسس تقسيم العمل على مبدأ فحواه أن الرجل ينهض بعبء الشطر الأشق، ويترك للمرأة عبء الشطر الأقل تعباً أو إجهاداً. فالرجل يحرث الأرض ويحصد القمح ويعمل على البيدر، وينقل المحاصيل من البيدر إلى البيت،

ويعصر الزيتون في المعصرة، وينقل الزيت ويضعه في الخوابي. كما أنه يبني ويقطع الحجارة من أجل البناء. أما المرأة، فإن عليها أن تقوم بجميع الأعمال المنزلية، ولاسيما الطبخ والغسيل والتنظيف. كما يجب عليها أن تشتغل في الحقول، فتقوم بالتعشيب خلال آذار ونيسان. والتعشيب هو اقتلاع النباتات الضارة من بين المزروعات، ولا سيما من حقول الحنطة. أما في حزيران فتعمل المرأة غمّارة، أي تجمع أغمار (أكوام) القمح وتجعل منها أكداساً قابلة للنقل إلى البيدر (ونحن نسمي هذا الفعل باسم الرجاد) كما أنها تجني محاصيل الخضراوات والأشجار، وخاصة الزيتون. وتعتني بالدجاج وبيضه أيضاً. وهي تحلب الأبقار والأغنام والماعز. كما أنها تخض اللبن في القربة لتحصل على الزبدة، ثم تحيل ما تحصل عليه إلى سمن، وذلك لأن الزبدة عادة تتلف بالحر، أما السمن فمن شأنه أن يقاوم الحرارة والزمن. فهن يضعن اللبن في قربة، ويربطن بابها بخيط، ثم يعلقنها بشجرة أحياناً، أو بسقف أحياناً أُخرى، وذلك بعد ربطها بحبل من الجهتين. وبعد ذلك يحركنها إلى الأمام والى الخلف، فتأخذ الذرات الدهنية بالتكتل والانفصال عن بقية اللبن الخاثر. وعندئذ تمد المرأة يدها إلى داخل القربة وتتناول كتلة الزبدة وتستخرجها إلى الخارج. وما يتبقى من اللبن نسميه الشنينة. وهي مادة طيبة نشربها كالماء.

أما الأطفال والشيوخ فيعاونون النساء في معظم أعمالهن، لأنهم عاجزون عن تحمل مشقة الأعمال الكبرى، ولا سيما الحراثة والحصاد، وهي التي لا يملك أن ينهض بها إلا الشبان. ولكن الأطفال الذين بلغوا الثامنة أو التاسعة، من شأنهم أن يدرسوا الحنطة بالنورج على البيدر.

* * *

ولعل مما له بعض الأهمية أن أذكر من الأخبار ذات الصلة بالكتاب أو بالثقافة في لوبيا خلال السنوات العشرين السابقة على سنة النكبة. فقد كان هنالك عدد من المتعلمين في قريتنا، ومنهم من تخرّج من الأزهر في القاهرة، كما أن

منهم من كان يعمل في سلك التعليم. ومن المؤكد أن القرآن الكريم موجود في عدد كبير من البيوت. كما كانت الروايات التي تسمى السير الشعبية تقرأ كل ليلة في المضافات التي هي من الوفرة بحيث تشكل ظاهرة من ظواهر الحياة. أما أهم السير المتداولة فهي سيرة عنتر وسيرة الزير سالم، وريادة بني هلال، وتغريبة بني هلال أيضاً. وكانت لكل من أبي زيد الهلالي وذياب بن غانم شعبية كبيرة، فضلاً عن شعبية الزير وعنتر. فقد كانت هذه الشخصيات الأربع نماذج للرجولة أو للشجاعة. واشتهر أبو زيد بأنه محنك ذو رأي وتدبير، بالإضافة إلى كونه باسلاً صنديداً وشديد القدرة على النزال، حتى لكأنه مثال الرجولة في نظر الفلاح.

وهنالك من أخبرني بأنه يعرف مجموعة من الرجال في لوبيا كانت تجتمع باستمرار لقراءة ديوان المتنبي، و (البيان والتبيين) للجاحظ، و(ألف ليلة وليلة)، وبعض الكتب التراثية الأخرى. وإنني أعرف رجلاً اسمه محمود خليل الصمادي، وهو إنسان فاضل كريم، كان يملك مكتبة في تلك الأيام ولا زال الرجل يعيش في مخيم اليرموك، ولديه اليوم مكتبة ضخمة غنية بالكتب التراثية، وقد استفدت منها كثيراً طوال السنوات الأربعين الأخيرة.

يا إلهي! ما أمتع هذه الدنيا لو أنها خلو ممن يصنعون الشرور، وممن يمارسون العدوان. وحبذا لو كان مبدأ الإخاء أكثر انتشاراً فيها من مبدأ العداء. وليت البشر يتمسكون على الدوام بالمبدأ الذي يصون إنسانية الإنسان.

الفصل الثالث

السنة السوداء

حين انهيت السنة التاسعة من سنوات عمري، أصدرت الأمم المتحدة قراراً من شأنه أن يشطر فلسطين إلى شطرين، واحد للعرب وآخر لليهود، وذلك في التاسع والعشرين من تشرين الثاني سنة 1947. والغريب أن العرب رفضوا القرار في الظاهر وقبلوه في الباطن، وأما اليهود ففعلوا النقيض تماماً. ولفت انتباهي أن الناس مضطربون على نحو لم أألفه من قبل، كما أذكر أنني رأيت الجريدة لأول مرة، إذ كانت في يد رجل عجوز يجلس أمام دكان على كرسي ويقرؤها. وراح الناس يتجمهرون في الشارع حول مذياع يملكه زوج عمتي فاطمة، وهو من يعمل في الشرطة برتبة رقيب.

ومما أذكره كذلك أنني ذهبت مع خالي محمود، الذي يكبرني بثلاث سنوات، إلى الكروم الواقعة في ظاهر بلدتنا من الجهة الشرقية، وذلك ابتغاء الحصول على بقايا التين والعنب، في اوائل كانون الأول. فالتقينا بالصدفة بفتاة بدويه اسمها حمدة كانت تجمع الحطب في البراري. ونحن نعرف حمدة هذه، إذ كان أهلها يأتون في بعض السنين وينصبون خيمتهم على بيدر جدي علي بين الخريف والربيع. والفتاة من جيل خالي محمود، أي إن عمرها اثنتا عشر سنة يومئذ. ولقد توفيت أُمها وهي صغيرة فتزوج والدها فتاة وسيمة رشيقة اسمها صبحة. وكانت هذه الأخيرة صديقة لأمي، وقد ظلت صديقة لها حتى توفيت في مخيم خان الشيح، خلال الثمانينيات دون أن تنجب أطفالاً قط.

وسألتنا الأعرابية عن حال الناس في لوبيا، فقلنا لها إنهم ميالون إلى الحرب ومتحمسون للقتال، ولا همّ لهم إلا السلاح وكيفية الحصول عليه. وتحدثنا طويلاً في ذلك الموضوع الذي كان حديث الناس جميعاً. ومما أذكره قول خالي محمود بأنه يجب أن يعيش، لا لأنه يخاف الموت، بل لكي يعرف من سوف ينتصر في تلك الحرب الوشيكة النشوب. أما البدوية فقالت بأن عدداً كبيراً من أحسن الشبان سوف يقتلون في سبيل فلسطين. وفي الحق أن ما قالته تلك الفتاة قد حدث بالفعل.

كانت المدارس قد فتحت أبوابها قبل تلك البرهة بثلاثة أشهر. وكنت في الصف الثالث يوم صدر القرار المشؤوم الذي مهر الجريمة بخاتم الأمم المتحدة. وبعد افتتاح المدارس بقليل، وبينما كنا نحن التلاميذ قبالة باب المدرسة ننتظر الجرس الذي يدق زهاء الساعة الثانية بعد الظهر، ما عدا يوم الخميس، فقد مرت من ذلك المكان مجموعة من الشبان اليهود الذين اخترقوا بلدتنا من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها كنوع من التحدي للعرب، أو ربما كمحاولة لسبر نوايا الناس. كانوا يسيرون في صفين متوازيين وكان عددهم لا يقل عن مئة، نصفهم ذكور ونصفهم الآخر اناث. أما أعمارهم ففي العشرين أو نحو ذلك. وكل منهم يلبس بنطالاً قصيراً لا يغطي الركبتين. ولا فرق بين ذكر وأنثى.

حين بلغوا إلى مكان تجمعنا، كان هنالك ما يزيد عن مئة تلميذ، ليس فيهم قط من هو في سن البلوغ. وخيّم علينا صمت ذاهل. وفجأة تناول أحد الأولاد حجراً من الأرض ورمى به اليهودي الذي أمامه. وعند ذاك أخذ كل منا حجراً وقذف به يهودياً قريباً منه. وحينئذ هرعوا جميعاً صوب المدّان، ومنه إلى سهل الحمى حيث كانت لهم مستعمرتان على الأقل. أما نحن فقد طاردناهم حتى ابتعدوا عن البلدة كثيراً.

كنا نحتقر اليهود بسبب جبنهم واباحيتهم وفراغهم الروحي وتنصلهم من الدين. واعتدنا أن نسميهم (أبناء الميتة)، وحتى بعدما أحرزوا انتصاراتهم الخلب، أو المزورة، في تلك السنة السوداء، فقد ظللنا على موقفنا نفسه، لاعتقادنا الجازم بأن تلك الانتصارات الزائفة، انما جلبتها لهم مؤامرة لا يعرف التاريخ لها مثيلاً قط. وهم يجهلون الأخلاق الإنسانية، إذ إن مما هو لافت لانتباه المهتم بالمعضلة الفلسطينية أنهم مولعون أيما ولع بدماء الأطفال والنساء. ولا بد لهذه الظاهرة من أن تكون ذات دلالة نفسية عميقة. وربما كانت دلالتها أنهم يكابدون عقدة ضعف، أو مركب شعور بالدونية، وربما دلت على أنهم يكرهون الحياة، أو

وجود الآخر، على الأقل، ولهذا يبتغون إبادة الينابيع التي ينبع منها الوجود البشري. وما تلك الينابيع سوى النساء والأطفال.

ويوم طاردناهم بالحجارة حتى خرجوا من قريتنا وهم يولون الأدبار راكضين، فهمت لماذا كنا نسميهم أبناء الميتة. فهم جبناء، وبحاجة إلى استنفار جميع الأمم القوية والضعيفة ابتغاء تأسيس دويلة أو غيتو، على شطر صغير من الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وليس في التاريخ البشري كله غزو شبيه بذلك الغزو الذي تم تحت حماية الغرب والشرق على السواء. ولأنني قانع بأنهم لا يصلحون للقتال، فأنا واثق من أن بضعة آلاف من المقاتلين كفيلون بإزالة ذلك الغيتو من الوجود إلى الأبد. وعندي أن أحسن شعار هو شعار كتوزف، القائد الروسي الذي هزم نابليون (الزمن والصبر، الصبر والزمن).

وفي بداية ذلك الشتاء، سمعت الناس يقولون بأن الجيوش العربية السبعة سوف تأتي لتقضي على اليهود قضاء مبرماً، ما دام حماتهم الانجليز سوف ينسحبون من فلسطين بعد شهور قليلة. لكم أتمنى لو أنه لم تكن هنالك جيوش عربية بتاتاً. فلا ريب في أن الحكومات العربية يومئذ قد مارست علينا خداعاً لصالح الصهاينة الذين أرادوا منا أن نطلق النار عليهم كي يجدوا ذريعة كافية لطردنا من ديارنا، بعد أن يعتدوا علينا متذرعين بأنهم يدافعون عن أنفسهم. وبسبب الخداع الذي مارسته علينا الحكومات المتآمرة، أطلقنا النار على الصهاينة، فوقعنا في الفخ الذي نصبه لنا أعداؤنا أنفسهم، فكانت النتيجة أن طردونا من ديارنا وبني الغيتو الصهيوني على أرضنا التي لم نتمكن من حمايتها بسبب تفوق العدو في السلاح. وعندي أن تلك الجريمة لابد لها من عقاب ولو بعد ألف سنة، إذ من طبع الأشياء أنه ما من سلام حقيقي بعد جريمة كهذه. نعم، إن السلام بعد النكبة لا يزيد عن كونه (هدنة على دخن).

شاهدت الناس يتسلحون بعد القرار المشؤوم بأيام قليلة. وكان السلاح غالياً جداً، فقد اشترى أبي بندقية المانية بمائة جنيه فلسطيني. وكان هذا المبلغ

يومئذ مهراً لفتاة متميزة في بلدتنا. أما الطلقة الواحدة فكان ثمنها عشرة قروش، أي أن كل عشرة طلقات بجنيه. ومع ذلك فقد تجمع في لوبيا زهاء مائتي قطعة سلاح في نهاية الربيع، ولكن معظمها ليس على ما يرام.

وأهم ما في الأمر أن الناس كانوا متحمسين للحرب على نحو عارم، وأنهم في حالة تفاؤل وثقة بالنصر الذي سوف تحرزه الجيوش العربية الآتية من وراء الحدود عما قريب. ولكن بعض الناس كانوا ميالين إلى الابتعاد عن السلاح، وكذلك إلى التفاهم مع اليهود ومعايشتهم بسلام. بيد أن هؤلاء المسالمين قلة ضئيلة، وأصواتهم المهموسة ليست مسموعة إلا على نطاق محدود. وفي الحق أن الذين راحوا يشككون بصدق نوايا الحكومات العربية قد كان لهم وجود فعلي. وهنالك من أكد أن الانجليز، الذين سوف ينسحبون من فلسطين، باقون في الأردن والعراق ومصر، فإذا ما تعرض الصهاينة للهزيمة تدخل اولئك الملتزمون بوعد بلفور على جناح السرعة. هذا فضلاً عن أنهم سوف لن يسمحوا للحكومات العربية بإرسال الكمية الكافية من الجنود إلى فلسطين ابتغاء انقاذها من براثن الصهاينة.

ولقد عرفت هذا كله من الرجال الذين يترددون على بيت جدي علي في المدّان، وهم كثر، إذ حول القهوة السادة التي يصنعها يومياً، كان يتجمع بعض الرجال من ذوي الأعمار المتباينة. والحقيقة أن بعضهم أذكياء، فاستطاعوا أن يستوعبوا خريطة الواقع السياسي بالكثير من السداد. إن الحكومات العربية يومئذ لا تعدو كونها أدوات في أيدي الانجليز الذين سوف يشكمون تلك الحكومات إذا ما حاولت أن تفعل أيما فعل ذي بال.

وراح شاب اسمه مصطفى، وهو ابن حسن الآنف الذكر، يحاول أن يقنع أبناء حمولته برمي السلاح والجنوح نحو الهدوء. فلقد كان على دراية ببعض الخفايا، وذلك لأن له محلاً تجارياً في طبريا، يشاركه فيه بعض اليهود. ويبدو أن اولئك الشركاء مطلون على أسرار السياسة. فأكدوا له بأن الدويلة اليهودية قد

صارت ناجزة بالفعل، أي قبل جلاء الانجليز عن فلسطين. ومما يؤكد صحة هذا القول إن دبابات الهغناه (وهذه كلمة كنعانية معناها الدفاع) قد شاهدتها أنا بأم عيني في بلدتنا على طريق طبريا_الناصرة، وذلك في شهر كانون الثاني سنة1948. وهذا يعني أن الإنجليز قد أعدوا كل شيء لتدميرنا وتحويلنا إلى لاجئين قبل خروجهم من بلادنا بسنوات. لهذا، أرجو ألا أموت إلا بعدما أرى بلادهم خراباً بلقعاً لا تتنفس فيه أية حياة مهما يك نوعها.

ولكن أقرباء مصطفى الذين انطلت عليهم خدعة الإذاعات العربية، كما انطلت على معظم الفلسطينيين، رفضوا رأيه وأصروا على التسلح والقتال. فما كان منه إلا أن توقع لهم مصيراً محتوماً خلاصته التشرد تحت كل سماء. وحذرهم الرجل من تصديق ملوك العرب الذين ليس لهم من الملك شيء، لأنهم ليسوا سوى دمى في أيدي الانجليز. والفلسطينيون يومئذ يعتقدون بأن الانجليز لم يكونوا سوى خدم طيعين يعملون في خدمة اليهود ويتأرنبون أمامهم ويذلون كما تذل النمال.

وأية مفارقة هي هذه؟ وما الذي يجري في هذا العالم الآخذ بالتدهور والاتضاع؟ وكيف تم تدجين اوروبا وبقية الأرض على أيدي اولئك الظلاميين المدججين بكومة من الخرافات الباهتة وحسب؟

وفي مطالع السبعينيات حدثني واحد من وجهاء قضاء طبريا، أن وفداً من أكابر أهل الجليل قد سافر إلى عمان، وهو معهم، وذلك في شهر آذار من عام النكبة، ليتشاور مع العاهل الأردني في الأمر المعضل، وليعرف ما الذي يجب على الناس أن يفعلوه في هذا الظرف العصيب. والتقى الوفد بالملك، فحذرهم من مغبة التسلح، وأكد لهم أن الصهاينة يريدون الأرض خالية من السكان، وأن الانجليز يدعمون الصهاينة ولا يتجاسرون على أن يرفضوا لهم طلباً. وأضاف بأن السلاح سوف يكون ذريعة يتذرع بها العدو لطرد الناس من ديارهم والاستيلاء على أرضهم. كما صارحهم بأنه ليس سوى موظف عند الانجليز،

وأقسم لهم بأغلظ الأيمان على أنه سوف لن يجد قوت يومه إذا ما طرده الانجليز من عمله.

وعاد الوفد إلى الجليل، وأبلغ الناس بما سمع من الملك، ولكن الناس في بلدتنا لم يتقبلوا مبدأ السكينة، بل ثابروا على شراء السلاح، أملاً منهم بأن الجيوش العربية آتية حتماً، وبأنها سوف تصنع المعجزات.

ومما يجب عليّ أن أثبّته في هذا المقام، وذلك لوجه الحق الخالص، أنني سمعت رجالاً يقولون بأن الفلسطينيين سوف يطردون من ديارهم، ولا محيد لهم عن التشرد في الأرض، سواء تسلحوا أو لم يتسلحوا، وذلك لأن الصهاينة يريدون البلاد خالية من أهلها، فهم يزمعون تهيئتها لاستقبال الوافدين اليهود الذين سوف يتدفقون عليها من جميع أرجاء الدنيا. وأضاف اولئك القادرون على الحضور أن الجيوش العربية لا تملك أن تفعل أيما فعل ذي بال، وذلك لأنها من مقتنيات الإنجليز الذين هم بعض من مقتنيات اليهود، والذين أقاموا دويلة الصهاينة قبل رحيلهم عن فلسطين، وانتهى الأمر. وأكد اولئك الأذكياء، ولا سيما بعدما وصلت أخبار المجازر من جميع الجهات في آذار ونيسان، بأن الفلسطينيين لا يملكون أن يناضلوا عن ديارهم لأن الصهاينة سوف يحصلون من الغربيين على أسلحة لا تبلغ أسلحتنا عشر مقدارها. فنحن، على فقرنا، نشتري السلاح الثمين بالمال، أما هم فينالونه بالمجان وغبّ الطلب. ولو أنهم طلبوا لبن العصفور لأتاهم على طبق من ذهب.

وهذا يعني أن الفاجعة قد باتت حتمية تاريخية، أو هي قدر علمي لا محيد عنه ولا خلاص منه بتاتاً. إن ثمة ذكاء فطرياً خاصاً يتوقد ويتوهج حتى لو لم يشحذه التعليم، بل ربما جاز للمرء أن يزعم بأن هنالك أناساً مزودين بغريزة الحقيقة، أو بتلك البوصلة السرية التي تهديهم إلى صلب الحق على نحو تلقائي، ودون أن تمسسهم أيدي التوجيه والتلقين. فالإنسان يدخر في سريرته قوى خفية قد تتجلى على هيئة بدوات وحدوس ومفاجئات. ومما هو جد مقبول أن الأزمات

لها استطاعة خاصة على تفجير تلك الطاقات المكنونة بصمت في الراقة السفلى من راقات النفس. ولا مرية في أن التحدي له قدرة كبيرة على استنفار الذهن البشري وتفعيله.

نعم، كان الصهاينة سوف يطردوننا من ديارنا حتى لو تحولنا إلى يهود أو نصارى، ولا نجاة لنا من المجازر إلا في الخروج إلى البلدان المجاورة، أي إلا إذا تركنا أرضنا نهباً لخساستهم ولؤمهم المتطرف. وذلكم هو الفاجع بالضبط. ولكن الصهاينة مصابون بالعمى، فهم لم يدركوا أنهم سوف يتعرضون للجزاء المكافئ ولو بعد ألف سنة. ويسعك القول بأن الغيتو الصهيوني هو، منذ نشأته وابتداء أمره، المكان الوحيد الذي لا ينعم فيه اليهود بالأمن أو السلام. وهذا يعني أنهم قد تعرضوا لمستوى ما من مستويات العقاب حتى وهم في فورة عنفوانهم.

ولعل أهم ما في الأمر أن حجم اللاعقل، بل الجنون، الرابض في جوف الشخصية اليهودية أكبر بكثير مما يتخيل اليهود. وعندي أن كل ما فعله الغيتو الصهيوني منذ ولادته حتى اليوم، هو برهان حاسم على أن التاريخ البشري ينبثق من اللاعقلانية أكثر مما ينبثق من العقلانية. ولا تتبدى هذه اللاعقلانية في شيء قدر ما تتبدى في حقيقة مؤداها أن هنالك أموراً كثيرة قد وضعت إمكانياتها كافة في خدمة الصهيونية. وتلكم، لعمر الله، أغرب أعجوبة عرفها الزمان.

* * *

ولقد أكد هذا التفكير السديد الذي أيدته الوقائع أن الذهن البشري قوة تعمل على نحو جيد في كل مكان وزمان. ولكن هذه السمة الأصلية وقف على الألباء من دون الناس، سواء أكانوا متعلمين أو أميين. فما كانت الحقيقة في أي يوم من الأيام إلا نصيب أناس النخبة الذهنية وحدهم. ولكم أصاب الصوفيون حين تحدثوا عن المحجوبين الذين لا نصيب لهم من الحقائق العميقة، وذلك على خلاف أهل الألمعية القادرين على أن يروا بالبصيرة ما لا يرى بالبصر.

والغريب أن جيش الإنقاذ أخذ يعبر الحدود قادماً من لبنان وسوريا والأردن، وذلك ابتداءً من شهر كانون الثاني، بينما تربض قوى الإنجليز بكامل ثقلها على أرضنا التي أعدوها للافتراس، إذ كانوا ينشرون فيها سبعين ألفا من جنودهم. فكيف سمحوا لجيش الإنقاذ بعبور الحدود ابتغاء شن الحرب على اليهود الذين كانوا بحماية الإنجليز؟

وفي أوائل نيسان من ذلك العام وصلت مفرزة صغيرة من جيش الإنقاذ الى بلدتنا، وخيمت بالقرب منها وأخذت تمارس الحراسة الليلية حول القرية بالاشتراك مع المسلحين المحليين، ولكن تلك المفرزة لم تشتبك مع العدو في أي قتال، مهما يك نوعه.

* * *

وتسارعت الأحداث في ذلك الشتاء. ففي شهر شباط من عام النكبة مرَّ باص لليهود على طريق طبريا الناصرة، وكنا في المدرسة يومئذ، والوقت ضحى. وسمعنا صوت الرصاص يدوّي في الجو، فما كان من المعلمين إلا أن أخرجونا من الصفوف لنذهب إلى بيوتنا. وأغلقت المدرسة أبوابها ولم تفتح بعد ذلك قط. كان أبي لا يزال في حيفا خلال ذلك الشهر ولا يأتي إلا ليوم واحد في الأسبوع. وكان خالي محمد، وهو أكبر أخوالي، غائباً عن البلدة لسبب لا أذكره. أما بندقيته الانجليزية فمعلقة على جدار غرفته من الداخل. فما كان من جدي علي، وهو العجوز السبعيني إلا أن حمل البندقية وخرج إلى مكان الصدام. أما باص اليهود فمحاصر قرب آبار الخان وجسر وادي الشومر إلى الشمال الشرقي من لوبيا على طريق طبريا. ولكن جدي حين وصل إلى الصافح لاقاه ابن خالته، وهو رجل في الخمسين من سنوات عمره، واسمه دواس. فقال له الأخير: إنني أصغر منك سناً، يا بن خالتي، فهات البندقية والذخيرة، ودعني أذهب إلى المعركة بدلاً منك. واستجاب له جدي، فاتجه دواس صوب مكان الصدام، واشترك مع المسلحين في إطلاق النار. وفي تلك البرهة أصيب برصاصة أودت

بحياته. أما بندقية خالي فأعيدت إلى مكانها، ولكن بعدما أصابها عطب صغير في عقبها الخشبي. كما أستشهد مع دواس رجل آخر من بلدتنا، وهو أكبر منه سناً. ولكنني أجهل مصير الباص، أو لا أذكره بتاتاً.

وفي ذلك الشهر نفسه ذهبت إلى مدينة حيفا. فقد كان جارنا حسين عبد الرحمن شرطياً في تلك المدينة. فطلبت اليه زوجته أن يأخذني معه لأعود في اليوم نفسه بعدما أجلب نصف كيلو من الشاي، أما هو فيلتحق بعمله إثر انتهاء عطلته الاسبوعية. ووافقت أمي على ذلك، كما رغبت في شراء بعض الشاي هي الأخرى. فذهبت مع جارنا، وسافر بنا الباص على طريق يمر من بلدة اللجون التي كان الكنعانيون يسمونها مجدو. وسبب ذلك أن طريق الناصرة_حيفا، الذي هو الطريق المألوف، كان الصهاينة يقطعونه عند نقطة ما. والجدير بالتنويه أن كلمة (اللجون) تحريف لكلمة لاتينية هي (لجيون) التي تعني الفيلق أو اللواء.

وحين وصلنا إلى المدينة التي يحتضنها جبل الكرمل، سمعنا أزيز الرصاص يملأ الجو. وكانت هنالك بقالية إلى جوار الكراج الذي توقف فيه الباص، فدخلنا اليها واستقبلنا صاحبها بالترحيب، لأنه صديق لجارنا. وسأله هذا الأخير عن الوضع فأجاب بأن صداماً جرى بين العرب والصهانية وأدى الى مقتل رجلين من العرب وأن الصدام مازال مستمراً حتى تلك البرهة ولكن مكانه بعيد. وسأله جارنا عما إذا كان لديه شيء من الشاي، فأجاب بالنفي وعند ذاك أعادني عمي حسين إلى الكراج ووضعني في باص ذاهب إلى طبريا، ودفع أجرة الركوب، وأوصى السائق بأن ينزلني في لوبيا. فعدت إلى البيت قبل غروب الشمس ولكن بخفي حنين. وكنت مشتاقاً لرؤية البحر في حيفا، بيد أن هذا المطلب العزيز لم يكن ميسوراً في ذلك الظرف العصيب.

أما في آذار فقد نهض الصهاينة من مستعمرة الشجرة اليهودية على نحو مباغت، أو غير مألوف ممن كنا نسميهم أبناء الميتة، وهجموا على قرية الشجرة العربية، وطردوا سكانها منها. ولم يستطع المسلحون من أهل لوبيا الذين تعاونوا

مع أهل الشجرة أن ينقذوها من براثنهم، وذلك لأنهم حشدوا عدداً كبيراً من الجنود ذوي التسليح المتفوق على تسليحنا. وأسفر ذلك الصدام عن استشهاد رجل واحد من أهل بلدتنا.

ولكن لوبيا ردت على ذلك العدوان بأن جلبت مواشيها إلى حقول المستوطنة اليهودية، فراحت تلك المواشي تأكل الزرع جهرة وفي وضح النهار. ورأيت ذلك بأم عيني يوم ذهبت بصحبة بعض الأقرباء الذين أخذوا مواشيهم إلى ذلك المكان. والغريب أن الصهاينة لم يطلقوا النار على الناس ولا على المواشي، مع أننا كنا ضمن المدى المجدي لنيرانهم.

أما الشيء الذي لم يكن في الحسبان بتاتاً فهو أن العدو له في الجليل طائرة واحدة فقط. ثم إنها قديمة وفاعليتها محدودة جداً. ومع ذلك فقد راحت تقصف لوبيا كل ليلة منذ أواسط آذار وحتى أواسط أيار. واستطاعت أن تقتل أربعة رجال وامرأة في بلدتنا، كما خلقت حالة من الذعر في نفوس الناس لم يألفوها من قبل. ومع ذلك، فإن الأهالي تحملوا خطرها بكثير من الصلابة والشجاعة.

ومن حسن الحظ أن طائرتهم الوحيدة تلك هرمة أو بالية، ولولا ذلك لصارت أعالي بيوتنا سفلاً وصار سفلها يعلو، ونحن تحت أنقاضها طعمة للديدان. فكثيراً ما ارتكب الصهاينة المجازر بالطيران، وأخص بالذكر مجزرة بحر البقرة، فبرهنوا على كونهم مولعين بدماء الأطفال أيما ولع. وبحث الناس عن مخرج ينجيهم من شر تلك الطائرة فوجدوه عندما اكتشفوا عدداً كبيراً من الكهوف يكفي لإيواء جميع سكان القرية. (وهذه الكهوف برهان حسي على أن بلدتنا مأهولة بالسكان منذ الطور الحجري.) فصرنا كل ليلة نحمل فراشاً خفيفاً ونذهب إلى تلك الكهوف التي كانت وقفاً على النساء والأطفال وحدهم. واكتشف أحد جيراننا في حارة الجرينة مغارة في باحة بيته لها من السعة ما يكفي لاستيعاء عشرات الأفراد. فصرنا كل ليلة نذهب اليها لننام فيها.

ثم إن تلك الطائرة لم تكن تأتي في النهار، لأن المسلحين كانوا قادرين على إصابتها بالرصاص إذا ما ظهرت في نور الشمس. كما أنها لم تكن تأتي إلا مرة واحدة كل ليلة لأن ذخيرتها ليست متوفرة بكثرة. حقاً لم يكن الصهاينة مسلحين في ذلك الربيع الدامي. وهذه حقيقة تؤكدها كتبهم المخصصة للحديث عن ذلك العام الكالح، ولو كان العرب مخلصين لقضوا عليهم قبل أن يتسلحوا ويستفحل خطرهم.

واختفت تلك الطائرة ابتداء من اواسط أيار. وخمّن الناس أنها أصيبت بعطل آلي فلم تعد تصلح للطيران. ولكن العدو سوف يكون له طيران حربي جيد ابتداء من شهر أيلول. وهذا يعني أن العرب منحوا اليهود فرصة كافية لتسليح جيشهم بأحدث الأسلحة. ولا ريب عندي في أن حكوماتهم كانت تنفذ الأوامر يومئذ، وإلا فلماذا أمهلوا الأعداء ريثما تسلحوا وصاروا ذوي قدرة شديدة على الضرب؟

* * *

وكما أسلفت، وصلت مفرزة من جيش الإنقاذ إلى لوبيا في شهر نيسان، وخيمت بجوارها، وراحت تطالب الناس بالطعام، فأخذ الفلاحون يهبونها الطعام الذي يضنون به على أطفالهم، ولا سيما الدجاج والبيض والحليب والخراف. ولهذا، صار الناس يتمنون أن ترحل تلك المفرزة وتريح القرية من أعبائها. هذا فضلاً عن أنها لم تقاتل بتاتاً.

ولحسن الحظ تحرك اولئك الجنود في أيار صوب الشمال وخيموا إلى الجنوب من عيلبون، أو في مكان قريب من مرج الذهب، بين طرعان وعيلبون، حيث صنع جيش الانقاذ معسكراً كبيراً ظل قائماً حتى شهر أيلول، يوم انسحب ذلك الجيش إلى قرية مغار حزور، وذلك لإخلاء السبيل أمام العدو الذي احتل عيلبون فوراً.

وبعد انسحابهم من لوبيا، سمعت بعض الأذكياء أو من لهم فطنة وقدرة على الحضور، واولئك هم الألمعيون الذين يرون ما لا يرى بالعين، سمعتهم يقولون بأن العرب قد أفرغوا خط طبريا_الناصرة من القوات لكي يتمكن العدو من احتلاله بسهولة. والذي شجع أهل الألمعية على القول بهذه الفكرة أن مدينة صفد قد احتلها العدو يومئذ، مع أن نسبة اليهود فيها وفي قضائها هي نسبة طفيفة جداً. ففي ميسورك أن تجزم بأن كل قطعة أرض احتلها العدو، أو كل مدينة وكل بلدة، كانت تُفرغ أولاً من القوات الرسمية ثم يدخلها الصهاينة دون قتال بتاتاً، أو دون قتال جدي خطير. وإن مصير المثلث هو خير مثال على هذه الحقيقة. فقد كان الغيتو ضيقاً عند حيفا، إذ كانت الضفة الفلسطينية تمتد حتى مكان قريب من تلك المدينة، أومن البحر فطلب الصهاينة من الملك الأردني أن يوسع لهم (أرض أجدادهم) فأعطاهم المثلث الذي يضم ستين قرية تقع إلى الغرب من طولكرم، والذي كان يهيمن عليه الجيش العراقي ويتحداهم أن يقتربوا من ذلك المكان، ولكن الصهاينة احتلوه بعد إفراغه من ذلك الجيش القوي الذي فتك بهم في جنين.

لقد احتل اليهود مدينة طبريا وجيش الانقاذ هادىء هدوء البقر، مع أنه كان قادراً على تدميرها بمدافعه الممتازة التي سلح بها الانجليز العرب للتصدي للألمان إذا وصلوا إلى منطقتنا، بينما لم يكن لدى الصهاينة في الجليل كله مدفع واحد كبير طوال المدة التي سبقت الهدنة الأولى في حزيران.

وأذكر أنه قد جاء خبر مفاده أن معركة حامية كانت تجري في صفد خلال أواسط أيار، وأن العرب هنالك يحتاجون إلى نجدة. وشاهدت باصين اثنين يقفان عند المطحنة الآلية في شمال قريتنا. واكتظ الباصان بالمسلحين الذين كان أبي بينهم. وحين همّ الباصان بالانطلاق صوب صفد وصل خبر مفاده أن تلك المدينة صارت كلها تحت هيمنة العدو. وأكد شهود عيان أن جيش الانقاذ انسحب من صفد تماماً حينما أخذ اليهود ينزحون عنها.

وفي ذلك الشهر نفسه سقطت عكا بأيدي اليهود، ولكن بعد ما اصطدموا برجل واحد اسمه صالح الدوخي، وهو من قاتل على أسوارها وحده حتى استشهد. وكان يطلق النار على العدو من عدة جهات كي يوهمهم بأن الأسوار مكتظة بالرجال. ولكن الصهاينة تمكنوا من قتل الدوخي ومن الدخول إلى عكا. وليتخيل المرء أن تلك المدينة التي صدت نابليون عن أسوارها لم تستطع أن تصد حفنة من الأفاقين يسمون الصهاينة. فيا للمهزلة!

ومن المؤكد أن وفداً من أهل عكا توجه إلى بنت جبيل في جنوب لبنان حيث قابل فوزي القاوقجي، قائد جيش الإنقاذ، ورجاه أن يرسل حامية إلى عكا التي كان جميع سكانها المقيمين داخل السور من الفلسطينيين. ولكنهم لم يحصلوا على طائل. ورجع الوفد إليه مرة أخرى وعاد إلى المدينة، دون أية جدوى. وبعد مقابلات كثيرة وإلحاح من جانب الوفد، أرسل جيش الإنقاذ خمسين جندياً دخلوا إلى المدينة، وناموا فيها ليلة واحدة، ولكنهم انسحبوا في الصباح وعادوا إلى بنت جبيل. وهكذا حل البذاء محل الحياء، وصارت السياسة صنفاً من أصناف الخداع والتدليس والخبث والمكر. وبسقوط طبريا وعكا وصفد لم يبق للعرب من مدن الجليل سوى الناصرة التي كانت نظيفة من اليهود أصلاً.

وعلى الرغم من جميع تلك الوقائع المحبطة، فقد ظل الناس يؤملون خيراً وينتظرون وصول الجيوش العربية التي سوف تسترد جميع المدن والقرى التي احتلها العدو كما أنها سوف تخلّص البلاد والعباد من شرور اليهود. ولكن المؤامرة صارت شديدة النصوع أمام بصيرة الألمعيين. ولهذا، فإن كثيراً من الناس قد أخذوا يرفعون أصواتهم ويدينون الحكومات العربية علناً. إنها الأقلية الحساسة النفيسة التي تتمتع بحس الاتجاه السديد وبرؤية الأحداث قبل حدوثها، والتي يضيع صوتها في الضجيج أثناء الأزمات. ولقد جاءت الوقائع لتبرهن على صحة أفكار تلك الأقلية الحساسة الهادئة العميقة الموهوبة بهبة الرؤيا الصادقة الصافية.

ومن البراهين الحاسمة أن جامعة الدول العربية أرسلت بعض الذخيرة إلى بلدتنا، وربما إلى سواها من المدن والقرى في فلسطين. ولدى الممارسة العملية ثبت أن تلك الذخيرة فاسدة ولا تصلح للاستعمال. ومن هذه الحقيقة التجريبية أدرك بعض الناس أن ثمة مؤامرة مؤكدة على الشعب الفلسطيني وعلى أرضه ومصيره.

يقيناً إن الرسميين العرب قد خدعونا لصالح عدونا وهم يعلمون ما يصنعون. قالوا لنا بواسطة الاذاعات اصمدوا ريثما ينسحب الانجليز في أيار، فتصل الجيوش العربية وتخلصكم من عدوكم. وصمدنا، وجاءت تلك الجيوش التي كانت شديدة القدرة على إبادة العدو، ولكن الذي فعلته هو أنها سلمت فلسطين لليهود بنذالة لا يعرف التاريخ لها مثيلاً.

* * *

وقبل أن يحتل العدو مدينة طبريا، ارتكب مجزرة مروعة في قرية ناصر الدين المجاورة لتلك المدينة، والتي تقع إلى الشرق من لوبيا وعلى مسافة عشرة كيلو مترات تقريباً. فقد جاءها الصهاينة في رأد الضحى وهم يلبسون الملابس العربية، وخاصة الكوفية والعقال. وراحوا يطلقون النار يمنة ويسرة ويقتلون الناس دون تمييز بين الصغار والكبار. وكان واضحاً أن الصهاينة أرادوا المجزرة عمداً، وذلك ابتغاء طرد الناس من ديارهم، مع أن أهل تلك القرية لم يؤذوهم بتاتاً، بل لم يكن لديهم أي سلاح قط. ومع ذلك راحت الصهيونية تزعم بأن الحرب هي التي شردت الفلسطينيين وليس الارهاب التوراتي المتعصب اللئيم. ولكنهم في الحقيقة طردوا الناس من مدن وقرى لم تصلها أية جيوش عربية، ولم تحدث فيها أية حرب، ومثالها طبريا وناصر الدين. وقد حدثت مجزرة ناصر الدين بعد يوم واحد من مجزرة دير ياسين. والسؤال المهم الآن هو هذا: هل يظل السلام الحقيقي ممكناً بعد هذه الجرائم اللاعقلانية، أم هل ستكون هنالك (هدنة على دخن)، كما يقول المثل الجاهلي؟ ولقد وصلت أنباء عن مجزرة بلد الشيخ ومجزرة حواسة

ومجزرة اللجون ومجزرة نحالين. ولعل في الميسور أن تسمي شهر نيسان باسم شهر المجازر. أما أيار فشهد عدة مجازر وأكبرها على الاطلاق مجزرة الطنطورة التي قتل فيها زهاء مائتين وسبعين نسمة.

وفي قرية عين الزيتون القريبة من صفد ارتكب الصهاينة مجزرة مروّعة، إذ كان القتلة في أوج الهمجية، فقد جمعوا الناس في أحد الأماكن وأبقوهم هناك مربوطين بالحبال طوال يومين، بغير طعام ولا شراب، ثم أطلقوا عليهم النار وقتلوهم جميعاً، مع أنهم كانوا بغير سلاح بتاتاً. أما الذين احتموا بالجامع، فقد أحاط بهم المجرمون الصهاينة من الخارج وأحرقوا المكان كله، ومن فر من النار تلقوه برصاصهم الغزير. فبينما راح الصهاينة يوهمون العالم كله بأنهم ضحية لعدوان غاشم تشنه عليهم سبعة جيوش تنتمي إلى النظام الاقطاعي (هكذا)، الأمر الذي دفع إحدى الفئات السياسية في العالم العربي نفسه إلى تبني شعار يتلخص بأن على الاقطاعيين العرب أن يرفعوا أيديهم عن اليهود، في ذلك الحين بالضبط كان الصهاينة يذبحون الشعب الفلسطيني من الوريد إلى الوريد. وهذا هو الخبث نفسه، أو الخبث المفرط في الخساسة، وهو مالا يجيده أحد سوى اليهود.

لقد أتيح لليهود فرصة ممتازة ليثأروا لجميع الإهانات التي وجّهت لهم طوال التاريخ. ولكنهم صبوا جام غضبهم على أناس بلا سلاح، ومعظمهم من النساء والأطفال. وربما حرضهم الانسان الاورو_أمركي على الإجرام. فهذا كائن لا خلاص له من همجيته وميوله العدوانية والارهابية، لأنها قوام دمه وخلاياه. لقد رمى قنبلتين نوويتين على اليابان وهو هادىء تماماً. رماهما بسكينة وكأنه ينفض الرماد عن سيجارته وحسب. وها هو ذا اليوم لا يفرغ من حرب إلا ليدخل في حرب جديدة.

وبينما كان أهل قرية الصبيح البدوية القريبة من لوبيا ينامون ذات ليلة، دهمهم الصهاينة بعدد كبير من الجند، فقتلوا الكثير من الأرواح، بينها طفل

رضيع غرزوا في بطنه حربة مثبته على بندقية رفعوها إلى الأعلى ثم ضربوا الطفل بالأرض. كما بقروا بطن امرأة حامل بحربة وأخرجوا الجنين من الرحم. وهرب البدو لا يلوون على شيء. والصهاينة يزعمون أنهم يدافعون عن أنفسهم حين يفعلون هذه الأفعال الهمجية اللاعقلانية. ويظنون أن هذا كله سوف يمر بسلام، ويجهلون أن الزمن مفتوح وإغلاقه أمر متعذر أو محال.

ولكنني أذكر أن أنباء مبهجة وصلت الينا في الجليل الأدنى من قرية اسمها سلمى (بفتح ففتح) التي ولد فيها الفنان التشكيلي مصطفى الحلاج الذي توفي محترقا في دمشق، وهي شديدة القرب من مدينة يافا، وخلاصتها أن صدامات دامية كانت تدور هناك بين الطرفين، وأن الفلسطينيين متفوقون تماماً على اليهود الذين نملك أن نهزمهم بسهولة لو كان لدينا السلاح الكافي.

ومن الأوقات التي لا أنساها ما حييت ذلك المساء الذي أذيع فيه نبأ استشهاد عبد القادر الحسيني، في الثامن من نيسان، وهو نبأ أذاعته محطة لندن مساءً، فخرج الناس إلى الشوارع، ولا سيما إلى باب المدرسة حيث اعتاد الشبان أن يتجمعوا. وخلاصة الحال أن كل شخص قد خرج ليطلب العزاء من أي شخص آخر. وتبدى الحزن في أصوات الناس الخافتة، إذ لم تكن الوجوه ترى جيداً في الظلام. لقد صار ذلك المساء مأتماً صامتاً حزيناً وعميقاً جداً.

ولكن الفلسطينيين صاروا الشعب الوحيد الذي جعل من الاستشهاد في سبيل الوطن تقليداً اجتماعياً ثابتاً، أو ظاهرة من ظواهر الحياة اليومية. وربما جاءت الأزمنة القادمة لتؤكد صحة اعتقادي بأن الشعب الفلسطيني هو القوة التي عهد إليها التاريخ بأشرف المهمات على الاطلاق، ألا وهي إزالة تلك الطفيليات من الوجود وتخليص البشرية كلها من شرورهم السوداء. ولئن لم يكن الشعب الفلسطيني هو المخلص الذي سوف ينقذ الجنس البشري من جشعهم وهيمنتهم المكتومة، فلا خلاص للبشرية بتاتاً، لأنهم يربون الناس في العالم كله كما يشاؤون.

* * *

وفي السابع عشر من أيار دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين، أي بعد يومين من جلاء الانجليز عنها. وليتها لم تدخل بتاتاً، بل ليتها لم يكن لها وجود قط. وأذكر أن الملك الأردني قد خطب قائلاً: (لا ترويع بعد اليوم، ولن يتكلم إلا المدفع). ولكن تلك الجيوش صنعت مفارقة لا رفع لها، بعد دخولها ببضعة أيام، إذ أعلنت أنها مستعدة لإبرام اتفاقية هدنة مع الصهاينة، وذلك لإعطاء العالم فرصة كافية للوصول إلى حل للمعضلة الفلسطينية. كما تذرعت تلك الجيوش بذريعة خلاصتها أنها تريد أن تكمل تسلحها قبل مباشرة الحرب. ومما هو معلوم جيداً أن ثلاثة من تلك الجيوش، وهي العراقي والأردني والمصري، كان الانجليز قد طوروها منذ الثلاثينيات ابتغاء مواجهة الألمان إذا ما حاولوا الهيمنة على منابع النفط في منطقتنا.

أو يعقل أن تكون الجيوش العربية جاهزة لمحاربة الألمان وغير جاهزة، في الوقت نفسه، للاشتباك مع الصهاينة الذين كان تسليحهم ما زال خفيفاً جداً حتى بداية الهدنة الأولى في الحادي عشر من حزيران؟ فلو هجمت الجيوش العربية بكثافة وحدّة في أيار على المنطقة الممتدة بين حيفا ويافا، والتي لم يكن عرضها يزيد عن بضعة كيلو مترات، لأنهت الغيتو الصهيوني في مدة يومين أو ثلاثة، ولقضت عليه وهو لا يزال جنيناً لم يولد بعد. يقيناً، إن تلك الهدنة نفسها هي برهان حاسم على أنه لم يكن هنالك سوى مؤامرة، وعلى أن الجيوش العربية ما دخلت إلى فلسطين إلا ابتغاء إنجاز الهدفين المذكورين في مقدمة هذا الكتاب.

ولو قاتلت الجيوش العربية بكثافة لأصدر مجلس الأمن، وهو أداة امبريالية لا تخفى على أحد، قراراً بإنزال قوات أوروبية وأمريكية في فلسطين، تماماً كما فعل سنة 1950عشية الهجوم الامبريالي على كوريا. فقرار التقسيم حاجة ملحة للغيتو الصهيوني، إذ جاء بمثابة شهادة ميلاد رسمية أعطيت للكيان

المصطنع. وما كان ثمة أي تقسيم بتاتاً، فالصهيونية تريد فلسطين كلها. وقد نالتها بالفعل كاملة غير منقوصة. وحين رفض العرب الرسميون التقسيم فما فعلوا شيئاً سوى أنهم نفذوا إرادة أسيادهم الغربيين، وذلك ابتغاء إطباق الفخ على الفلسطينيين الذين لا بد من طردهم إلى خارج وطنهم السليب. ومما هو ناصع أن العرب رفضوا التقسيم بالكلام ولكنهم قبلوا به قبولاً فعلياً، أما الصهاينة فوافقوا عليه بالكلام ورفضوه رفضاً عملياً.

لقد كان على الجيوش العربية أن تُخلّي بين الصهاينة وبين الشعب الفلسطيني السيء الحظ، كما كان عليها في الوقت نفسه أن تقوم بمظاهرة عسكرية، وفقاً لما صرّح به أحد كبار الرسميين العرب في مؤتمر بلودان الذي عقد سنة 1947. وراحت الجيوش العربية تساعد الصهاينة علينا، في بعض الأحيان، فكثيراً ما نزعت السلاح من الفلسطينيين أينما شوهد. وهي تتذرع بأن مهمة الدفاع عن فلسطين ملقاة على كاهل الجنود النظاميين. وللتاريخ أقول بأن دور الجيوش العربية في نكبتنا قد كان دوراً سلبياً جداً لا يجوز التغاضي عنه. فما دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين الا لتُهزم، وبذلك ترتفع معنويات اليهود وتنخفض معنويات العرب الذين سوف يقنطون من إمكانية تحرير فلسطين، فيأخذون باللهاث وراء الصهاينة طلباً للسلام. وهذا يعني التنازل عن الوطن السليب الذي اغتصبه العدو من أصحابه الشرعيين. وها نحن اليوم نعيش هذه البرهة البائسة التي خطط لها رجال خبثاء يعملون في الظلام الكثيف.

يقيناً إن الذين فكروا بخطة إدخال الجيوش العربية إلى فلسطين سنة 1948، دون أن تكون لديها أوامر بالقتال، فلا تخوض سوى بعض المناوشات الخفيفة الوطأة، ثم تهزم وتهان على نحو لم يسبق له مثيل في تاريخ الجنس البشري كله – إن تلك الكائنات تصلح أن تكون أساتذة للشياطين، إذ لاريب في أن تلك الخطة هي نتاج لمكر وخبث لا يفوقهما أي مكر وأي خبث على الإطلاق.

* * *

لست أذكر أن شيئاً ذا بال قد جرى في بلدتنا خلال شهر أيار من ذلك العام، ولكننا استيقظنا في الثامن من حزيران، قبل الفجر، على أصوات انفجارات ورشاشات مريعة حقاً، فأنا لم أسمع مثل تلك الأصوات من قبل. إنه فجر كربلائي لا أنساه ما حييت، وذلك لشدة الهول الذي أحاق بنا في تلك البرهة العصيبة. وأذكر أن أحد الانفجارات كان هائلاً جداً، فأيقظ حسن أخي من نومه وهو يصرخ صراخاً عالياً ممزوجاً بالرعب الشديد البالغ مبلغ الهلاع.

وأصابتنا الحيرة، ولم ندر ماذا نفعل. فقد كان أبي في الخنادق إلى الجنوب من لوبيا حيث دار القتال ضارياً. وكنا ثلاثة أطفال وامرأتين، وسادسنا الرهاب. لم يكن لدى الصهاينة في ذلك الهجوم الرامي إلى الاستيلاء على القرية سوى مدافع الهاون ذات التأثير الطفيف. أما مصفحاتهم فعجلاتها من مطاط، فلو كانت لديهم دبابات مجنزرة، أو مدفعية ميدان بعيدة المدى، لأبادوا القرية بغير رحمة، لأنهم توراتيون يجهلون كل ما هو انساني جهلاً مطبقاً. فهم كائنات حاقدة على الجنس البشري بأسره. ولقد وجد حقدهم فريسة سهلة يصبون عليها جام غضبهم المزمن.

وظنت جدتي، التي لجأت إلى الدعاء والاستنجاد بالله العلي القدير، أن بيت عمتي فاطمة خير من بيتنا في هذه البرهة الراعبة، وذلك لأنه يتألف من طابقين، فإذا جلسنا في الطابق الأرضي، فإن القذائف سوف لن تصيبه بسوء لأنها لا تخترق العلوي إلى السفلي، بل تنفجر على السطح ونخلص من شرها.

ولهذا، غادرنا بيتنا إلى بيت عمتي في غبش الفجر، فوجدنا الطابق الأرضي يكتظ بالعديد من النساء والأطفال. وكنت ترى الرعب في مآقي العيون وعلى الوجوه مجسداً بادياً للعيان. بل إن هلعاً شديد التوتر كان يلوح على وجه كل امرأة في ذلك الصباح المتجهم الرهيب. وراحت النسوة تبتهلن إلى الله وتناشدنه الأمن والنصر وإلحاق الهزيمة بالأعداء حلفاء الشياطين. فإما أن يكون

النصـر حليفنـا وإمـا أن تحـل بنـا مجـزرة مـن أشـنع المجـازر وأكثرهـا وحشـية. فالصهاينة لا يجهلون شيئاً بقدر ما يجهلون مبدأ العفو عند المقدرة.

يا إلهي ما أشنع الخوف! ترى، ما هذه الحياة المأهولة بالبؤس، بل حتى باللامعقول؟ لكأن الإنسان ما خلق إلا لكي يكابد ويتحمل أو يطيق.

ومما حرّض الخوف كثيراً أن زوج عمتي كان على سطح البيت ومعه رشيش من طراز برن، وراح يرمي به صوب الجنوب. فبيت عمتي على قمة التلة تماماً، ومن هناك يملك المرء أن يرى الجهات كلها.

* * *

وعلى غير توقع ظهرت خالاتي الثلاث ومعهن أخوالي الثلاثة الذين كانوا دون سن البلوغ، ونادين أمي إلى خارج البيت، وقلن لها إن أباهن أمرهن بالذهاب إلى عرابة البطوف، حيث كان له صديق يثق به تمام الثقة. فوافقت أمي واستأذنت جدتي خضرا، وذهبنا جميعاً، ما عدا الجدة التي بقيت في بيت ابنتها. ولم تأت جدتي فدوى، والدة أمي، مع بناتها وأبنائها، وذلك لأن العجائز لا خوف عليهن من الصهاينة.

وكانت أمي حاملاً، كما راحت تحمل أخي حسن على صدرها، إذ كان عمره ثلاث سنوات تماماً. أما أخي محمد فأمسك بفستانها من جهتها اليمنى. وكانت خالتي ذيبة، وهي صغرى خالاتي، متزوجة ولها طفل واحد اسمه سعيد، وكان عمره سنة واحدة، أو دون ذلك بقليل. وهو دائماً على صدرها أو في حضنها. أما خالتي أمينة الشديدة الطيبة والذكاء والجمال فكانت لا تزال عزبة. وقد أصابها مرض القلب بعد طردنا من فلسطين وماتت سنة 1957. وكانت خالتي فاطمة عزبة أيضاً، وهي لم تزل حية ترزق، وتعيش اليوم في الطرف الغربي من مخيم اليرموك.

وعندما صرنا خارج بيت عمتي، رأيت مجموعة من الشيوخ يقولون: أخرجوا النساء والأطفال من البلدة. وراحوا يكررون هذا القول مراراً. فلقد كان

هنالك خطر على عفاف النساء الشابات، وكذلك على حياتهن، كما أن الصهاينة مغرمون بدماء الأطفال أيضاً. ولا ريب في أن مجزرة ناصر الدين المروّعة، والتي حدثت قبل شهرين من ذلك اليوم الكالح العصيب، هي التي حرضت الشيوخ على ترحيل النساء والأطفال من البلدة ريثما ينجلي الموقف.

واتجهنا نحو المقبرة التي تقع في الزاوية الشمالية الغربية من لوبيا، ثم انحدرنا باتجاه خط طبريا_الناصرة. ولم أكن أعلم يومئذ أن السيد المسيح كان يسير على تلك الدرب التي عبرناها خائفين لنتجه نحو نمرين فمرج الذهب، أي صوب الشمال. وحينما وصلنا ذلك الخط عند الطرف الشمالي الغربي لتلة لوبيا، حيث كان هنالك مقهى لأسرة من آل الشهابي، وكذلك كرم يسمى كرم زعيتر، راحت الشمس تبزغ فوق طبريا صفراء مثل قرص كبير من الذهب الإبريز. وكانت آليات الصهاينة المصفحة تقف على الخط نفسه، ولكن قرب الجهة الشمالية الشرقية من بلدتنا، فلا تبعد عنها أكثر من خمس مائة متر، إذ اعترضها حاجز كبير من الحجارة كدسه الناس على الدرب قبل بضعة أشهر. وراح المسلحون يطلقون النار على الدواليب المطاطية من مكان ليس ببعيد عن كروم العوينة، أي من جنوب الدرب حصراً.

وحين شاهدنا المصفحات تلمع في الشرق تحت أشعة الشمس الحديثة البزوغ، فقد غددنا السير، بل ركضنا بغية الابتعاد عن مكان الخطر. أما أنا فوقفت في وسط الشارع وأخذت أعد آليات العدو. كان عددها ثلاث عشرة آلية، بعضها مصفحات وبعضها الآخر ناقلات جنود. وعندما التفتت أمي إلى الخلف لتتأكد من أنني أتبعها، أو من أنها لم تخسرني بعد، فرأتني أعد الآليات، أخذت تصرخ بأعلى صوتها وتؤنبني أشد التأنيب، فما كان مني إلا أن هرعت نحوهم راكضاً، ثم مضينا جميعاً صوب الشمال مسرعين.

وكان هنالك بعد الخط إياه، أو إلى الشمال منه، كرم زيتون له جدران طينية منخفضة تحيط به من جهاته كافة. وهو يسمى كرم حجو. وبحماية الجدار

الغربي، أي في منأى عن اليهود، جلست على التراب نساء وأطفال كثيرون. لقد كنَّ نساءً وسيمات ومتنوعات الألوان، ففيهن السمراء والبيضاء والبرتقالية والحنطية وذات الوجه الوضيء، ومن هي بلون الزيتون الأخضر. وهنالك مرضعات جلسن على التراب ليرضعن أطفالهن، وكلهن في مقتبل العمر. ولكن الهول كان يهيمن على الوجوه وينخر النفوس من الداخل، وآية ذلك أنني رأيت الكثير من النساء والأطفال يبكون بحرقة ومرارة. وسمعت بعضهن وهن يتحدثن عن اولئك الشبان الذين استشهدوا في ذلك الفجر الحزين، والذي لم أعش برهة أعسر منه طوال حياتي. وربما كانت الصبايا يخشين الاغتصاب إذا ما انتصر اليهود الذين يجهلون الطيبة، بل كل ما هو ذو قيمة روحية. إن تعريف الأمي يجب أن يكون على هذا النحو: هو من يجهل هوية اليهود، وليس من يجهل لغتين أجنبيتين. وعندي أن فقه الشر يجب أن يبدأ بأن يفقه المرء اليهود وخبثهم ومكرهم وميلهم إلى استعباد الجنس البشري بأسره. أما الغربيون فوحوش مفترسة، ومن عدّهم بشراً فليتّهم نفسه. إن الذي فعلوه بالهنود الحمر في الأمريكيتين يجعلهم أدنى مرتبة من الوحوش.

أما نحن فتابعنا سيرنا إلى الشمال. وشاهدنا عدداً من الرجال المسلحين بالبنادق لا يزيدون عن ستة، وربما أقل، وأظنهم من نمرين، فهم آتون من جهة تلك القرية ومتجهون صوب آليات العدو. وسمعتهم يهتفون قائلين: الله أكبر. وراحوا يرددونها عدة مرات.

ومررنا بالقرب من نمرين دون أن ندخلها، ثم وصلنا إلى الطرف الشمالي لمرج الذهب حيث كان يخيم جيش الإنقاذ بجوار الطريق العام الذي ينطلق من مسكنة ذات المفرق الرباعي ويتجه إلى الشمال. وهناك إلى جوار ذلك الخط رأيت معسكراً كبيراً يعج بالآليات والجنود والمدافع والبنادق. ورأيت بعضهم يحملون النواظير ويراقبون الاشتباك الذي كان مرئياً دون أية أدوات. كما شاهدت بعض النسوة المكتهلات من أهالي بلدتنا وهن يتشاجرن مع الجنود ويصرخن

قائلات: إن شباننا قد أبيدوا، وها أنتم تقفون متفرجين. هي ذي بنادقكم ومدافعكم، واولئك هم اليهود مرئيون بالعين المجردة، فلماذا لا تهجمون؟ والله إنكم لا تجيدون شيئاً سوى الأكل والنوم.

وأخذت النسوة يشتمن الجنود ويشتمن ملوك العرب ورؤساءهم، ويتهمن الجميع بالتآمر على الشعب الفلسطيني، وعلا صياح النسوة وارتفع، وتفاقمت الشتائم، ولكن الجنود راحوا يردون قائلين بأنهم اتصلوا بقيادتهم وأبلغوها بنبأ الهجوم على لوبيا، إلا أن القيادة أمرتهم بألا يتحركوا بتاتاً، وأن يدافعوا عن أنفسهم ضد أي هجوم يتعرضون له. فليست هنالك أوامر بالقتال، ولا حتى بتقديم أي دعم حربي أو مادي للمقاتلين الفلسطينيين. ولكن النساء رحن يسألن الجنود قائلات: ما الذي أتى بكم إلى بلادنا ما دمتم لا تريدون أن تحاربوا؟ ماجئتم إلا لكي تقبضوا الرواتب الضخمة وتأكلوا اللحم والأرز.

وهكذا حل الاستخذاء محل الإباء، وصارت الكارثة الفلسطينية شديدة النصوع حتى أمام بصر الأطفال. وبذلك صح مذهب اولئك الحدسيين الذين قالوا في أيار إن العرب يريدون تسليم خط طبريا_الناصرة لليهود. فيا للذكاء البشري، ويا للرجال الألباء الذين تضيع أصواتهم في ازدحام الغباء! وفي الحق أن العرب راحوا يسلمون فلسطين للصهاينة قطعة إثر قطعة. وكان على الجيوش العربية أن تمثل هزيمتها أمام اليهود ابتغاء رفع معنوياتهم. وهذا واحد من أهم الأسباب التي اقتضت أن تدخل تلك الجيوش إلى فلسطين.

أما المفاجأة التي لا يكاد أن يصدقها الذهن فهي أن الجيش الصهيوني قد أثبت بالتجربة الإجرائية أنه لا يصلح للقتال، وأنه أعجز من أن يهيمن على خط السيد المسيح في ذلك الوقت المبكر نسبياً، وأنه بحاجة إلى أسلحة أقوى، ولا سيما دروع مجنزرة ومدفعية ميدان بعيدة المدى، كي يحرز نصراً على بضع مئات من المسلحين الفلسطينيين. وهذا ما وفرته له الهدنة الأولى، وسوف يتغير الحال في شهر تموز القريب.

وأياً ما كان جوهر الشأن، فقد تركنا النسوة أنصاف الشائخات يتشاجرن مع الجنود، وتابعنا مسيرنا، ولكننا اتجهنا إلى الغرب هذه المرة، فوصلنا إلى سهل البطوف الذي يشبه حفرة عميقة بين مرتفعات تحيط به من جميع الجهات تقريباً. وشاهدنا بعض الحصادين يحصدون القمح في السهل، فسألنا عن الماء، فدلونا على عين كانت هناك في سفح المرتفع الغربي، اسمها عين ناطف. وكنا في جوع وظمأ شديدين. وحين وصلنا إلى ذلك الينبوع ذي الماء القراح. كان التعب قد أخذ منا كل مأخذ، ولكننا بعد استراحة قصيرة إثر الشرب، تابعنا مسيرنا إلى قرية عرابة التي صارت قريبة جداً.

وأخيراً وصلنا إلى مضيفنا، فما كان من أهل البيت، بل جميع أهل البلدة، إلا أن استقبلونا بالترحاب. وأحضروا لنا غداءً يتألف من اللبن والزيتون والبيض. وكنا جائعين جداً ومنهكين من التعب والحرّ. وأظنني صادقاً إذا قلت بأن شعبنا كله طيبة وكرم وشهامة ونخوة وسخاء.

بقينا في عرابة يومين أو ثلاثة، وبضيافة أناس أنقى من شعاع الشمس. وبعدما تمكن رجالنا من صد الجيش الصهيوني خاسئاً يجرّر أذيال الخيبة، جاء أبي وزوج خالتي ذيبة وخالي أحمد، وأخذونا في ذلك اليوم نفسه إلى بلدتنا التي قدمت برهاناً عملياً فحواه أن الصهاينة لا يصلحون للقتال بتاتاً.

* * *

هاجم العدو لوبيا على محورين، أولهما المحور الآلي الذي أتى من طبريا، وثانيهما محور المشاة الذي انطلق من مستعمرة الشجرة الواقعة إلى الجنوب من بلدتنا. وكان المحور الجنوبي كثيفاً وضاغطاً وغزير النيران. وانصب معظم الضغط على الخربة، وكذلك على الأرض السهلية المجاورة لها من الجهة الشرقية. وامتد القتال حتى شمل الجهة الجنوبية الشرقية، إذ اندفعت سرية من سرايا العدو خلال الكروم التي نسميها الخروبة واتجهت صوب القرية، ولكن موقعاً لرجالنا المسلحين قد تصدى لها عند بزوغ الشمس وردها على أعقابها

خاسئة. إنه موقع صغير فيه عشرة رجال فقط، سلاحهم البنادق، وليس معهم من الأسلحة الآلية الا رشيش انجليزي من طراز برن.

ومن أخبار المعركة أن رجلاً عمره زهاء خمسين سنه، واسمه حسن العبد، كان له كرم إلى الجنوب من البلدة. وفي الكرم بيت يعيش فيه وأسرته. فلما بدأت المناوشات في شباط، نقل عائلته إلى بيته القديم في داخل البلدة، وظل وحده في الكرم ومعه مسدس رشاش من طراز ستن. وحين هجم الصهاينة على لوبيا في ذلك اليوم إياه كان بيت حسن العبد أول بيت اصطدموا به. فراح الرجل يقاوم وحيداً حتى نفدت ذخيرته نهائياً. وعند ذاك اقتحم الجنود البيت وأمسكوا بصاحبه ورموه أرضاً، ووضعوا رقبته على عتبة الباب، ثم ذبحوه وفصلوا رأسه عن جسده. وحين جاء الناس إثر الهزيمة التي مني بها اليهود، وجدوا آثار دماء حول البيت وبالقرب منه.

وحدث حادث آخر في بيت ليس بالبعيد عن البيت السابق، إذ كان هنالك رجل اسمه أحمد عوض الشاويش، وبيته في الفسحة السهلية التي إلى الجنوب من القرية، ولكنه أقرب اليها من البيت الأول. وكان الرجل وحده حينئذ، فتصدى للعدو ساعة حاول اقتحام المكان، ولكنه استشهد بعد صدام طويل. وعندما جاء الناس في اليوم التالي، وجدوا خمس جثث للصهاينة بالقرب من البيت، ووجدوا جثة الرجل مشوهة، إذ مثّل بها العدو انتقاماً لخسارته الجسيمة.

ولئن كان المحور الآلي قد دُحر في الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم نفسه، فإن محور المشاة الكثيف والغزير النيران في الجنوب قد ظل في مكانه حتى المساء المتأخر. ولكنه دحر هو الآخر، بل راح شباننا يطاردون الصهاينة ليلاً حتى مشارف مستوطنة الشجرة الحصينة.

وقد وصلت نجدات من القرى المجاورة، كما وصلت نجدة من الناصرة، وهي سرية من الجهاد المقدس الذي نظمه الحاج أمين الحسيني. كما جاءت

نجدة من قرية عيلبون المسيحية. وشهد بعض الناس لشبان تلك القرية بالشجاعة والتحمس لمقاتلة الصهاينة. ولكن حشد المقاتلين في لوبيا لم يزد عدده كله عن خمسمائة مقاتل. كما أن النجدات وصلت متأخرة، فلم تشترك في القتال ضد المحور الآلي. ومعظم الشهداء من أبناء بلدتنا استشهدوا قبل وصول النجدات.

ومع أن الصهاينة مشهورون بقدرتهم على إخلاء ساحة المعركة من القتلى والجرحى، فإنهم تركوا وراءهم أربعة وسبعين جثة. وهنالك من أخبرني بأن الصهاينة كتبوا أسماء قتلاهم في ذلك الصدام على رخامة ثبتوها على نصب تذكاري بنوه عند المفرق الرباعي الآنف الذكر، والذي هو في مسكنة، إلى الغرب من لوبيا. ولكن العدد المسجل على تلك الرخامة هو ستة وثلاثون فقط. وهذا يعني أن اليهود قد زوروا الحقيقة، كعادتهم.

ولكن هذا الأمر له تفسير. فالصهاينة ما كانوا يذكرون القتلى المتطوعين الآتين من الخارج، أي الذين هم ليسوا مواطنين في الغيتو. وهذا يعني أن متطوعين من اوروبا وسواها، وبخاصة أوروبا الشرقية، هم الذين هجموا على لوبيا. ماذا عساه أن يكون ذلك الأوروبي الصغير العقل الذي يهاجم قرية صغيرة ويدهم أطرافها ليطرد أهلها منها ويقدّمها هدية للصهاينة، أو لأناس جاؤوا من ثلاثة وثمانين اقليماً لا يجمعهم سوى كومة من الخرافات اسمها التوراة؟ فلو لم يكن اللاعقل هو المحرك الأول للتاريخ لما أتى اولئك المتطوعون المأفونون إلى بلادنا ليموتوا بالنيابة عن المرابين ذوي الأنياب الزرقاء. قد يزعمون بأنهم جاؤوا ليؤسسوا دولة الحرية. ولكن هذا التأسيس لا يتم إلا على حطام شعب آخر قذفوا به إلى البؤس والشقاء المريع.

أما شهداء بلدتنا فقد بلغوا العشرين، أو زادوا على هذا العدد، في ذلك اليوم وحده. ولقد دفن الناس سبعة عشر شهيداً في مغارة في الخربة اسمها مغارة العريس، إذ كان كل عريس من أهل الحارة الجنوبية يستحم يوم عرسه في تلك

المغارة، ولهذا سميت مغارة العريس. ولو بقينا في فلسطين لتغير اسمها فصار مغارة الشهيد، على ما أرجّح.

وأحرق الناس جثث اليهود بعدما انتشرت روائحها الكريهة الخانقة. وجاء الصليب الأحمر الدولي يطالب بالجثث، فقال الناس بأنهم أحرقوها. فطالب بالرماد، فأجاب الناس بأنهم بعثروه في جميع الجهات. لقد بخل الناس على اليهود برماد قتلاهم، فلو انتصر اولئك الارهابيون لارتكبوا مجزرة مروّعة في لوبيا قد لا ينجو منها أحد، ولا سيما الأطفال والنساء.

وألّف الجيش الصهيوني كتاباً عنوانه (حرب الاستقلال)، وذلك بعد مدة من زمن تلك الأحداث، وترجم الكتاب إلى اللغة العربية، فأتيح لي أن أقرأه زهاء عام1993، ووجدت فيه اعترافاً صريحاً من الصهاينة بأن هجومهم على لوبيا قد باء بالخيبة والاخفاق. وفضلاً عن ذلك، فإن هذا الكتاب يذكر اسم بلدتنا أكثر من مرة، ويسميها (لوبيا الملعونة).

وذهب رجل من أهل ضيعتنا إلى فلسطين بجواز سفر دانمركي، وقابل الضابط الصهيوني الذي قاد الهجوم على لوبيا صباح الثامن من حزيران، وطرح عليه جملة من الأسئلة، بينها سؤال عن عدد الجنود الذين شاركوا في الهجوم، فأبلغه الضابط بأنهم ألف وخمسمائة جندي. وهذا يعني أنهم ثلاثة أضعاف المسلحين الذين احتشدوا في بلدتنا يومئذ. ومن المؤكد أن ثمة فارقاً أخر، وهو الفارق في التسليح بين الطرفين. وهذا الفارق هو الذي حتّم أن يكون الفلسطيني غير قادر على طردهم من بلاده.

إذن، هجموا بألف وخمسمائة جندي. أما أهل لوبيا فقدروا العدد بأربعة آلاف وخمسمائة جندي. ولكن الرقم الأول هو الصواب، لأن من عادتهم دوماً أن يهجموا على القطعة بثلاثة أمثالها. فقدّروا أن لوبيا فيها مائتان من المسلحين، وأنها سوف تتلقى نجدة مقدارها ثلاثمائة مسلح. وهذا يعني أن المجموع لن يزيد

عن خمسمائة. وهم جميعاً من الفلسطينيين الذين يندر أن تجد فيهم واحداً ذا سلاح جيد أو جديد.

أما جيش الإنقاذ المرابط بين عيلبون وطرعان فحياده مضمون. وكان هنالك جيش عربي آخر يرابط إلى الشرق من لوبيا، وعلى مسافة لا تزيد عن عشرين كيلو متراً. وأصيب الناس بالذهول عندما شاهدوا جيشين عربيين يتفرجان على قرية فلسطينية وهي توشك أن تذبح بأيدي اولئك الحاقدين على الجنس البشري كله. وعند ذاك تعالت الأصوات وأجمعت على أن ثمة مؤامرة عالمية كبيرة تستهدف إنزال الفواجع بالفلسطينيين، كما أدركوا أن اللجوء أو التشرد في الآفاق صار حتمية تاريخية لا بد منها. وعلى أية حال، فقد برهن الصهاينة بهذه الهزيمة التي حلت بهم في لوبيا على أنهم لا يصلحون للقتال بتاتاً. ومن المفارقات التي لا رفع لها أن تهزمهم قرية فلسطينية وأن يهزموا، في الوقت نفسه، سبعة جيوش عربية. وحين يتذكر المرء أن تلك الجيوش لم تكن لديها أوامر بالقتال، عدا بعض المناوشات الطفيفة الهادفة إلى ذر الرماد في العيون، فإنه يستهجن ما قد جرى، ويدرك أن العجائب قابلة للحدوث في هذه الدنيا الدنيّة.

يقيناً، إن الجنود الصهاينة المدربين المسلحين قد هزمهم بعض الفلاحين الذين قلما نجد فيهم من يملك بندقية جيدة بالفعل. فولوا مدبرين وتاركين جثث قتلاهم على الأرض، فضلاً عن الكثير من الأسلحة أيضاً، ومنها مصفحات تهتكت عجلاتهما المطاطية بتأثير الرصاص. كما برهنوا على أنهم لا يصلحون للحرب في أماكن أخرى كثيرة، ولا سيما في جنين، حيث اشتبكوا مع كتيبة عراقية ملاكها خمسمائة جندي فقط، راحوا يساندون ثلاثمائة مسلح من الفلسطينيين. وانتهى الصدام بخسارة فادحة مُني بها العدو.

إنهم لا يصلحون للقتال، ولكن الدول العظمى هي التي تضمن بقاءهم في أرضنا عبر تحالفها مع حكومات العالم العربي. وأحسن برهان على ذلك هو

طردهم من جنوب لبنان، مع أن تسليحهم هو أكمل تسليح عرفته البشرية حتى اليوم الراهن، لأن الغربيين قد وضعوا كل شيء، بما في ذلك أنفسهم، في خدمة الصهيونية دون أي مسوّغ عقلاني، بل دون أي شعور بالامتهان أو بالاتضاع.

لو كانت الشجاعة هي العامل الوحيد في إحراز النصر لما قُيّض للغيتو الصهيوني أن يعرف دربه إلى الوجود. فبكل صدق، أعرف رجلاً خرج إلى القتال بلا سلاح بتاتاً، وراح يرمي الحجارة على مصفحات الصهاينة. كما أعرف رجلاً آخر خرج وهو يحمل عصاً فقط، وكمن خلف كومة حجارة، فاصطاد جندياً معادياً، إذ ضربه بالعصا من الخلف فطرحه أرضاً، ثم انتزع منه سلاحه وقتله به.

* * *

وبعد مضي يومين سرى مفعول الهدنة، وذلك في الحادي عشر من حزيران، فراح الناس يعملون في حقولهم ويحصدون قمحهم وينقلونه إلى البيادر ويدرسونه بأدواتهم القديمة. إلا أنهم قبل الانتهاء من دراسته، قد تحتم عليهم أن يجابهوا الصهاينة من جديد. والمفاجئ حقاً أن أسلحة العدو صارت الآن شيئاً مختلفاً تماماً، فلديه في الطور الجديد مدفعية ميدان بعيدة المدى، وكذلك مدرعات مجنزرة لا تؤثر فيها نيران البنادق بتاتاً.

وبما أن أبي كان شرطياً في حيفا، أي غير متفرغ للزراعة، فإننا لم نزرع إلا القليل من الحنطة في عام النكبة. لقد زرعنا كمية صغيرة وحسب، وهذا شيء يسميه الفلاح (شكارة). (لعلها لفظة سريانية) وبما أن الكمية ليست بالكبيرة، فإننا لم ننقل حصادنا إلى بيدرنا، بل إلى بيدر جدي علي في المدّان، حيث رحت أنا أدرس قمحنا بالنورج تحت إشراف أبي الذي لم تكن بندقيته تفارقه يومذاك.

وذات يوم بينما كنت أقف على ذلك اللوح الخشبي الذي يسمى النورج، والذي يجره ثوران اثنان طوال النهار، أخذت أتأمل الوجود واسأل نفسي قائلاً: كيف وجد هذا العالم؟ وأغمي عليّ فجأة وسقطت على اللوح لفترة وجيزة وأنا فاقد

الوعي. ولكنني سرعان ما ثاب إلي رشدي دون أن يشعر بذلك أحد قط. ولم أتحدث عن هذا الأمر لأي إنسان حتى يوم الناس هذا.

وفي الفترة القصيرة الفاصلة بين الهدنة الأولى والهدنة الثانية (من التاسع إلى السادس عشر من تموز) استولى الصهاينة على اللد والرملة والناصرة، وابتعدت الجيوش العربية عن ضواحي تل أبيب، مع أن جيش الصهاينة قد أبدى عجزاً واضحاً عن زحزحة الجيوش العربية عن أماكنها. وليس ذلك بغريب، فالجيوش العربية كانت قد أعدت لمواجهة الألمان. ولوجه الحق الخالص أقول بأن تلك الجيوش كانت تقاتل على نحو جيد حين تصدر اليها الأوامر بالقتال. ومن المؤكد أن العدو لم ينتصر على أي جيش عربي إلا إذا دهم مفرزة صغيرة جداً لا تزيد عن مائة جندي، كما هو الحال في المالكية حيث أباد الصهاينة ثمانين جندياً لبنانياً، أو زهاء ذلك. يا إلهي! لقد صار العرب جثة هامدة، كما قالت غولدا مائير ذات يوم.

وفي الجليل الأدنى، أي في صقعنا، اشتبكت كتيبة من جيش الإنقاذ مع مستوطنة الشجرة الشديدة التحصين، والتي كان يكفي أن تحيط بها قطعة عسكرية ما من جهتها الجنوبية لتسقط بعد فترة وجيزة، وذلك بسبب حاجتها إلى الماء في جو تموز الشديد الحرارة. وللمرء أن يتساءل عن السر الذي جعل جيش الإنقاذ يتحرك من الطرف الشمالي لمرج الذهب، ويعبر خط طبريا_الناصرة ليشتبك مع تلك المستوطنة في قتال بغير نتائج، مع أنه أحجم قبل شهر واحد عن الاشتراك في يوم لوبيا بغية إنقاذ الناس من مجزرة كانت مؤكدة لو انتصر العدو. ولا زلت أذكر رشاشاً ثقيلاً للصهاينة كان يضرب بشكل هادر ومثير للهلع. وعلمت حين كبرت أن ذلك الرشاش من طراز فكرز (بكسر ففتح فسكون).

وفي تلك المناوشة التي دامت حوالي أسبوع، والتي لا لزوم لها بتاتاً، لأن الهجوم على طبريا أجدى نفعاً، لو كان هنالك حسن نيّة. في تلك المناوشة

استشهد الشاعر عبد الرحيم محمود، الذي كان ضابطاً صغير الرتبة في ذلك الجيش. وقد اشترك عدد كبير من شبان قريتنا في الهجمات المتكررة على تلك المستوطنة. ولا أدري ما إذا كان هنالك شهداء من لوبيا يومئذ، ولكنني أعرف رجلاً صنديداً اسمه مطلق، أو أبو درغام، قد أصيب برصاصة في أعلى صدره، بيد أنه شفي منها وصار جاراً لنا في بعلبك بعد النكبة.
وصدق عبد الرحيم محمود حين قال:

سأحمل روحي على راحتي وأرمي بها في مهاوي الردى

ويوم استولى اليهود على مدينة طبريا وطردوا سكانها منها تحت سمع الانجليز وبصرهم، وذلك في شهر نيسان، جاءت أسرة من تلك المدينة وسكنت في بيت حسين عبد الرحمن المقابل لبيتنا تماماً. وهي تتألف من رجل شاب يحمل بندقية، وكذلك من زوجته وبناته الثلاث. وكانت البنت الكبرى أصغر مني بقليل. وسرعان ما صارت صديقتي أو شريكتي في اللعب.

وذات يوم من أيام تلك المناوشة التي دارت حول مستوطنة الشجرة في تموز، رأيت المرأة الطبرانية تخرج من البيت حاسرة الرأس تماماً، مع أنها كانت حريصة دائماً على ألّا يظهر وجهها للعيان، بل هي لا تخرج من البيت إلا لماماً، وذلك جرياً على عادة أهل المدن في تلك الأيام. كما أنها بكت وصرخت وولولت وشدت شعرها على نحو مثير للحزن والشفقة. وتجمع الناس حولها، ولا سيما النسوة اللائي شاركنها البكاء بمرارة.

وأدركت أن زوجها قد استشهد بالقرب من تلك المستوطنة التافهة. وكانت الشمس لم تغرب بعد، فركضت إلى المقبرة حيث سيتم الدفن، ورأيت الشهيد ممدداً على الأرض، مضرّجاً بدمائه. وأذكر أن رصاصة أصابته في الجانب الأيسر من صدره، فقد شاهدت ثقباً في ذلك الموضع، كما شاهدت دماء عليه. وكانت بندقيته وذخيرته إلى جوار جثته. وراح الرجال يحفرون له ضريحاً، وعندما

انتهوا من الحفر حملوه وهم يوحدون الله (عز وجل)، ووضعوه في الضريح، ثم هالوا عليه التراب. وإنه لمشهد لا أنساه ما حييت. أما أسرته فلا علم لي بما صارت إليه بعد ذلك اليوم.

* * *

وفجأة صمت الرصاص فلم يعد يسمع في الجوار. وجاء نبأ مفاده أن الصهاينة يعدون العدة للهجوم على الناصرة. ولم يكن هنالك أي جيش عربي في تلك المدينة الجليلية المقدسة، بل لم يكن سوى سرية صغيرة من قوة ثانوية اسمها الجهاد المقدس. وسقوط الناصرة يعني أن تصير لوبيا بين فكي الكماشة، لأن في الميسور أن يطبق عليها الصهاينة من الشرق والغرب بعدما يستولون على مدينة السيد المسيح.

وفي يوم من تلك الأيام القليلة التي تفصل بين الهدنة الأولى والهدنة الثانية، نادتني جدتي من الحارة، حيث كنت ألعب مع الأصدقاء، وكان أخي محمد معها، وقالت لي: هيا إلى نمرين. فهي تعرف أسرة في تلك القرية سوف تستضيفنا لليلة واحدة. وسرنا صوب الشمال حتى وصلنا إلى المكان المنشود، فاستقبلتنا تلك الأسرة بالترحاب. وحين نهضت إثر بزوغ الشمس في اليوم التالي، ونظرت إلى لوبيا، وهي قريبة جداً، رأيت قذائف المدفعية تدك بيوتنا دكاً، والدخان يتصاعد في الجو عالياً. ومن جراء ذلك القصف اللئيم جرح بعض الناس وقتل بعضهم الآخر. وما كان في ميسور الصهاينة أن ينتزعوا منا ديارنا دون الاستناد إلى مبدأ الجريمة، ودون أن يخذلنا العالم كله ويخلي بيننا وبين تلك الطفيليات المقيتة.

كان هدف ذلك اللؤم ناصعاً تمام النصوع، فهم يريدون إخراج الناس من ديارهم بغية إعدادها لاستقبال المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا الشرقية وسواها. وبالفعل خرج أهل بلدتنا في الخامس عشر من تموز. ولكن العدو ظل يدك المنازل بمدفعية الميدان الثقيلة طوال ثلاثة أيام بلياليها. ومع ذلك فإنهم

يزعمون بأن الحرب التي خاضوها ضد الجيوش العربية هي التي شردت الفلسطينيين. ترى عن أية حرب يتحدثون؟ أو هل كانت هنالك حرب بالفعل؟

غادر الناس بيوتهم وراحوا يتشردون تحت كل سماء. ووصلت أمي وأبي وأخي حسن إلى نمرين سالمين. كانت والدتي تحمل الصغير على ظهرها، وكان أبي مهتماً بالحمل الذي على ظهر الحمار، وهو كل ما نملك من متاع الدنيا ابتداء من ذلك اليوم المرير. والجدير بالتنويه أن أهل بلدتنا قد تركوا بيادرهم ملآنة بالحبوب، لأنهم لم يتمكنوا من دراستها واستخلاص نتاجها أو حصيلتها قبل شهر آخر على الأقل. وأذكر أن بيدر جدي علي كان زاخراً بالمحاصيل التي ظلت على حالها وفي مكانها ليستولي عليها اليهود بغير حق.

ولم يبق في لوبيا سوى بعض الرجال والنساء الهرمين الذين لا يستطيعون السير على أقدامهم. وتواروا في أحد الكهوف التي كنا نختبئ فيها هرباً من الطائرة الآنفة الذكر، والتي تؤكد وجود الحياة البشرية في لوبيا منذ العصر الحجري. وحين دخل الصهاينة البلدة قابلتهم امرأة عجوز من تلك الفئة التي ظلت في المغارة، وأخبرتهم بأمر اولئك العجزة وبمكان وجودهم، فأمروها بأن يظل الجميع في المغارة نفسها دون حراك. وراح الصهاينة يدمرون بيوت البلدة الواحد إثر الآخر بالمواد المتفجرة. فخافت المرأة على نفسها وعلى من معها. (نسيت اسم تلك المرأة بسبب طول المدة) وحين جنّ الليل وتوقف العدو عن النسف، أخذت المرأة معها من يستطيع السير قليلاً، وغادرت البلدة، فالمسافة لم تكن طويلة، إذ هي لا تزيد عن خمسة كيلو مترات، أو أقل. فعند الطرف الشمالي من مرج الذهب يخيم جيش الإنقاذ الذي قدم شيئاً من المساعدة الانسانية لأولئك العجزة، ولا سيما الطعام. وأخيراً وصلوا إلى لبنان بطريقة لا أتذكرها.

أما اولئك الذين لا يملكون أن يسيروا تلك المسافة القصيرة، فظلوا في المغارة، وما من أحد يعرف مصيرهم. وأغلب الظن أن العدو نسيهم هناك، أو

تعمد إغفالهم ونسيانهم. وعندما هدموا البيوت المجاورة للمغارة، سدت الأنقاض بابها وماتوا في داخلها بسبب نضوب الهواء. وهذا هو الظن الأرجح. ولو كان مصيرهم خلاف ذلك لعلم بهم أهل بلدتنا الذين ظلوا في دير حنا.

وهكذا تمكنت عصابات جاءت من روسيا وبولونيا واوكرانيا ورومانيا وسواها، من طرد أصحاب الأرض الذين يعيشون فيها منذ آلاف السنين، وهدموا بيوتهم وشردوهم بصفاقة ولؤم، وقذفوا بهم إلى البرد والجوع والفقر والمرض وجميع أصناف البؤس والتعاسة. وتمت هذه الجريمة الشنعاء بتأييد من الهمجية المزمنة التي تسمي نفسها باسم الحضارة والحرية والديمقراطية. ودمر المخربون الصهاينة جميع بيوت لوبيا، ونقلوا حجارتها وصنعوا منها شارعاً جديداً ليكون بديلاً عن جزء من طريق طبريا – الناصرة القديم، الذي كان يسير عليه السيد المسيح. وهكذا أزالوا بلدتنا من الوجود لأنها قاومتهم، وغرسوا غابة في مكانها، مع أنها– كما يوحي اسمها– بلدة قديمة جداً تعود إلى الطور الكنعاني، بل أقدم من ذلك بكثير. ولكن الذي فاتهم هو أن لكل صعود هبوطاً، لا محالة. والدنيا يومان، يوم لك ويوم عليك.

* * *

واتجهنا شمالاً إلى ضيعة جدتي خضرا، وهي كفر عنان التي تقع إلى الشرق من الرامة، وعلى مسافة مقدارها أربعة كيلو مترات. إنها بالضبط عند الزاوية الجنوبية الشرقية لجبل الجرمق، وتجاورها من الشمال قرية فرادة (بفتح فشدة على الراء)، وهي التي تعيش على نبع ماء عذب وغزير. والى الجنوب من كفر عنان يقع جبل حزور الذي تعشش على سفحه الجنوبي بلدة المغار. ويندا ح زيتون الرامة الشهير بين حزور والجرمق، وكذلك بين كفر عنان والرامة نفسها.

ومن المؤكد أن كفر عنان وفرادة تنتميان إلى الزمن الكنعاني. وكانت الأولى برود والثانية تسمى شفر. هكذا تقول خارطة موجودة في حوزتي، وأظنها من صنع الصهاينة. وإنني أرجح أن يكون برود اسم فرادة القديم، وشفر هو اسم

كفر عنان القديم. ولقد هدم الصهاينة كفر عنان كما هدموا لوبيا، بل كما هدموا مئات القرى الفلسطينية. ولهذا، فإن تحديد موقعها صار أمراً ضرورياً، وذلك لكي يتاح لقوى التحرير الوطني أن تعيد بناءها من جديد، ولو بعد ألف سنة.

وكان أخوال أبي، أو إخوة جدتي، أُناساً طيبين، فأعطونا بيتاً، وقدموا لنا طعاماً كافياً، وعشنا معهم حياة وئام واندماج، حتى كأننا بعض أفراد أسرتهم.

وأذكر أن أبي قال لأمي، ونحن في الطريق إلى كفر عنان التي تبعد عن لوبيا زهاء خمسة عشر كيلومتراً: ليس لنا سوى دمشق. فسألته أمي قائلة: ولماذا دمشق حصراً؟ فأجاب: لأن دمشق مدينة تكثر فيها فرص العمل، وهناك سوف أشتغل وأحصل على ما يكفي لتغطية نفقاتنا. ولكن أمي قالت: انهم سوف يعيدوننا إلى بلدتنا. فأجابها أبي: ثقي تماماً أن هذا لن يحدث بتاتاً، لأن اليهود يريدون الأرض خالية من السكان بغية اعدادها لاستقبال اليهود الذين ما زالوا في الخارج.

كما أذكر أنني قلت لأبي: كثيراً ما كنت تؤكد لي أن جيوش العرب لن تتخلى عنا. وها نحن اولاء قد صرنا لاجئين، كما ترى، وها هو ذا مصير فلسطين قد حسم لصالح من نسميهم أبناء الميتة. أما تشعر الآن بأنك لم تكن على صواب؟ فقال لي: إياك أن تثق بالعرب بعد اليوم أبداً. فالعرب أموات أكثر من اليهود، ولو لم يكونوا أمواتاً لما هزمهم اليهود، إذا لا يستطيع أبناء الميتة أن يهزموا أحداً إلا إذا كان ميتاً تماماً.

* * *

وأقمنا في كفر عنان ثلاثة أشهر ونصف الشهر. وهناك، وفي يوم من أيام شهر آب، أنجبت أمي بنتاً سميناها مريم. وعرفنا المكان الذي لجأت اليه أسرة جدي علي، وهو عرابة البطوف. وذهبنا إليهم أكثر من مرة. ولكن أسرة جدي انتقلت إلى المغار لسبب لا أتذكره، فصارت أقرب إلينا من ذي قبل. وقد زرتهم هناك، وكانوا يسكنون في بيت استأجروه، ومن سطحه كانت لوبيا ترى

بالعين المجردة. ورأيت في بيت جيرانهم نخله جميلة. ويومذاك عرفت النخيل لأول مرة في حياتي، إذ لم يكن في لوبيا نخيل قط.

ولكي نحصل على نفقاتنا، راح أبي يعمل بتجارة القمح والعدس والخضراوات. فصرنا نشتري كيل قمح أو عدس (والكيل سبعون كيلو غراماً) من سخنين أو من عرابة ونبيعه في الجش أو في الصفصاف بعدما ننقله على حمارنا الذي لم نعد نملك من حيوان سواه. وكنا نشتري البندورة من الصفصاف بخاصة ونبيعها في عرابة أو سخنين. ووصلنا مرة أو مرتين إلى بعض القرى التي هي إلى الشرق من الجش (وهذه بلدة كنعانية قديمة كان اسمها جيس كالا في العصر الكنعاني) وأذكر من تلك القرى واحدة اسمها الرأس الأحمر، التي أحسبها قريبة من الجعونة. وذات مرة ذهبنا إلى قرية اسمها البقيعة، وهي إلى الغرب من الجش، ولعلها قريبة من ترشيحا.

وإذا سار المرء من كفر عنان إلى فرادة ثم إلى السموعية، فالصفصاف على الطريق المعبد يومئذ، فإنه يرى مدينة صفد إلى الشرق من ذلك الدرب. فهي ترخم على ذروة جبل كنعان مثل يمامة في عشها. فلا بد من أن تكون مدينة عذيّة، طيبة الهواء، وذلك بسبب ارتفاعها ونزاهة مكانها. وعلى يسار المسافر من السموعية إلى الصفصاف كانت هنالك قرية لليهود اسمها مرون، أو ربما مارون. وهي صغيرة جداً، وموقعها في السفح الشرقي من جبل الجرمق، أي قبالة صفد تماماً. ولم أشاهد لليهود قرية سواها في جميع تلك الأراضي.

وكانت هنالك بين مرون والصفصاف ساقية ماء بارد تنساب من مكان لا أعرفه، ولكنها تنحدر باتجاه الوادي العميق الذي يفصل بين جبل الجرمق وجبل كنعان. وما دام الشيء بالشيء يذكر، فلا ضير إذا ما ذكرت جدولاً عذب الماء اسمه وادي سلامية (بفتح السين المهملة وتشديد اللام). لقد كان في طريقنا من كفر عنان إلى دير حنا فعرابة، إذ كنا نلقاه عند الطرف الغربي لجبل حزور، أو عند الزاوية الجنوبية الغربية لزيتون الرامة. ومما لا يروقني أن علم الجغرافيا يهتم

بالأنهار الكبرى، ويدير ظهره لواد كوادي سلامية، أو وادي الشومر، أو لنبع صغير كنبع دامية، أو سواه من الينابيع الصغيرة الجميلة التي توحي للوجدان بروعة الحياة وجمالها. وينبع وادي سلامية، على ما أرجح، من عين الأسد التي هي في السفح الجنوبي من الجرمق، أو إلى الشمال من الرامة. وهو يحاذي الطرف الغربي لزيتون تلك البلدة الشهير، ثم يتابع سيره صوب الجنوب، ولكنني لا أدري أين يتلاشى. وقد رأيت رجلاً أتى من الجليل إلى دمشق في أوائل سنة2001، وسألته عن وادي سلامية الذي ما زلت أذكر عذوبة مائه، فأخبرني بأنه جف نهائياً، وذلك بسبب الإفراط في ضخ المياه الجوفية.

* * *

وبواسطة تلك التجارة التي رحت أمارسها مع أبي أتيحت لي فرصة كافية للتعرف على جزء من الجليل اليانع الفتان. إنه يشبه عشاً صغيراً، ولكنه الجمال بأم عينه. وفي الحق أن أهل الجليل أناس كلهم طيبة ونخوة وشهامة، وأن إنسان الجليل فيه من المناقب، ولا سيما العطاء، ما لا يملك اليهودي المصفرّ الروح أن ينال مثلها حتى ولو عنت، أو بذل قصارى جهده. ولهذا، سأظل جازماً ومتأكداً من أن النصر سوف يكون حليفنا في نهاية المطاف. ومما تنبغي معرفته أن جيش الإنقاذ كان يملأ الأرض، ولا سيما زيتون الرامة ومحيط المغار وكفر عنان والسموعية والصفصاف. وهذه واقعة رأيتها بأم عيني. ولكن ذلك الجيش رحل في اواخر تشرين الأول دون أن يقوم بأية مناوشة ذات بال، سوى واحدة صغيرة جداً جرت قرب مجد الكروم التي هي إلى الغرب من الرامة، وذلك ابتغاء تغطية انسحابه. كما سبق له أن خاض مناوشة حول قلعة جدين لا أتذكر تفاصيلها.

يقيناً، لو أن جيشاً عربياً صغيراً قاتل الصهاينة في الجرمق وإلى جواره لظل ذلك الجبل الأشم في حوزة العرب حتى اليوم، شريطة أن يتوفر الإمداد (والجبل حسب قرار التقسيم للعرب) أقول هذا اعتماداً على حقيقة فحواها أن عدونا جبان ولا يجرؤ على مهاجمة أي جيش عربي. وحين أقول إنهم جبناء فأنا

لا أقصد أن أهينهم، بل أن أصفهم على حقيقتهم تماماً. فهم لا يهجمون على أية أرض إلا بعد إفراغها من القوات العربية، ولا يهاجمون أي جيش عربي ويشتبكون معه إلا إذا كان مجرد مفرزة صغيرة جداً يدهمونها ويفتكون بها، ما لم تنسحب أمامهم. كما انسحبت سرية أردنية من اللد والرملة. ولا يمكن لحصار الفالوجة أن يكون إلا نتيجة مؤامرة، فالهر لا يحاصر النمر. وأهم ما في أمره أن الجنود المصريين قد ظلوا متفوقين على الصهاينة مع أنهم محاصرون. وكانوا يخرجون كل ليلة ويهاجمون مواقع العدو ويلحقون به خسائر ليست بالطفيفة. ولا عجب فالجيش المصري قديم، أما الجيش الصهيوني فحديث الولادة يومئذ. ولهذا السبب فإنهم لم يتجاسروا على أن يقتحموا ذلك الجيش الذي يحيطون به من جميع الجهات. فلو هاجموا لدفعوا الثمن باهظًا. ولكنهم معتادون على أن يربحوا بأقل جهد ممكن، سواء في الحرب أو في التجارة.

ولعل مما هو ذو دلالة أن القيادة المصرية لم ترسل قطعة جديدة من مصر لتفك الحصار عن الفرقة الخاضعة للحصار. وكانت هنالك قطعة مصرية في مدينة الخليل تعدادها أربعة ألاف جندي، ولكن تلك القطعة لم تحرك ساكناً عن ساكن بتاتاً بغية انقاذ من هم في الفالوجة. هذا عدا عن فضيحة الذخيرة الفاسدة التي أعطيت للجنود المصريين.

* * *

ومرت بقية تموز، وكذلك شهر آب كله، دون أي توتر ذي أهمية في الجوار. أما أيلول فكان مضطرباً بعض الشيء. فقد أذيع خبر اغتيال الكونت برنادوت السويدي في القدس، وهو من كان وسيطاً دولياً يتوسط بين العرب والصهاينة.

وذات يوم قصفت الطائرات بلدة مغار حزور وقتلت أربعة رجال من المدنيين الدروز. وكان ذلك القصف بمثابة ضغط على الأهالي ليطردوا جيش الإنقاذ من محيط بلدتهم. وخاف الناس إثر ذلك من قصف جوي أو هجوم بري،

فقرروا أن يرحلوا النساء والأطفال إلى مكان آمن في جبل الجرمق، إذ يتيسر من هناك أن يهاجروا إلى لبنان بسهولة. فللحق أن شبح المجزرة قد أخذ يطارد الفلسطينيين منذ شهر أيار، أو منذ أوائل نيسان.

وفي أيلول انسحب جيش الإنقاذ من جنوب عيلبون إلى المغار، ولا يعرف المرء سبباً لذلك الانسحاب فما كان من الصهاينة إلا أن تقدموا فوراً واحتلوا تلك القرية دون خسائر، أو دون قتال بتاتاً. فالذين يوجهون الأحداث يعلمون علم اليقين أن اليهود لا يتحملون خسائر كبيرة، لأن الخسائر الكبيرة من شأنها أن تبخر المشروع الصهيوني كما يتبخر الماء المعرض لحرارة عالية.

وبما أن رجال عيلبون سبق لهم أن ساهموا في صد الصهاينة عن لوبيا قبل ثلاثة أشهر، فقد جزروا بعضاً من أهل تلك القرية، وطردوا بقية السكان من ديارهم، بعدما أمسكوا الخوري ونتفوا لحيته شعرة إثر شعرة. ورأيت أهل عيلبون وهم يمرون بكفر عنان متجهين إلى لبنان، ولم أشاهد الخوري المعتدى عليه، ولكن الناس شاهدوه وتحدثوا في أمره، وسمعت حديثهم في حينه. بيد أن الصهاينة سمحوا لأهل تلك الضيعة بالإنابة إلى ديارهم بعد برهة وجيزة، فمنهم من عاد ومنهم من ظل في عداد اللاجئين. وأشيع يومئذ أن هنالك من توسط لهم عند الصهاينة.

وإثر احتلال عيلبون وقصف المغار بالطيران، رحلنا إلى جوار قرية اسمها عين الأسد الراخمة على السفح الجنوبي لجبل الجرمق، إلى الشمال من الرامة، والى الجنوب من بيت جن وكنا كومة كبيرة من النساء والأطفال، وأقمنا تحت بعض أشجار السنديان السامقة المتينة. والسنديان شجر جليل مهيب لم أره قبل ذلك اليوم بتاتاً. وكنت أنام تحت سنديانة شديدة الضخامة والسمو لم أبصر لها مثيلاً من بعد إلا في بلاد السويد. وإنني ما زلت دائم التساؤل عن مصير تلك الشجرة التي ألفتها كثيراً، بل ظننت بأنها ألفتني هي الأخرى. كما رأيت إلى جوار الينبوع الذي في تلك القرية الصغيرة جداً أشجار الحور لأول مرة أيضاً.

وأتذكر أنني رحت ذات مرة أتأمل أوراقها وهي تغير لونها من الأخضر إلى الأبيض حين يداعبها النسيم. وكانت تلك لحظة عميقة مترعة بدفء الحياة. ومكثنا في عين الأسد زهاء أسبوع، ثم عدنا إلى كفر عنان.

آه! لكم قاسينا نحن الفلسطينيين لكي ينشأ على أرضنا هذا الغيتو الصهيوني المقيت الذي لا يساوي قشرة بصلة.

* * *

كان جيش الإنقاذ يخيم في زيتون الرامة الواسع المساحة، ولا سيما إلى جوار كفر عنان تماماً. والناس باقون في بيوتهم ما بقي الجيش في مواقعه. وذات يوم راح ذلك الجيش يرحل بسياراته نحو الشمال. ومعنى رحيله أن الصهاينة آتون، إذ هكذا كانت العادة بالضبط. ومع ذلك فقد أشاعوا أنهم هزموا سبعة جيوش عربية. وذلك مما شجع آرثر كوستنر، وهو كاتب صهيوني واسع الشهرة يومئذ، وله رواية عنوانها (ظلام في النهار) على الحديث عن (طرزانات عبرانية). وتلكم هي عبارته بالضبط. يقيناً، إن هذا افتراء على الحقيقة وتزوير لها. فلكي يصيروا طرزانات يجب عليهم أن يخوضوا معركة واحدة تستحق أن تسمى معركة، فهل لهم أن يذكروا اسم معركة واحد خاضوها منذ سنة 1948 وحتى يوم الناس هذا؟ فقط معركة واحدة، وإنني أتحداهم وأتحدى معهم أي مؤرخ ممن يناصرونهم.

أما أهل كفر عنان فقرروا أن يرفعوا الرايات البيضاء، ثم البقاء في بيوتهم. ولكنهم احتاطوا للأمر فأرسلوا شبانهم إلى أعالي الجرمق خوفاً من المجزرة التي سوف يرتكبها الصهاينة ابتغاء إفراغ الأرض من السكان بواسطة بث الهلع في النفوس، مما يحث على السعي وراء النجاة. ولكنهم أوصوهم بأن يراقبوا الوضع، فلئن تبين لهم أن لا خطر عليهم فإن في ميسورهم الإياب إلى القرية، وإلا فإن لبنان قريب.

وكان لأبي خال طيب جداً اسمه ابراهيم. فأخذ ذلك الرجل، وأنا حاضر، يقنع ابن أخته بأن يظل في كفر عنان، شأنه شأن أهل تلك الضيعة. ولكن أبي قال لخاله: أنا من لوبيا التي جرحت أكباد اليهود، واليهود لئام ولا ينسون ثأرهم. فإذا ما دخلوا كفر عنان تركوا القرية كلها وذبحوني مع زوجتي وأولادي. ولهذا، فإننا راحلون عند الفجر. وعبثاً حاول خاله أن يثنيه عن قراره، إذ أصر على موقفه تمام الإصرار.

وفي مساء تلك الليلة، وأظن أنه مساء الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول، وصل خالي أحمد من المغار ومعه رجلان آخران، وكانوا ذاهبين إلى الصفصاف ومعهم حمير تحمل قمحاً للبيع، وذلك بعدما تعلم تلك التجارة من أبي. ولقد سبق أن جاء خالي أحمد وحده ذات مرة إلى كفر عنان ومعه حمار عليه حمل قمح، وطلب من أبي أن يرسلني معه لأدله على الطريق التي صرت أعرفها جيداً بسبب طول الممارسة، فوافق أبي في تلك المرة الأولى، وذهبت مع خالي إلى الصفصاف، وبعنا القمح واشترينا البندورة وعدنا إلى كفر عنان، فذهبت إلى أسرتي، وتابع الرجل مسيره إلى المغار، حيث يقيم ذووه.

وفي هذه الليلة، وهي آخر ليلة قضيناها في فلسطين، جاء خالي بصحبة الرجلين اللذين ذكرتهما للتو. وطلب من أبي أن يرسلني معهم لأدلهم على الطريق. فما كان منه إلا أن رفض رفضاً باتاً، لأنه قرر الرحيل إلى لبنان. ونصح لهم بأن يتخلوا عن القمح وأن يعودوا إلى ذويهم. فالجيش قد رحل، واليهود آتون لا محالة، ولم يبق إلا أن يحسم المرء موقفة ويتخلص من التردد.

وذهب الرجال الثلاثة دون أن أرافقهم. وناموا تلك الليلة في الصفصاف التي تبعد زهاء عشرة كيلو مترات عن كفر عنان باتجاه الشمال. وقبيل الفجر هجم الصهاينة على تلك القرية آتين من صفد. ومن عادتهم أن يهجموا في السَحر، أي قبيل الفجر دائماً. وجمعوا الناس على البيادر، وهناك ارتكبوا مجزرة مروّعة، إذ أبادوا اثنين وتسعين شاباً رمياً بالرصاص، مع أن تلك القرية لم تطلق

عليهم أية نيران، ومع أنه لم يحدث فيها أي قتال مهما يك نوعه. (لقد حرّموهم للرب)، كما تقول توراتهم.

أما الرجال الثلاثة فلم يذهبوا إلى البيادر، بل تخلوا عن القمح والحمير، ونزلوا إلى وادي الجش القريب من الصفصاف، والذي يشبه الملجأ لشدة عمقه. وساروا غرباً إلى لبنان، والتقينا بهم مساءً في قرية الرميش، أي بعد مضي أربع وعشرين ساعة على لقائنا بهم في كفر عنان.

ولم يكتف الصهاينة بمجزرة الصفصاف، ولا بتشريد أهلها، بل قصفوا بلدة الجش القريبة جداً بمدفعية الدبابات، فقتلوا عدداً من الناس في داخل بيوتهم، كما أبادوا أسرة من حطين سبق لها أن التجأت إلى الجش وأقامت في مدرستها التي قصفها الصهاينة فأبادوا جميع اللاجئين القادمين من الجنوب، والذين كانوا يقيمون فيها. إنهم يبتغون طرد الناس إلى خارج الحدود ليُعدوا الأرض لاستقبال اليهود الآتين من الجهات كلها.

وعند ذاك وصل باصان يحملان مائة جندي سوري أتوا من دمشق لينجدوا القرى الشمالية المنكوبة، وعندما بلغوا أرض الجش من الجهة الغربية وجدوا أنفسهم محاطين بدبابات الصهاينة. ولم ينج من الباصين إلا القليل جداً، هذا إن كان أحد قد نجا بالفعل. (المصادر الصهيونية تجعل مكان الكمين في سعسع التي هي إلى الغرب من الجش).

وذكر الإرهابي بن غوريون في مذكراته، وهو اول رئيس للعصابات الصهيونية، أن بعض المجازر قد ارتكبت في الشمال وفي الجنوب، أثناء تلك البرهة. ولا ريب في أنه يقصد مجزرة الصفصاف ومجزرة الدوايمة. فمما هو ناصع تمام النصوع أنهم طاردونا بالمجازر كي نخلي لهم أرضنا ليؤسسوا عليها هذا الغيتو الدموي الذي لا يتمتع بالأمن ولا يسمح للمنطقة كلها بأن تتمتع بالأمن. فلقد ارتكبوا كل شناعة وفظاعة من أجل تجمع متفسخ أو فاسد سلفاً، وقائم على امتصاص دماء الشعوب المنهوبة. إنه تجمع طفيلي يعيش عالة على

سواه. ولهذا، لا بد للعالم من أن يعافه ويمل منه، عاجلاً أم أجلاً، إذ السأم داء من أدواء البشر لا علاج له البتة. وسوف لن أمل من التكرار بأن الغيتو الصهيوني لا يساوي قشرة بصلة، كما يقول أهل بلدتنا حين يريدون أن يقيموا شيئاً لا قيمة له.

* * *

قرر أبي أن نرحل قبيل الفجر، ولكن خاله أصر على أن تبقى جدتي عند إخوتها. وتيقنت أن لا لقاء مع جدتي بعد ذلك اليوم. وأنا أحب تلك العجوز كثيراً جداً، ولكنها تحبني أكثر مما أحبها بكثير. وبكيت بإفراط بسبب فراقها، ذرفت ساخن الدمع ونشجت وأعولت بمرارة بسبب الفراق، بل بكيت على نحو لم أعرفه من قبل ولا من بعد. وبكت العجوز بحرقة، بل بكت جميع النساء اللاتي كن في ذلك البيت الواسع الكبير. إن زمن اليهود هو زمن الدموع والنواح. (عند أنهار بابل جلسنا وبكينا.) ولكن النعاس غلبني فنمت باكراً. وها هنا يحق لكل عاقل أو حساس أن يتساءل عن قيمة هذه الحضارة الحديثة الموغلة في صنع الأسلحة الجحيمية، والتي تفرق بين الأم وطفلها، أو بين الجدة وحفيدها.

ترى، ماذا عساها أن تكون قيمة حضارة بلا ضمير؟ آه يا جدتي البريئة الطيبة النقية الصافية! يا إلهي، كيف تكون الحملان محاطة بالذئاب؟ إن الفرق، وليس اللافرق، هو ما ينبغي أن يكون مدار الحساسية والعقلانية في آن معاً.

وعند الفجر أيقظونا نحن الأطفال، فودعت جدتي بالبكاء من جديد. إنه فجر لا أنساه مهما أعش، وعندما أتذكره فإن صورة عمائية تخطر في بالي أو تتشكل في خيالي، إذ أننا لم نكن نعرف الى أين نحن ذاهبون. وخرجنا من البيت في الغبش الذي يصنعه الفجر نفسه، ولكن النجوم الزاهرة، قد تلامحت بهرتها بفتون، فهي لم تزل تتألق في الفضاء. ولم نسر على الطريق المعبد الذي يربط كفر عنان بالرامة. بل سرنا على درب ترابي يتجه غرباً في السفح الأدنى لجبل

الجرمق وبلغنا الرامة بعد بزوغ الشمس ثم صعدنا شمالاً الى عين الأسد، واجتزناها الى أعلى صوب قرية أخرى اسمها بيت جن.

وفي منتصف الدرب بين القريتين، صادفنا شبان كفرعنان الفارين من وجه الصهاينة. لاقيناهم هناك في أعالي الجرمق وكان عددهم يربو على العشرين. فجلسنا على الأرض جميعاً. وأخرج أبي علبة التبغ المعدنية ولف سيجارة بيده، ثم ناول العلبة لكل من أراد أن يدخن. وعند ذاك سألوه: ما هو رأيك، يا أبا يوسف؟ ماذا نفعل؟ أنرجع الى القرية أم نمضي إلى لبنان؟ إننا منقسمون على أنفسنا فمنا من يريد الرجوع ومنا من يريد اللجوء. فأشر علينا.

فقال أبي: كونوا جميعاً على يقين من أن اليهود لئام لا يؤمن جانبهم بتاتاً. إياكم والعودة إلى القرية. إن لبنان على مرمى حجر فاعبروا الحدود فهناك سوف تجدون أعمالاً وتعيشون، شأنكم شأن هذه الجموع البشرية التي ترونها راحلة الى بلاد الله الواسعة. وأشار بيده إلى رتل كبير من النازحين يسيرون على الدرب. ثم أضاف: وإن لم يتيسر لكم العمل في لبنان فارحلوا إلى سوريا وخاصة إلى دمشق فالعمل هناك متوفر جداً.

فقال بعضهم: وكيف نترك أهلنا وبيوتنا وأرضنا؟ وكيف نتحول إلى لاجئين بائسين؟ وقد لا نجد عملا في لبنان ولا في سوريا، وعند ذاك سوف يتحتم علينا أن نتسول. فقال أبي: لقد أخلصت لكم النصيحة، وهذا هو حقكم عندي. وإني أحذركم مرة أخرى من العودة الى القرية. وأرجو لكم السلامة، وأستودعكم الله رب العالمين.

وتركناهم منقسمين على أنفسهم، ومضينا الى هدفنا. وشعرنا بالتعب والجوع الشديد، بل ابتدأ جوعنا منذ ذلك اليوم حصراً. وشكونا الجوع للوالدين، فقال أبي بأنه يعرف شاباً في بيت جن كان وإياه يعملان معاً في سلك الشرطة، فإن وجده أكلنا وشبعنا. وبالفعل التقينا بالرجل، وهو شاب أصغر من أبي ببضع سنوات، وله زوجة شابة في مقتبل العمر. كما كان والد الشاب في البيت وكذلك

والدته. ورحبوا بنا ترحيباً صادقاً، وجاؤونا بالطعام دون أن نطلبه. وكان الطعام يتألف من دبس العنب واللبن والخبز. وأكلنا حتى الشبع حقاً. ثم أعطونا خبزاً مدهوناً بالدبس من أجل عشائنا. وأخيراً ودعناهم ومضينا الى لبنان التي صارت قريبة جداً.

ومررنا الى الغرب من قرية اسمها حرفيش. وهي آخر قرية فلسطينية من جهة الشمال. كما أن بلدة دير القاسي كانت الى الغرب منا، أي الى يسارنا. ثم عبرنا خطاً معبداً يتجه من الشرق الى الغرب أو العكس، وشاهدنا قرية سعسع القريبة من الجش، والتي كانت الى الشرق أو الى اليمين. ثم هبطنا أرضاً منحدرة، فوصلنا عند غروب الشمس الى قرية اسمها رميش، وهي القرية اللبنانية الأولى. وطلبنا الماء فلم نجده، ولكن كانت هنالك بركة تشرب منها المواشي وتبول فيها، أما لون الماء فهو أسود أو ربما ضارب الى الزرقة أو الى الخضرة بسبب كثرة الأوساخ. وبسبب تعذر الحصول على الماء النقي، شربنا منها جميعاً، بل شرب منها آلاف اللاجئين المحتشدين في ذلك المكان.

والتقينا ببيت جدي علي بالصدفة عند حافة تلك البركة. كما التقينا بخالي أحمد وبالرجلين اللذين كانا معه. وسردوا علينا ما قد جرى لهم خلال الساعات الأربع والعشرين السابقة، أي منذ أن تركونا في كفر عنان وحتى التقينا في الرميش.

ورأيت عدداً كبيراً من النساء والأطفال يبكون بسبب ما هم فيه من كرب وبلاء. ولم يبك الرجال لأن بكاءَهم عار كبير في تقاليدنا، فلا يجوز للرجل أن يبكي إلا إذا توفي شاب ذكر من أقربائه. وسمعت من يقول بأن هذه الكارثة لو حلت بفرد لقتل نفسه، ولكنها عامة، وفي ذلك عزاء لكل منا. وكان لهم عزاء آخر في اعتقادهم بأن ما يجري هو إرادة الله رب العالمين، وهو من لا رادّ لإرادته بتاتاً.

ولكن الجميع راحوا يشتمون الانجليز واليهود وملوك العرب، لأن هؤلاء هم الجذور الثلاثة التي أنتجت فجيعة حلت بالشعب الفلسطيني. وقد ظل الفلسطينيون حاقدين على أولئك الملوك طوال عشرات السنين، كما ظلوا حاقدين على الإنجليز حتى اليوم. وسمعت الكثيرين يرجون الله أن ينتقم من الانجليز واليهود وملوك العرب. ومما تقتضيه الأمانة أو الإخلاص للحقيقة أن أذكر أن الفلسطينيين كانوا وما زالوا ينظرون إلى الانجليز بوصفهم أحذية ينتعلها اليهود، بل إنهم شطر من مقتنيات اليهود. أما تاريخ ذلك اليوم العصيب فهو التاسع والعشرين من تشرين الأول، إذ في ذلك اليوم حصراً حدثت مجزرة الصفصاف ومجزرة مجد الكروم. وعندي أن من واجب كل فلسطيني أن يسجل جميع تلك الأخبار، ولا سيما أخبار المجازر، على شغاف قلبه، إذ لا بد من أن يجيء العقاب ولو بعد ألف سنة. ولكن العقاب لن يجيء إلا إذا ظلت ذاكرتنا حية وناشطة حتى يوم مجيئه.

ونمنا تلك الليلة في العراء عند الحافة الجنوبية لبركة الرميش. وفي الصباح رحنا مشياً على الأقدام إلى بلدة قريبة اسمها بنت جبيل. ولكننا لم نقم فيها، بل تابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى قرية اسمها بيت ياحون. وبالقرب من جدار، أو ربما بناء مهجور، وضعنا أمتعتنا القليلة وجلسنا على الأرض. وجمعنا شيئاً من الحطب وطبخنا المجدرة. وبقينا هنالك لبضع ليال. وكان معنا بيت جدي كلهم، وكذلك خالتي ذيبة وزوجها وطفلها سعيد.

وهكذا فعل الصهاينة بنا ذلك الفعل اللئيم الذي لا يفعله أحد سوى اولئك الحاقدين على الجنس البشري كله. ولو كانت فيهم ذرة من إنسانية لما شردونا بهذه الطريقة الإجرامية السوداء. إن تشريدنا على هذا النحو الاضطهادي هو أنذل فعل بين جميع الأفعال التي فعلتها البشرية بأسرها، وإن الذين شردونا هم أنذل أصناف الجنس البشري على الإطلاق. ولكن، لا ريب في أننا محظوظون، إذا وازن المرء بين مصيرنا ومصير الهنود الحمر.

إن اليهود وأدواتهم الغربيين قد فروا أكبادنا وأدموا قلوبنا، وإن ما فعلوه بنا هو جرح لا يندمل، ولو بعد مئات السنين. ومع ذلك، فإن الغربيين كلهم يرددون قائلين في مطلع القرن الحادي والعشرين: على الفلسطينيين أن يوقفوا ارهابهم.

* * *

أما شبان كفر عنان الذين تركناهم في أعالي الجرمق، فقد سار بعضهم إلى لبنان، ولكن معظمهم رجعوا إلى قريتهم، وناموا ليلتين في بيوتهم. ودخل الصهاينة كفر عنان في صبيحة الثلاثين من تشرين الأول. وكان معهم أفراد من يهود العالم العربي الذين يتكلمون اللغة العربية مثلنا تماماً. فأخذوا يقرعون الأبواب ويأمرون الناس بالاحتشاد على البيادر. وهذا يعني المجزرة. وبالفعل انتقوا أربعة عشر شاباً ممن كانوا في ريعان العمر، وأخذوهم إلى كروم الزيتون المجاورة، وأطلقوا عليهم النار، باستثناء شاب واحد استطاع أن يهرب بين الزيتون وينجو. وهذه مجزرة أخرى من المجازر التي أشار اليها بن غوريون في مذكراته. وقد ارتكب الصهاينة تلك المجزرة مع أن كفر عنان لم تطلق عليهم طلقة واحدة، ومع أنه لم يجر فيها أي قتال. وهذا دليل على أنهم يريدون الأرض خالية من السكان.

ومما هو مثير للشعور بالتقزز أن الغربيين والصهاينة قد حاولوا أن يرسخوا مفهوماً خلاصته أن الارهاب هو أن يدافع البشر عن أنفسهم ضد هذا الشر الذي يجهل الحدود.

وكان بين القتلى في كفر عنان شاب وسيم أصله من مدينة صفد، وكله جمال وهدوء وصفاء. وقد جاء في أيار مع أمه وزوجته وابنته الوحيدة التي كانت ما تزال في طور الرضاع، وسكنوا في كفر عنان بدلاً من الاتجاه إلى لبنان، ظناً منهم أنهم سوف يعودون إلى بيتهم عما قريب. وكان له أخ استشهد في صفد أثناء الصدامات. ولم يكن الشاب يدري بما أصاب أخاه الشهيد، إذ قالت له أمه بأنه لجأ إلى لبنان، وأنه سوف يأتي بعدما تستتب الأوضاع. ورحلت أمه وكنتها

وحفيدتها إلى دمشق، وسكنّ في حارة اليهود، وذهبت أمي إلى بيتهن وزارتهن وجاءتني ببعض أخبارهن.

وما زلت أتذكر ذلك الشاب الصفدي المسالم الهادئ الناعم الشديد الطيبة. كان أبيض الوجه، شأنه في ذلك شأن معظم أهل صفد. وكان أنيق الهندام، نظيف الثياب، ويحمل ساعة في يده اليسرى، الأمر الذي لم يكن كثير الشيوع في تلك الأيام.

وبعدما جزر الصهاينة اولئك الشبان الأبرياء بالرصاص، احتشدوا حول جمهور الناس وأخذوا يضربونهم دون أن يحترموا شيخاً أو امرأة، كما أنهم لم يشفقوا على الأطفال، ولا قدموا لهم أي غذاء قط. وظلوا يطاردون أهل تلك القرية، وفيهم جدتي خضرا، بالضرب والركل حتى قذفوا بهم إلى خارج الحدود. ولقد حدثت مجزرة كفر عنان بعد مضي يوم واحد على مجزرة الصفصاف الآنفة الذكر. وبذلك يكون الصهاينة قد ارتكبوا بضع مجازر في الجليل، ولكن أكثرها شناعة مجزرة الصفصاف ومجزرة عين الزيتون التي تنم تفاصيلها المريعة عن مرض يعطب جذور الشخصية اليهودية الصفراء اللون.

لقد طرد الصهاينة أهل كفر عنان من ديارهم، ثم هدموا بيوتهم وأحالوها إلى خرائب، مع أن اولئك الفلاحين الأبرياء لم يطلقوا على العدو رصاصة واحدة في أي يوم من الأيام، بل إنهم لم تكن لديهم أية قطعة سلاح، باستثناء مسدس لواحد من ابناء أخوة جدتي اسمه محمد. فهدف المذبحة واضح لا يخفى على أحد.

ومنذ سنوات قليلة، اجتمعت في مخيم اليرموك برجل كان مع الشبان الذين التقينا بهم في أعالي الجرمق بين عين الأسد وبيت جن، ولكنه من الفئة التي قبلت بنصيحة أبي والتجأت إلى لبنان. وحين رآني بادرني بالقول: رحم الله والدك، لقد كان حكيماً. أتذكر يوم التقينا في الجرمق؟ فقلت له: أذكر. فقال: إن أباك حذرنا من اليهود ولؤمهم الأسود. ولكن لا ينفع حذر من قدر.

ولقد أشاع الصهاينة أننا غادرنا بلادنا بسبب رهاب الحرب. وفي الحق أنهم طردونا عمداً، وبقوة السلاح، وكانت المجزرة هي الطريقة التي استعملوها للهيمنة على أرضنا. وأنا لم أذكر جميع المجازر التي ارتكبوها في فلسطين خلال النكبة، وخاصة مجزرة المنشية في يافا، ومجزرة اللد المروّعة التي جرت في شهر تموز، وكذلك مجزرة أسدود في أواخر تشرين الأول. حبذا لو قام أحد كتابنا بتأليف كتاب مخصص للمجازر التي مُني بها شعبنا منذ سنة 1948 حتى اليوم. إنهم ما زالوا يلاحقوننا بالمجازر، كما أنهم ارتكبوا عدة مجازر في مصر ولبنان، وكانت ضحاياها من المصريين واللبنانيين. وبهذا يثبتون أن الغيتو الذي بناه لهم الغربيون سوف يكف عن الوجود يوم يكف سكانه عن القتل وسفك الدماء. ومن واجب كل فلسطيني أن يسجل أخبار تلك المجازر أو تفاصيلها على شغاف قلبه، وذلك لأن هذا التسجيل هو التأسيس الأول ليوم العقاب الذي سوف يأتي دون أدنى ريب ولو بعد ألف سنة.

* * *

وفي بيت ياحون بعنا حمارنا بست ليرات لبنانية، واستأجرنا سيارة تكسي نحن وبيت خالتي ذيبة، ورحنا إلى صور، بعدما تركنا أسرة جدي في تلك الضيعة. ودفعنا ثمن الحمار كله للتكسي، أو للسائق الذي قال لنا: إن قطاراً يجيء كل مساء إلى المحطة في صور ويشحن اللاجئين مجاناً نحو الشمال. سآخذكم إلى المحطة، وهناك تركبون وتسافرون إلى حيث يشاء الله.

وبالفعل وصلنا إلى المحطة، وركبنا القطار مع سوانا من اللاجئين، وفيهم أناس من أهل بلدتنا. وسار بنا القطار نحو الشمال. وجُعنا في الطريق كثيراً، وذلك لأن الليل انتصف ونحن مازلنا دون عشاء. وحينما توقف القطار في محطة بيروت، نزل أبي ليشتري لنا طعاماً، فوجد بائع سندويش، وسأله عن ثمن السندويشة، فقال: ربع ليرة. فقال له أبي معنا نقود فلسطينية، وربع ليرتكم تساوي قرشين فلسطينيين، أو أكثر بقليل، سأعطيك ثلاثة قروش لكل سندويشة، فهل

تقبل؟ ولكن البائع قال إنه لا يأخذ أية عملة سوى العملة اللبنانية. وهكذا بقينا بلا طعام.

وحين وصلنا إلى طرابلس، وتوقفنا في المحطة عند الفجر، نزلت بعض النسوة إلى الأرض وأشعلن ناراً وخبزن شيئاً من الخبز على الصاج. ونحن نسمي ذلك النوع من الخبز الرقيق جداً باسم الشراك. وحين انتهين صببن ماء على ذلك الصاج ليبرد، كما صببن ماء على النار لتنطفئ. ثم حملن الخبز والصاج معاً وصعدن إلى القطار. وأعطيننا بضعة أرغفة أكلناها بغير إدام.

وتابع القطار مسيره إلى حمص ثم إلى حماة. ونزلنا في المحطة بناء على أوامر السلطة، وجاءت سيارات شاحنة وشحنت الناس ونحن معهم إلى الجامع الكبير القريب من الناعورة. ووجدنا الجامع مكتظاً باللاجئين، وحين وصلنا إليه صار شبيهاً بالمحشر. ومكثنا في حماة أسبوعاً كاملاً. وكان هنالك من يوزعون علينا شيئاً يسيراً من الطعام دون ثمن كل يوم. ولكنه طعام يتألف من الخبز واللحم المعلب فقط.

وشاهدت النواعير لأول مرة في حياتي، كما شاهدت المصباح الكهربائي عن كثب أيضاً. وكنت أتساءل أنا وأخي محمد حول كيفية إشعال اللمبة وإطفائها. ووقفنا تحت إحدى اللمبات ذات مساء لنشاهد كيف يبدأ الاشتعال، ودهشنا عندما رأينا أنه يتم فجأة ودون تدخل الأيدي بتاتاً. إن الأمر يشبه السحر حقاً. وفي الصباح وقفنا تحت إحدى اللمبات لنشاهد كيفية الاطفاء، وفوجئنا بأنه يتم على نحو تلقائي أو فجائي أيضاً.

وبعد أسبوع جاءت سيارات شاحنة، وأخذت تنقل الناس إلى القرى المجاورة. وركبنا في سيارة واحدة زهاء سبع أسر أو أكثر بقليل، وكنا من أهالي لوبيا. وأنزلتنا السيارة ليلاً على الطريق العام الذي يصل بين حماة وحلب، وذلك في قرية اسمها مورك. ونمنا في بيت إلى يمين الطريق لم يكن بناؤه قد اكتمل، فضلاً عن أنه لم يكن مأهولاً بتاتاً. وفي الصباح جاء بعض الرجال والنساء من

أهل مورك، وجلسوا معنا يسألوننا عن أحوالنا ويرحبون بنا ويواسوننا لما حل بنا من مصائب على أيدي الصهاينة اللئام.

وعند ذاك بكت أمي وخالتي، وبكت النساء الفلسطينيات كلهن، ثم بكت نساء مورك، وبكى الأطفال وأنا منهم. فكانت هنالك مناحة في ذلك الصباح الذي لا أنساه ما حييت. أما الرجال فجلسوا واجمين صامتين ساكنين كأنهم مصنوعون من الحجارة أو المعادن. وتنطوي تلك اللحظة على حقيقة فحواها أن زمن اليهود هو زمن الدماء والدموع والنواح والبؤس والشقاء بأشكاله كافة. وكلما تذكرت ذلك الصباح فإنني أتذكر ما جاء في أحد أسفار التوراة: عند أنهار بابل جلسنا وبكينا. وإنني اليوم جازم بأنهم سوف يبكون مرة ثانية إلى جوار شيء ما، وذلك عقاباً لهم على ما أنزلوه بنا من ويلات ومصائب يحتم طبع الأشياء أن لا صلح بعدها بتاتاً. أو يعقل أن ينشأ سلام طبيعي بعد هذا الاجتثاث الهمجي الذي مارسه علينا اولئك الذين لا ضمائر لهم بتاتاً؟

ومنذ تلك اللحظة أدركت فحوى الفاجع أو محتواه، وفهمت أن الألم أو البؤس هو المحتوى الأول لهذا الكون الشقي. كما أدركت أن الألم والشر هما المقولتان السيدتان في المعجم البشري كله. ولقد أسسني ذلك الصباح وحدد شخصيتي الملتاعة الحزينة إلى الأبد. كما أنه أعدني لقبول أفكار البودا والمعري وشوبنهاور المتشائمة. وهيأني للاعتقاد بأن التراجيديا هي أرقى شكل أدبي أو فني أنتجه الإنسان.

وراح أهل مورك يواسوننا ويذكروننا بالصبر الذي امتدحه الله في كتابه الكريم. ثم أخذونا إلى داخل القرية، وأعطونا بيوتاً وجاؤونا بالطعام والماء، ورحبوا بنا أجمل ترحيب. فلا ريب في أن الانسان الطيب موجود في كل زمان ومكان حتى في بلاد الغربيين التي هي قلاع للشياطين.

وكان هناك في مورك تل صغير رحت أرتقيه كثيراً بصحبة بعض الأولاد من أبناء تلك البلدة، إذ سرعان ما شكلت صداقات مع أطفال من جيلي، ورحنا نلعب على ذروة التل، كما رحنا نتسابق في صعود وهبوط.

وعلمنا أن بيت جدي علي يسكنون في بعلبك وعندئذ استطاعت خالتي ذيبة أن تقنع زوجها بالرحيل إلى تلك المدينة اللبنانية. وبالفعل سافرت بصحبة زوجها وابنها، وبقينا نحن في مورك. فلقد وجد أبي عملاً يقينا غائلة الجوع. وحاولت أمي أن تقنع والدي بالرحيل فرفض، وقال لها أن سوريا أحسن من لبنان، لأن العمل فيها متوفر أكثر مما هو متوفر في سواها من الأقطار المجاورة لفلسطين.

كان هنالك رجل ثري اسمه الحاج كرمو، لديه سيارة شاحنة يسوقها واحد من أولاده. فصار أبي عاملاً يشحن تلك السيارة ويفرغها. وكان أجره ليرتين سوريتين يومياً. وهذا مبلغ جيد في ذلك الحين. وفي الحق أن أبي كان حكيماً دوماً فقد ثبت فيما بعد أن سوريا أفضل من لبنان للفلسطينيين، أقله من الناحية المادية، ولا سيما خلال السنوات الثلاثين التي تلت النكبة مباشرة.

ولكن حادثاً مأساوياً قد حدث فعكر علينا صفونا في مورك، وهو أن أختي مريم، التي كان عمرها ثلاثة شهور فقط، مرضت وماتت، دون أن يراها أي طبيب، إذ لم يكن هنالك طب في تلك القرية بتاتاً. إن جسمها لم يتحمل ذلك العذاب الشديد، فآثرت الموت على حياة أفسدها الصهاينة والغربيون وشحنوها بالبؤس والشقاء. ولكن ذكراها هيأتني للانفعال كثيراً بالسؤال الذي طرحه المعري ذات يوم حين قال:

فربنا، جلّ، موصوف برأفته فكيف يُمحن أطفال بإيلام؟

أي لماذا يتعذب الأطفال وهم أبرياء؟ ومما هو جدير بالتنويه في هذا الموضع أن دستويفسكي قد طرح هذا السؤال نفسه بعد أبي العلاء بثمانية قرون. إنني دائم التساؤل عن جداء هذه القسوة كلها، أو عن سرها، إن كان لها سر،

مهما يك نوعه. فيا لهذا العذاب الذي لا مسوغ له بتاتاً، ويا لهذا الجحيم الذي يغمر سطح الأرض بأسرها! وحبذا انسانية المعري الذي أثار هذا السؤال الكبير، والذي جعل هموم الجنس البشري همومه الخاصة. ويبدو لي أنه ما من كبير سوى الملتزم بإنسانية الانسان.

* * *

وذات يوم فوجئنا بخالي محمد يدخل بيتنا في مورك، إذ أخبرته خالتي ذيبة بمكاننا. وابتهجنا بقدومه كثيراً، ورحب به بعض أهالي مورك الطيبين. وطلب الينا أن نجمع أشياءنا ونستعد للرحيل. وأخيراً وافق أبي، ولكن على مضض. ورحلنا إلى بعلبك، بعد ما قضينا ثلاثة أسابيع في مورك الواقعة إلى الشمال من حماة على طريق حلب.

وكان وصولنا إلى بعلبك في مساء اليوم الأول من كانون الأول سنة 1948، واجتمعنا بأسرة جدي علي وسررنا بلقائها في نهاية المطاف. وابتدأ طور جديد من حياتي في مدينة الشمس التي لم تكن سوى قرية كبيرة في تلك الأيام، إذ رحت أكبر وأنضج بالتدريج حتى صارت كل خلية من خلايا جسدي مترعة بالرغبة في الغناء.

الخاتمة

لم أقل كل ما لدي، بل إن الكثير مما هو في كنه الشأن، أو في لبابه، قد ظل طي الكتمان، ولا أدري كيف سأتمكن من إرساله الى الأجيال التي لم تولد بعد. ولكنني شرحت حقيقتين جد هامتين، وهما (1) إن الصهاينة قد استولوا على بلادنا فلسطين بواسطة مؤامرة عالمية شاركت فيها الحكومات العربية القائمة حينذاك، و(2) إن طردنا من ديارنا قد تم بالسلاح والمجازر التي ارتكبها اولئك المجرمون في مدننا وقرانا خلال عام النكبة، وليس بسبب أية حرب مزعومة لم تحدث قط. ولهذا، فإن كل من يتعاطف مع الصهيونية ليس كائناً بشرياً بتاتاً، وذلك لأنه يصطف مع القاتل ضد القتيل.

بيد أن ثمة حقيقة ثالثة ينبغي التنويه بها ولو لمحاً، وخلاصتها أن دويلة اليهود الزائفة والمصطنعة ما كان لها أن تنشأ على أرضنا إلا لأن العالم العربي هو المنتج الأول للنفط في العالم. فلولا نفط العرب لما قيض لذلك الغيتو أن يعرف دربه إلى الوجود. ثم إنه لكيان نموذجي في شذوذه ذاك الذي ينشأ بوعد من وزير خارجية إحدى الدول، وكذلك بقرار يصدر عن تلك المؤسسة الامبريالية التي تسمّى الأمم المتحدة، وبدعم مادي ومعنوي يأتيه من ألف جهة وجهة.

فالقول بأن الصهاينة قد هزموا الجيوش العربية هو افتئات على الحقيقة، بل إنه مذهب موغل في السخف ومستتب في الوهم، وذلك لأن الصهاينة لم يحاربوا بل ناوشوا فقط. وكانوا دائماً خاسرين في جميع الصدامات التي خاضوها ضد الجيوش العربية باستثناء اشتباكهم مع مفارز عسكرية صغيرة جداً. فمما هو في العجائب والغرائب أنهم خسروا جميع المناوشات الكبرى وربحوا تلك الجولة الأولى من جولات الصراع، أو أحرزوا نصراً مؤزراً حين حصلوا على وطن بني أحسن بناء من ثروات العرب الجياع.

وظهر الأمر للعالم وكأنهم هزموا الجيوش العربية السبعة التي ما أدخلت إلى فلسطين إلا لتهزم. أما جلية الأمر فتتخلص في أن الصهاينة ما قهروا إلا الشعب الفلسطيني الأعزل الفقير. ولكن ما ينبغي أن يلفت الانتباه على نحو خاص هو أن الصهاينة قد تعمدوا إهانة مصر وجيشها عن تدبير مسبق. نعم، أهانو الجيش المصري ومرّغوا أنفه بالوحول ثلاث مرات (1948، 1956، 1967)، فظهر كخرقة بالية أمام الطرزانات الصهيونية. (حصار الفالوجة، الذخيرة الفاسدة، الانسحاب أمام الجيش الصهيوني ثلاث مرات في سيناء، قصف بحر البقر، قصف سجن أبو زعبل). ولا ريب في أن هذه الإهانات التي وجهت الى مصر بالتواطؤ مع من يخدمون الصهيونية فيها، مقصودة لغرض لا يخفى على الألباء. فإظهار مصر، أكبر قوة عربية، بمظهر العجز أو عدم الكفاءة من شأنه أن يبث اليأس والميل إلى الاستسلام في نفوس العرب كلهم، ولا سيما المصريين. كما أن إخراج مصر من حلبة الصراع هو تمهيد لإذعان البلدان العربية الأخرى بأسرها، بل لإخضاع البلدان الإسلامية كلها، من المغرب إلى اندونيسيا. فمما هو جلي أمام البصيرة أن انتصار الصهيونية يبدأ من تحييد مصر ودفعها إلى رصيف التاريخ بدلاً من مجراه الحي. وفي اجتهادي الخاص أن الجيوش العربية، التي كانت وما زالت بعضاً من مقتنيات الامبريالية، ما أدخلت إلى فلسطين، حيث مثلت تمثيلية الحرب المزورة، إلا لتنجز أربعة أهداف صهيونية على الأقل، وذلك بعد أن تهزم على نحو زائف، وناصع نصوع الشمس في رأد الضحى:

أولاً– زرع اليأس في نفوس العرب المتحمسين لتحرير فلسطين ودفعهم صوب القبول بالغيتو الصهيوني والتسليم بشرعية وجوده على أرض فلسطين.

ثانياً_ اقناع اليهود المبثوثين في عشرات الأقاليم بأن العرب ليسوا خطرين بتاتاً، بل إنهم أذل من النمل، فلا يملكون إيذاءً لأحد حتى لو حاولوا. وبذلك انعكست الحقيقة، فصار الجبان شجاعاً والشجاع جباناً. لقد كنا نسمي

اليهود (أبناء الميتة) لشدة جبنهم وذلهم، ولكنهم بهذه الانتصارات المزورة قد أوهموا العالم بأنهم (طرزانات عبرانية)، على حد عبارة آرثر كوستلر. يقيناً، إن انتصار اليهود الجبناء هو علامة من علائم اتضاع الجنس البشري وانحلاله وميله الى التيبس الذي من شأنه أن يمهد للزوال.

ثالثاً– تبدّى الغيتو الصهيوني وكأنه معتدى عليه ويحتاج إلى دعم وتأييد بالمال والسلاح والمتطوعين، كما تبدى اليهود وكأنهم أبرياء وطيبون، بل ضحايا لهمجية الإرهاب العربي، مع أنهم ليسوا سوى أهل ملة هي الأكثر خسة ولؤماً بين جميع الملل والنحل. وبينما كانوا يوهمون العالم بأنهم عرضة لمحرقة على أيدي العرب هذه المرة، فقد راحوا يجزرون الشعب الفلسطيني دون رحمة ويصادرون أرضه ويشردونه تحت كل سماء. فصفق لهم العالم ظناً منه أنهم أبطال ميامين تمكنوا من أن ينافحوا عن أنفسهم وأن يحرزوا نصراً غير مسبوق. وهذا هو الخبث الذي لا يمازجه شيء.

رابعاً– إعطاء اليهود فرصة للزعم بأن الحرب هي التي شردت الفلسطينيين وطردتهم من ديارهم وحقولهم وبعثرتهم في جميع الجهات، مع أن الفلسطينيين ما شردهم من أرضهم سوى مسلسل المجازر الذي ارتكبه الصهاينة في عام النكبة. ثم إن مثل هذه الفرية لا يصدقها إلا معتوه، وإلا فلماذا لم يسمحوا للاجئين بالعودة الى بيوتهم بعد انتهاء الحرب المزعومة؟

يقيناً، إن الخبث الشديد السواد هو الذي أدخل الجيوش العربية الى فلسطين في سنة الكارثة، وذلك لتناوش ثم تهزم على نحو مزور، فتحقق لليهود جميع غاياتهم.

وأياً ما كان جوهر الأمور، فإن ما قد جرى في منطقتنا منذ النكبة وحتى يومنا الراهن لا يندرج البتة في النواميس المعروفة للتاريخ البشري، ولا يتساوق مع المجرى المألوف لأحداث الزمان، وإنه ليلوح لي بوصفه شيئا غير مسبوق في غابرات القرون. ثم إن من لم يستوعب شذوذ ما جرى لا يجوز أن يقال عنه بأنه

مؤرخ من أي نوع كان، لأنه لم ينتبه للوقائع، ولم يستطع أن يستخلص منها ما يندرج في جوفها من حقائق.

ولسوف يدهش المؤرخ في المستقبل حين يكتشف أن إسهام العالم العربي في إنشاء الغيتو الصهيوني أكبر من إسهام الغربيين والشرقيين معا. فلقد بني الغيتو الصهيوني على أرض العرب وبموافقة الرسميين منهم ورضاهم وجهودهم، ولكن على حساب الجماهير العربية الفقيرة. وإنني أؤكد للمؤرخ الذي لم يولد بعد أن استيعاء المعضلة الفلسطينية سوف يظل متعذرا مالم يستعن المرء بمقولة (المؤامرة)، وهي التي يرفضها دعاة المنهج الاقتصادي في تفسير التاريخ، مع أن شعبنا الأمي يومئذ قد أدركها على نحو فوري بواسطة بداهته السليمة والناجية من التحذلق والتلمظ، وذلك منذ إبرام اتفاقية الهدنة الاولى في الحادي عشر من حزيران سنة 1948. ففي مذهبي أن الذهن البشري كثيراً ما يكون قادراً على استنباط اللامرئي، من المرئي، ولكن شريطة أن يؤسسه الهم والاهتمام والحضور الغزير. فالذاتية أُس الموضوعية، دون مراء، بل شرطها الأول بكل تأكيد.

بيد أن مما هو صادق عندي أن المؤامرة نفسها تحتاج الى ما يفسرها. ولهذا، فإن المؤامرة وضياع فلسطين هما نتاج لاتضاع كبير أصاب الأمة العربية منذ زمن سحيق، فأحالها الى غثاء كغثاء السيل. كما أن الغربيين قد ازدردهم الاتضاع، شأنهم في ذلك شأن العرب. ففي كتاب (انهيار الغرب)، راح اشبنغلر يعدد مظاهر ذلك الاتضاع: تخشب الشكل الفني، نضوب الفلسفة الاوروبية، انتشار الرياضة. . . الخ. لكنه نسي واحدة شديدة الأهمية، وهي أن الغربيين عيّنوا أنفسهم خدماً للصهيونية مخلصين. إن افراط أهل الغرب في توثين الغيتو الصهيوني هو في حد ذاته أمارة انهيار واتضاع. ولهذا، فإن زوالهم قد صار أمراً محسوماً منذ الآن. والغريب أن الغربيين بلا أعداء في الزمن الراهن. وما عاد في ميسورهم أن ينتجوا شيئاً سوى أسلحة الدمار الشامل التي هي برهان على أن

العقل ينتج الجنون، أو يوظف نفسه في خدمة اللاعقل. وهذا بؤس قلما يدانيه أي بؤس آخر.

أما الأبأس من ذلك فهو أنهم يحرمون عليك أن تعترض على أية سفالة من سفالاتهم المرعبة، ومن أبدى أيما حنق إزاء جرائمهم المروّعة فلسوف ينعتونه بأنه ينتمي إلى ما يسمونه (ثقافة الحقد). يجب أن تطرد من بيتك، وأن تتشرد في كل أفق وتحت كل سماء، ولكن دون أن تصدر عنك أية نأمة بتاتاً. ويجب عليك أن تسكت عن إبادة الهنود الحمر، وكذلك عن ضرب اليابان بالأسلحة النووية، وإلا فأنت حاقد على الغربيين الذين اكتشفوا الفضاء. إن الغربيين يعبدون النار والمعادن، أو الطاقة والصناعة. ولا بد لقوم هذا شأنهم من أن يكونوا قساة وأجلافاً وسفاحين، يتحكم بهم عطش دائم الى الدم البشري الأحمر القاني. ولا شفاء لهم من هذا الداء إلا يوم يزولون من الوجود. والأهم من ذلك أن الإنسان، منذ كان على هذا الكوكب البائس، ما عبد إلا القوة بأصنافها كافة. ولقد آن الأوان لتحويل البشر من عبادة القوة إلى عبادة اللطف والرأفة والدماثة، وكل ما هو إخائي وحميم.

* * *

ولا يختلف وضع الصهاينة عن وضع الغربيين والعرب، إذ لو كان فيهم ذرة من الرفعة والسمو، أو قل ذرة من حياة أصلية ونزوع إنساني طيب، لما فعلوا تلك الفعلة الغاشمة اللئيمة التي يشقى بها عدد كبير جداً من إخوانهم في الماهية الروحية. فهم لا يستوعبون ما فحواه أن أهم فعل تفعله طوال حياتك هو أن تصير روحاً، أو إنساناً، بل إن هذه الصيرورة حصراً هي الغاية النهائية لوجودك على الأرض. ومما هو مؤسف، بل محزن، أن الإنسان، في الغالب الأعم، يخاف ولا يخجل، مع أن الأمر ينبغي أن يكون على النقيض من ذلك بالضبط.

وبدلاً من أن يخجلوا لأن الحقائق ليست في صالحهم، فإنك تراهم يتبجحون بأنهم هزموا جيوش العرب المرة تلو المرة. يقول أحد أمثالنا الشعبية

(يطعمون أنفسهم جوزاً فارغاً) ففي مذكرات الارهابي الكبير بن غورين الخاصة بعام النكبة، وهي التي قرأتها مترجمة إلى اللغة العربية منذ بضع عشرة سنة، ثمة مفارقة لا أحسبه قد تنبه لها، إذ لا بد للمرء من سهو أو ارتخاء. يقول ذلك الارهابي في أحد مواضع الكتاب نفسه بأن الفرد اليهودي يضّحي بروحه من أجل أن تستمر الجماعة، أي هو يعتقد بأنه موجود من أجل الكلية التي تتخطاه، أو من أجل النحن الذي هو جوهر دائم. ثم يضيف زاعماً بأن هذه منقبة أخلاقية يجهلها العرب، بل هم لا يفهمونها بتاتاً. ولكنه، في الوقت نفسه، يتحدث مراراً عن كثرة فرار جنوده من الجيش اتقاء للموت في ساح الوغى. فأي الحالين المتضاربتين نصدق؟ ثم أين ضحوا التضحيات الجسام التي لا يملك العرب أن يقدموا مثلها؟ ولماذا استطاعت لوبيا أن تهزم ألفاً وخسمائة جندي من جنودهم ببنادق صدئة؟ أتحداهم أن يذكروا أية معركة خاضوها وتستحق أن تسمى معركة، مع أنهم حشدوا أكثر من مائة ألف جندي سنة1948، كما يقول بن غورين نفسه. كما أتحداهم أن يذكروا صداماً كبيراً واحداً خاضوه وربحوه.

أما أعداؤنا الانجليز، أو ألد أعدائنا، فهم وأضرابهم قد طوروا الأدوات وتركوا أرواحهم تنحدر وتتضع، بل تتزنخ وتتخمج. لذلك يجوز القول بأن نفوسهم قحلت، بل عقمت، الى أبد الآبدين، وذلك بسبب فرط عبادتهم للمال، التي هي وثنية لا تتمتع بفضائل الوثنية. يقيناً، إن ماهيتهم منخورة الصميم، وإن انسانيتهم منقوصة أو معطوبة. فلقد نهبوا الأمم الضعيفة وبنوا مدنهم العملاقة من عظام أطفالها، دون أن يرف لهم جفن. ولست أستهجن شيئا بقدر ما أستهجن حقيقة مؤداها أن انجلترا المبتسرة الروح قد استطاعت أن تنجب شكسبير الذي لا يضاهيه أي كاتب آخر، والذي أسميه ضمير الجنس البشري، دون أن يخالجني أي ريب. فلم يوفق نابليون كثيراً حين وصف الانجليز بأنهم (أمة من أصحاب الدكاكين)، إذ الأصوب أن يقال بأنهم أمة تحترف القرصنة والنهب والارهاب.

ولقد ركعت أمم الأرض كلها تحت أقدام الصهاينة، من اليابان شرقاً الى اليابان غرباً. أطاعت وتأرنبت وانصاعت للأوامر ونفذتها بحذافيرها ودون تردد أو تذمر. حتى سنغافورة وتايلند عند الحافة الشرقية للأرض، وكذلك سلفادور عند حافتها الغربية، واستونيا والدنمرك عند تخومها الشمالية، واستراليا عند أفقها الجنوبي – إن جميع تلك البلدان المثيرة للشفقة، وسواها مما هو أتفه منها، قد نذرت قوامها للسهر على أمن الغيتو الصهيوني دون أي مسوّغ. فإلى أي اتجاه يسير هذا العالم الشائخ المأفون؟ ولهذا فإن في السداد أن يقال بأن الغيتو الصهيوني لا يظهر، لدى التأمل والتفطن، إلا بوصفه حشداً مصنوعاً من الزبد، وذلك لأن قوته تنبع من خارجه وليس من داخله.

وخلاصة الحال أننا، نحن الفلسطينيين، قد ابتلانا التاريخ بأعتى أنماط الشر المتجسد بقوى لا يحركها شيء سوى اللؤم والميل إلى الابتزاز والارهاب، مع أننا شعب بسيط مدار حياته على زيتونة وعريشة ودالية وخابية. ومن المؤكد أنه ما من شكيمة تملك أن تشكم هذه القوى الرعناء إذا ما عربدت، وما من لجام يستطيع أن يلجمها إذا ما أصابها الهيجان أو عرام التوتر المحموم.

وها نحن أولاء، في هذا الزمن الموحش، نواظب على تقديم مسلسل الشهداء يومياً، وذلك لغاية واحدة فقط، وهي أن نصنع شرفاً لأنفسنا، بعدما خسرنا كل شيء عدا الكرامة. فشرايينا تشخب دماً لا يرقأ له نزيف، بل ما يزال يسيل وردي اللون، أو مثل حناء العذارى، وذلك بغية أن نسوّغ شخصيتنا أمام المؤرخين. لقد سفكه الحقد المزمن أو المعتق منذ مئات السنين. ولكنهم عبثاً يحاولون أن يسملوا عنفواننا أو كبرياءنا، إذ هيهات منا الذلة حقاً. فها نحن أولاء نعيش في هذه الكربلاء الدامية كل يوم، ولكن دون أن يعرف الاستخذاء دربه الى نفوسنا بتاتاً.

* * *

ولعل في ميسور كل لبيب ان يلاحظ ما فحواه أن التوتر قد احتدم أو تفاقم كثيراً في العالم بأسره، حتى بلغ طوراً خطيراً، وذلك ابتداء من أواخر القرن العشرين. فها هي ذي التفجيرات والصدامات الدموية تجري يومياً على الأرض من الفلبين شرقاً حتى كولومبيا غرباً. وهي تستفحل في آسيا على نحو متميز حتى صارت أشبه بحرب بين الشرق والغرب. فثمة خطر على الجنس البشري بأسره. ولكن قادة العالم مغمّسون في الإغماء حتى ما عادوا يستوعبون أية حقيقة ذات صلة بالمصير الجمعي أو الكلي. فهم يجهلون أن العالم وحدة لا تقبل التجزئة، وأن تخريب أي شطر منه هو تخريب له بأسره.

ولقد زور الغربيون تلك الفرية التي يسمونها (الارهاب) ليمنحوا أنفسهم الحق في التدخل هنا وهناك، بل في أي مكان يريدون. ولعلهم يبتغون أن يشوهوا سمعة الاسلام وأن يظهر بمظهر قوة تخريبية أو إجرامية هدامة. فليست الجريمة صفة الامبريالية والصهيونية، بل صفة الإسلام. هذا ما يريدون أن يقنعوا به الجنس البشري كله. هل ثمة من يصدق بأن في الميسور أن تصعد أسلحة ومتفجرات الى متون الطائرات دون موافقة السلطة في أي مطار من مطارات العالم؟ وهل يخفى الهدف من هذا كله حتى على الأغبياء؟ وهل من المبالغة أن يعلن المرء بأن أمريكا هي أكبر تهديد إرهابي لثلاث قارات، هي آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية؟

ففضلاً عن اتخاذ (الإرهاب) ذريعة لمهاجمة أي شعب يختارون، فإنهم يريدون تشويه صيت العرب، ثم استعداء بقية أمم الأرض عليهم، وذلك ابتغاء استنفار تلك الأمم لتصير بين القوى الساهرة على أمن الغيتو الصهيوني الذي يفتقر إلى الصبغة الطبيعية ما دام حاله على هذا النحو، أعني ما دام أنه يحتاج إلى عون الأرض كلها بغية أن يستمر في الوجود. فها قد صار أمن ذلك الغيتو العجيب أكبر محور من محاور التاريخ المعاصر كله. فما عاد للكون من هم سوى هذا الهم التافه والكئيب في آن معاً.

ولهذا فإن من حق المرء أن يطرح جملة من الأسئلة الحاسمة: كيف تحمل الإنسان وجوده في عالم يسوده العداء بدلاً من الإخاء؟ لماذا لم ينقرض الجنس البشري ما دام الفاجع أو الكارث له هذا الثقل الباهظ كله؟ وهل استمر الإنسان في الوجود، محاطاً بهذه الشرور المستطيرة الكثيرة، لأنه بليد أو عديم الحساسية، أم لسبب آخر لا يملك أحد أن يجزم به على نحو محسوم؟

ومهما يكن الأمر، فإن في ميسورك التأكيد على أن الغيتو الصهيوني لا يملك أن يستمر في الوجود إلا إذا توفرت له الشروط الثلاثة التالية:

أولاً– استنفار الدنيا كلها لتسهر على أمنه ولتؤيده تمام التأييد حتى لو اجتث الفلسطينيين او أبادهم عن بكرة أبيهم.

ثانياً– أن يضخ له السلاح الشديد التطور وكذلك المال الوفير من أي مصدر، مهما يك نوعه. وهذا يعني أن الغيتو سوف يكف عن الوجود حين يكف الخارج عن امداده وتغذيته بجميع لوازم بقائه واستمراره.

ثالثاً– أن يقوم جيشه الباهظ التكاليف بممارسة القتل يومياً، ودون توقف، فحين يكف الغيتو عن سفك الدماء، فإنه سوف يكف عن الوجود بالضرورة، لأن القتل هو مبتدؤه وخبره وحامله الوحيد.

وما دامت الحقيقة على هذه الصورة الكالحة، فإننا، دون مراء، في عالم لاعقلاني، يحكمه الجنون ويقضمه الاتضاع والتفسخ، وسوف يظل داؤه يغلغل فيه وينخره يوماً إثر يوم حتى يبلغ نواته القصوى. وليس للمرء من عزاء، بإزاء ذلك كله، سوى أن يؤمن جازماً بأن هذا هو طبع الأشياء منذ الأزل وحتى أبد الآبدين. والأهم من ذلك أن القوى التي دعمت الصهيونية لا تستحق سوى الاستصغار، أو حتى الازدراء المنفلت من كل تحفظ أو اعتدال، بل إن كوناً هذا شأنه هو بالضرورة شيء طفيف المقدار وعديم المضمون، ولا يرضى به إلا من هو ماحل الروح مستنزف الوجدان، إذ ما قيمة عالم يمتهنه اليهود ويلطمونه بأحذيتهم كل يوم؟

ولهذا، فإن السخط النزق هو الموقف الصحيح من هذا الوجود اليرقاني التافه. أما المجتمعات الأورو_أمركية التي يبجلها الكثيرون في العالم العربي، وذلك نظراً لقدرتها على الصنع والانتاج الإقتصادي الشديد الضخامة، فلا تبدو كبيرة إلا للصغير، ولكنها حتماً صغيرة في عين من كان كبيراً على الأصالة والكمال. وههنا يبرز الامتحان. فمن فحص هذه الحضارة الحديثة بعين التدقيق أدرك أنها خالية من أي عنصر قادر على أن يؤنس الروح، بل أدرك أنها مكتظة بالعناصر التي من شأنها أن تصنع الشعور بالتخلع والاغتراب.

بيد أن اسهام الأنظمة العربية في مأساتنا هو أكبر من إسهام المجتمعات الأورو_أمركية. فالعنصر الأكبر في المؤامرة التي حيكت ضد الفلسطينيين عام النكبة هو إدخال الجيوش العربية إلى فلسطين. فلا يخفى على المهتم بالأمر أن ذلك الفعل قد أنجز للصهاينة جملة من الغايات الملحّة التي ما كان انجازها ليتيسر إلا إذا دخلت تلك الجيوش إلى بلادنا الحبيبة لتمثل تمثيلية هي من الخبث في منتهاه. ففي ظاهر الحال تبدى اليهود وهم يتعرضون لتهديد خطير من قبل تلك الجيوش نفسها، حتى لكأنهم يدافعون عن أنفسهم ولا يهاجمون أحداً البتة. أما في باطن الحال، أو في جوهره ويقين أمره، فإن الصهاينة الخبثاء قد راحوا يذبحون الشعب الفلسطيني من الوريد الى الوريد، ويقتلعونه من دياره ويطوحون به إلى ما وراء الحدود، حيث العراء والشقاء بأصنافه كافة.

وما كان ذلك كله ليحدث لولا تفوق السلاح الصهيوني على السلاح الفلسطيني بمسافة فلكية. لقد خلى العالم بين اليهودي اللئيم وبين الفلسطيني الأعزل الذي سرعان ما أدرك أن صفته الأولى هي اللاحولية، أو العجز عن الفاعلية القادرة على التأثير في الماجريات، أو في سياق التاريخ والحدثان.

ولم يكتف اليهود بأن ظهروا بمظهر المعتدى عليهم، بل راحوا يحاولون ايهام العالم بأنهم أبرياء من الكارثة التي حلت باللاجئين. ولهذا فقد راحوا يزعمون بأن الحرب هي التي شردت الفلسطينيين، مع أن الحرب أمر ممنوع الحدوث بين

العرب واليهود منعاً باتاً، إذ لم يسمح المركز، الذي يضبط جميع الأطراف ويخضعها لسيطرته الهائلة، إلا بمناوشات وصدامات طفيفة الشأن، ولكنها ضرورية لتأسيس الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين السليبة. ولقد شاهد العالم اللامبالي ظاهر الأمر، ولكنه لم يشاهد باطنه حتى الآن، وذلك لأن اندماج الخبث باللؤم قد تمكن من أن يحجب الحقيقة عن أبصار الناس. ولهذا، فإن العالم لم يدرك بعد حجم النازلة التي ألمت بنا في عام النكبة. إن جرحنا بليغ، وهذه حقيقة لم يستوعبها إلا الحساسون وحدهم. وقليلاً ما هم.

ولكي تتم التمثيلية وتؤتي ثمارها في سلال الصهاينة، راحت الجيوش العربية، التي هي شطر من مقتنيات اليهود وأدواتهم الغربيين، تناوش على نحو خفيف لطيف. وبذلك، فقد تمكنت من أن تذر الرماد في عيون البشر كلهم، باستثناء الشعب الفلسطيني الذي سرعان ما أدرك الأمر بجلاء، ولا سيما بعد أن أبرم العرب اتفاقية الهدنة الأولى في شهر حزيران. ووقفت أعداد كبيرة من الناس موقف اللامبالي من قضيتنا العادلة، أو هي وقفت متفرجة ونحن نذبح كالأغنام في المسلخ، وخلال سلسلة من المجازر اللئيمة التي دبرها الصهاينة، وهم يعرفون ما يفعلون. ومن شأن اللامبالاة أن تغرق جميع الأشياء في لجة اللافرق. وبذلك يستوي الخبيث والطيب، والمجرم والضحية، ويصير الخسيس والنفيس مثلين متعادلين.

* * *

قبل الانتهاء من النسق الراهن، أود التنويه بأن هذا الكتاب ليس بحثاً عن الزمن الضائع، في المقام الأول، بل هو بحث عن المكان المغتصب السليب، أو عن الوطن الذي نهبته غريزة العدوان بقوة السلاح. وبما أن استرداده أمر متعذر في الطور الراهن من أطوار التاريخ، وبما أنه لا وجود لأي ارهاص من شأنه أن يرهص بأننا سوف نعود إلى ديارنا عما قريب، وبما أن أبناءنا وأحفادنا قد ولدوا لاجئين، وما من أحد يعرف متى يأتيهم الخلاص من هذه المحنة، فإنني لا أشكم

نفسي، فأحول بينها وبين أن تصب جام غضبها والازدراء على هذا العالم الآيل إلى الهبوط والاتضاع يوماً عن يوم.

أما الآن، فبودي أن أسرد حقيقتين اثنتين على مسامع من ينكرون المؤامرة التي أدت الى انتاج الفاجع أو الكارث عندما حلت النكبة بالشعب الفلسطيني حلول الصاعقة، ولا سيما على مسامع اولئك الذين يتشبثون بالتفسير الإقتصادي للتاريخ (أي بعنصر واحد ليس من شأنه أن يقنع اللبيب، على أهميته وجلال قدره)، وهم من يؤمنون بأن هذا التفسير هو المفتاح الذهبي للحقيقة الكلية المطلقة:

اولاً– ثمة مؤامرة لأن ثمة قوى تريد أن تهيمن على الاقتصاد العربي، ولكن عبر إجراء هو بديل عن الحرب التي من شأنها أن تجلب الويلات حتى على المنتصرين. فلولا وجود الاقتصاد، أو لولا إرادة النهب والابتزاز، لما كانت هنالك مؤامرة. ومعنى ذلك أن هذه المقولة لا تنفي التفسير الاقتصادي للتاريخ، بل تؤكده أيما تأكيد.

ثانياً– إن الذين ينكرون المؤامرة يخدمون الصهيونية من حيث لا يشعرون. فالصهاينة الذين لا يصلحون للحرب البتة قد أوهموا الدنيا كلها بأنهم هزموا العالم العربي الشاسع الواسع المنداح، فظهروا كما لو أنهم طرزانات استردت روح شمشون الذي قتل ألف فلسطيني بفك حمار ميت، على ما يخرصون ويفترون. ولكن مقولة المؤامرة من شأنها أن تسلبهم هذا المجد الخلب الذي يحسبونه مأثرتهم الخالدة، وأن تؤكد ما فحواه أنهم يشبهون الطالب الذي نجح في الامتحان نجاحاً فائقاً، ولكن بواسطة الغش والتزوير. ومما هو بديهي جداً أنه لا يسمح لك بأن تكشف عورة الصهيونية المتهتكة في هذا الزمن الذي يحوزه اليهود كما يحوز المرء أصابع يديه وقدميه.

ومما هو شديد النصوع أن الشخصية اليهودية هوية بهتانية تنطوي على زيف، أو على تزوير يفوق أي تزوير آخر بشوط مديد. فلقد زيفوا أنفسهم بحيث

ظهروا وكأنهم قد هزموا سبعة جيوش عربية، بينها ثلاثة أعدتها بريطانيا لمجابهة الألمان إذا ما دهموا ينابيع النفط أو قناة السويس. وبذلك فقد ظهروا بمظهر يخالف معدنهم أو يقين أمرهم. (يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا).

ولهذا، أحبذ أن أقترح ههنا ما فحواه أن الإنسان الذكي ليس الكائن الأهم في هذه الدنيا، وذلك لأن الذكاء قد يكون دهاء أو خبثاً من شأنه أن يلحق الأذى بالآخرين. ولكن الكائن الأهم هو الإنسان الأصيل الذي تنطوي شخصيته على مقومات ذاتية أخرى بالإضافة الى الذكاء، وهو السمة الشديدة الوفرة في هذا العالم. أما الأصالة فهي الندرة بأم عينها، شأنها في ذلك شأن كل شيء نفيس.

وتعريف الإنسان الأصيل هو أنه ذاك الذي ينفر، أو يأنف، من أن يزوّر نفسه، سواء بالانتحال أو بالاختلاس، حتى كأنه يتخذ من هذه الآية الكريمة مبدأ له (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى). ولكن المرء، بعد أن يقرأ التوراة، يملك أن يؤكد على أن اليهودي لا يأنف من التهام جهود الآخرين أو ممتلكاتهم، فقط لأنهم ليسوا من اليهود. وهذه حقيقة تدلك عليها استعارة النساء اليهوديات للحلي من المصريات عشية الفرار إلى سيناء، وفقاً لما جاء في سفر الخروج. وبناء على هذا المبدأ اللا أخلاقي راحوا يلتهمون ممتلكات الفلسطينيين اليوم والعالم كله يتفرج.

ولهذا السبب أراني أزعم بأن الدرجة الأولى في سلم الوعي هي فقه الشر الذي ينخر الحياة كما السوس ينخر الأسنان، وبأن الخطوة الأولى في علم الشر هي استيعاء حقيقة اليهود الذين هم من سلالة الظلمات، أو التجسيد الأبرز للشر في العالم. فالتطرف في عبادة مامون، ابليس المال – وتلكم صفة اليهود الأولى – هو فعل لا ينتمي إلا الى فحيح جهنم حصراً. فيا لهذا العالم الذي وضع نفسه في خدمة الشر حين راح يخدم اليهود كما تخدم العبيد أسيادها. وعندي أن المرء لا يملك أن يتعاطف مع اليهود وأن يكون إنساناً أصلياً في آن واحد.

ولئن صح الذهاب الى أن الأصالة هي الاستنكاف عن التطابق والسعي وراء التفرد والتمايز، فإن في الميسور القول بأن الأصالة والتفرد والسمو ليست سوى ثلاثة أسماء لمسمى واحد بعينه. ولقد حرمت الشخصية اليهودية، ذات الميول الابتزازية والاختلاسية، من كل أصالة وجودة، وجاءت خصوصيتها سلبية أو مثلوبة بالانتحال والغش والتزوير. ولهذا فقد لعنتها جميع الأمم التي احتكت بها في أي مكان أو زمان. بيد أن الانتصارات الخلب التي أحرزها الصهاينة في هذا العصر الجديد، بواسطة المؤامرة والتواطؤ العالمي، أو بواسطة الخبث ودناءة الاحتيال، أو سفالة المعدن والمضمون، قد أوهمتهم بأنهم أبطال ميامين لا تصمد أمامهم حتى الجيوش الجرارة المتقنة التدريب والتسليح. فكان أن حلت العنجهية والتنفج في نفوسهم الممرورة محل الذلة والمسكنة التي كانت لهم منذ سالف الدهور. كما حسبوا أنهم من علية الجنس البشري وليسوا من سفلته وفئاته المنحطة أو الشاذة إلى حد الاستهجان. وهذا التنفج والاستعلاء أمر تصرح به أدبياتهم الحديثة جهراً وعلانية وبغير مواربة أو تكتم.

* * *

وفي الحق أن اليهود أهل ملة خسيسة لئيمة، ولا مثيل لحطتها ورداءة أخلاقها بين جميع الملل والنحل. ومن شأن التوراة نفسها أن تنم عن هذه الحقيقة جهرة ودون مواربة. وللذين يخافون التعميم ويبغضونه أقول بأن وجود حفنة من الطيبين بين اليهود لا يهدم القاعدة بتاتاً. فمع أنهم يتظاهرون بالبراءة والطيبة واللطف، فإنهم الشر نفسه وقد تجسد على الأرض، إذ لو كانوا طيبين وأبرياء لما طردوا الشعب الفلسطيني من دياره وأرضه بذريعة زائفة حقيرة مفادها أن فلسطين هي أرض أجدادهم.

ثم إنهم مرابون وغشاشون وكذابون. ويجد كذبهم جذوره في سفر التكوين يوم تزوجت ساره، زوجة ابراهيم، من فرعون، ثم من ملك الفلسطينيين، وكذلك في سيرة يعقوب الذي غش أخاه عيسو وخاله لابان الآرامي، وذلك في خبر

طويل لا يتسع المجال لتفصيله في هذا الموضع. وفي الحق إن شخصية اليهودي، أو حقيقته، مشروحة بكل نصوع في أسفار التوراة. فلا لزوم للتلمود ابتغاء التعرف على هاتيك الشخصية البهتانية الأفاكة.

ولكي أعزز هذا المذهب الرامي إلى أن اليهود أهل ملة حقيرة خسيسة، فإنني سوف أسرد هذا الخبر. يوم ارتكبت العصابات الصهيونية مجزرة الطنطورة، فإنهم قد أحضروا الشبان الناجين من المذبحة ليحفروا حفرة كبيرة تصلح قبراً جماعياً للجثث كلها. وحين شاهد أحد الشبان جثة أخيه بين القتلى أخذ بالنشيج والعويل وانهمال الدموع. ولهذا سأله أحد رجال العصابات الصهيونية عما به، فأجاب قائلاً بأن هذه الجثة التي أمامه هي جثة أخيه، وبأن أمه سوف تخسر عقلها حين تعلم أن ابنها قضى نحبه في المجزرة. فما كان من الصهيوني النتن إلا أن قال: لكي أضمن أن أمك سوف تخسر عقلها، لابد من أن تموت أنت أيضاً. ووجه فوهة البندقية إلى صدغ الشاب ثم ضغط بإصبعه على الزناد، فأردى الفلسطيني قتيلاً على الفور.

ذلكم هو اليهودي الذي دعمته (الأمم المتحضرة) التي لا تشبع إلا إذا نهشت، بل التهمت، اللحم البشري، ولا ترتوي إلا إذا عبت من دماء الأطفال في البلدان المنهوبة. ليت هتلر، أو نبوخذ نصر، قد أباد اليهود وأراحنا من سماجة وجودهم المقيت. وفي عقيدتي أن الشعب الفلسطيني سوف يفتدي الإنسانية ويريحها من تلك الطفيليات إلى الأبد. ولكن هذا الحادث، الذي سيكون مفصلاً من مفاصل التاريخ، يحتاج إلى زمن ليس باليسير.

وها هم اليوم يزعمون زعماً مزوراً بأن ألمانيا قتلت منهم مقتلة عظيمة بلغت ستة ملايين نسمة. ولا أحسبهم يصدقون هذه الفرية الممتقعة الصفراء التي لا يصدقها إلا معتوه أو ذو عقل هزيل. بيد أن حديث الإفك هذا مربح ومفيد، فقد ابتزوا الألمان وحصلوا على كميات كبيرة من المال أسهمت أيما إسهام في بناء الغيتو الصهيوني يوم كان في طور النشوء وبأمس الحاجة إلى كل دعم. وهذا

يعني أن وجود اليهود يتأسس على البعد البهتاني لشخصيتهم الشائهة، أو على ميلهم العارم إلى الكذب والغش والتزوير.

ولكن ما هو أهم من الأرباح الطائلة التي جنوها من تلك الفرية السوداء يتلخص بأنهم عملوا في بلدان الغربيين على إحلال مذهب (المحرقة اليهودية) محل عقيدة صلب المسيح التي من دونها تتفكك الديانة المسيحية وتزول من الوجود. ومن كفر بالمحرقة أو ارتاب رموه بتهمة اللاسامية التي هي سيف يسلطونه على رقاب أعدائهم، ثم يغضب عليه الإعلام اليهودي الذي هو أداتهم الأولى لكمّ الأفواه وإرغام الناس، في عقر أوروبا وأمريكا، على الصمت إزاء ما يقترفون من جرائم وشرور.

إذن، أرغموا الغربيين على الالتزام بآلام اليهود المصطنعة أو المزورة بدلاً من آلام المسيح التي سببها له اليهود. ويلوح لي أن هدفهم الأول هو ترميد المسيحية حصراً، وذلك لأنها عدوهم الذي قارعهم طوال ألفي سنة تقريباً. ولقد تفرغوا للإسلام بعد ما قذفوا بالمسيحية إلى زوايا النسيان، أو الى هوامش التاريخ.

وهكذا انطبق على الغربيين ذلك المثل الشعبي القائل (أتاك، يا بلوط، من يعرفك) فما من قوة استطاعت أن تدجن اولئك العفاريت الزعّر سوى اليهود الذين يفوقونهم في صناعة الشرور الإبليسية. وهذا يعني أن الإنسان الفاوستي الذي اعتز به اشبنغلر أيما اعتزاز، قد روّض الدنيا بأسرها، أو ذلل كل جامح وعسير، ولكن من أجل سيده اليهودي الذي يستمتع بزبدة جهود الغربيين حتى التخمة، بل حتى الثمالة، تماماً كما تعيش الأشنة على جذع شجرة سنديان. وتلكم، لعمري، أمارة من امارات انهيار الغرب لم يذكرها اشبنغلر قط، وربما لم يفطن لها، أو هي لم تخطر له في بال، مع أنها أكثر دلالة من جميع الأمارات التي ذكرها في كتابه المشهور. ومن المفارقات التي لا رفع لها البتة أن يقف العالم من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي بين يدي هذا الانحطاط وأن يخدمه كما تخدم العبيد أسيادها. وإنني لأستهجن كيف لا يشعر الاوروبيون والأمريكيون بأنهم ليسوا

أسوياء أو أصحاء النفوس حين يفرطون في الاهتمام باليهودي إلى هذا الحد المتطرف، حتى وإن كان اليهودي على حق، وذلك لأن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده.

* * *

وعندي أن عصرنا كله يقبل أن يتلخص أو يتكثف في كلمة واحدة، وهي (المال). وهذا هو الشيء الرهيب الذي جاء من فيح جهنم وفحيحها وفوران صديدها الكريه الرائحة. ولكم أجاد ذلك الكاتب المرهف الحساس الذي قال عنه إنه (يزوّج الجمال بالجذام الأزرق). ومع ذلك فإن مامون، إله المال، هو معبود اليهود والأمركيين والأوروبيين، وجميعهم أهل جلافة وزعارة، وعلى أيديهم خسرت الحياة سلاستها وعذوبتها واستحالت الى اعتلاف بالتبن والزؤان. فهم ينهبون ثروات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أبشع نهب، وذلك بناء على مبدأ (التبادل اللامتكافيء)، وخلاصته أن يدفع بلد من البلدان كمية كبيرة من مادة خام مقابل الحصول على كمية طفيفة من مادة صناعية. وفي شعوري أنهم، أعني اليهود وحلفاءهم الغربيين، قد أحالوا العالم إلى مكان شديد الشبه بجحيم دانتي، حيث يعيش أناس يكابدون شوقاً لا يحدوه أي أمل. وما قيمة حياة تعاش بغير أمل، بل ما طعم حياة تخلو من العذوبة والسلاسة والشعور السعيد؟ وماذا عساها أن تكون قيمة هذه الحضارة التي يحركها نازع الابتزاز والاستغلال ونهب الشعوب دون رحمة أو شفقة؟ ففي مذهبي أن لا قيمة إلا لكل ما هو من سلالة الصدق أو من شيعة الألطاف الحسنى؟

هاهم أولاء يثيرون الاضطرابات والفتن والصدامات الدموية، ولا سيما النزاعات الطائفية والعرقية، في معظم البلدان الإسلامية، حتى لكأنهم يريدون أن ينهكوا العالم الاسلامي من داخله ابتغاء منعه من التصدي لهم دفاعاً عن ثرواته المنهوبة. ففي الكثير من البلدان الاسلامية ثمة صراعات تشبه الحروب الأهلية، بل هي أحياناً حروب أهلية بالفعل، كما هو الحال في السودان والصومال. وفي

هذا البلد الأخير أدخلوا الجيش الإثيوبي ليدحر القوة الاسلامية المهيمنة على الإقليم. إنهم لا يتحملون الإسلام بتاتاً، ولا يرون فيه إلا عدواً يهدد الحضارة الأورو – أمركية بالزوال. ولهذا، فإنهم حريصون على أن يظهر وكأنه قوة ارهابية مدمرة ومعادية لإنسانية الإنسان.

ومع هذا كله، أو قل مع أن الشر شديد التفاقم والافتحال في هذا الطور التاريخي الذي يشكل المال واليهود والتلوث والأسلحة النووية لعنته الكبرى، فإن أهم ما أود التأكيد عليه الآن يتلخص في أنني مفعم بأمل فحواه أن حقنا سوف ينتصر على باطلهم ويزهقه إلى أبد الآبدين. فمما لا يجهله أحد أن البرد يستحيل الى دفء منعش لذيذ، وأن الشتاء ينقلب إلى ربيع زاهر فينان تستسيغه النفس وتهواه. وهذه حتمية أزلية يتصف بها ناموس ضروري كلي لا يملك أن يردع إرادته الظافرة أيما رادع، مهما تك سلطته وقدرته ومضاء عزيمته. ولن يحدث إلا ما هو مركوز فيها على نحو جنيني مكنون.

وبودي، في نهاية النهاية، أن أُذكر الجميع بأن الزمن مفتوح على الأبدية، أو على اللانهاية، وبأن إغلاقه صنف من أصناف المحال. ثم إن التاريخ يومان، يوم لك ويوم عليك. ولقد أخذ اليهود اليوم الذي هو لهم، وبقي اليوم الذي هو عليهم، والذي لا فرار لهم منه، حتى ولو بعد ألف سنة أو ألفين. إنه كالموت، آت حتماً ووجوباً، لأنه من طبع الأمور الذي يثابر دوماً على إخراج مضمراته من الكمون إلى الجهر والعلانية. وأرجح أنه سوف يكون يوماً أيوم، كالحاً عبوساً مرير المذاق وكريه المشهد. ويبدو لي أنهم قد تورطوا، ولا أمل لهم في النجاة بتاتاً. والعار والشنار لكل من يرضى بالتنازل عن ذره واحدة من تراب فلسطين أو عن قطرة من دماء شهدائها الأبرار.

ومما هو ناصع لكل ذي بصر أن العالم العربي ليس حراً ولا مستقلاً، ولولا ذلك لما كانت به حاجة للانتظار طويلاً بغية إنزال عقوبة رادعة بأولئك الذين اضطهدوا الشعب الفلسطيني وأذاقوه الأمرين، إذ إن في ميسور العرب أن

يحرقوا نفطهم، لو كانوا أحراراً، ولئن أحرقوا نفطهم، فإنهم يكونون قد أحرقوا الطور التاريخي الراهن بأسره. ولكن العرب تنازلوا، لا عن النفط وحده، بل عن الأرض التي هي أغلى على الفؤاد من النفط بكثير. والأهم من ذلك أنهم تنازلوا عن الشرف والكرامة. (وتلكم لعمر الله قاصمة الظهر).

ففي الحق أن اليهود قد ارتكبوا جريمة شنيعة تستحق جزاء وفاقاً. ولعل أهم ما في أمرها أنها لا سلم بعدها على الأصالة قط، وكل سلام في شرط هذه الجريمة لن يكون سوى (هدنة على دخن). وفضلاً عن ذلك فإن حصة الفلسطينيين سوف لن تكون إلا شيئاً خلباً، أو وهماً من الأوهام. فالحقيقة التي ينبغي أن يعرفها كل طفل فلسطيني هي أن اليهودي يأخذ ولا يعطي.

ولقد ظنوا أن الزمن كفيل بمداواة جميع الجروح. ولكن الحقيقة ليست كذلك بالضبط، إذ يقول واحد من أمثالنا الشعبية:(الأسى ما بينتسى). وهو يعني أن الأذى لا يُنسى. فلئن كان ما كبث قد اغتال النوم، فإن شايلوك، وهو من وصفه شكسبير بأنه (الوغد الذي ما فيه أنغام)، قد اغتال السلام والأمن وهدأة البال، وذلك يوم شرد الفلسطينيين وطردهم من بيوتهم وحقولهم وبددهم تحت كل أفق وفي كل حدب وصوب. ومن الغرائب أن تدعمه كائنات أكثر تهوداً من اليهود، ودون أن تكون لها أية مصلحة في ذلك الدعم الذي أنزل بالشعب الفلسطيني نكبة مروّعة ونادرة النظير.

والأهم من ذلك كله أن اليهود وحلفاءهم قد خربوا الإنسان العربي من الداخل وأحالوه إلى كائن مسلوب الإرادة وعاجز تمام العجز عن التصدي لعدو خبيث لئيم فتك بالعراقيين والفلسطينيين وسواهم من الشعوب الشرقية. كما أنهم أحالوا الدولة العربية إلى كيان هزيل مفرغ من الجوهر، تهيمن عليه عصابة من اللصوص والسفاحين والانتهازيين الذين يسعك أن ترى فيهم صنفاً جديداً من خصيان السلطان. فلا يخفى على أحد أن الدولة تغيب غياباً عجيباً ما لم يكن هنالك شيء يهدد أمن الدولة نفسها، فإنها عندئذ تحضر حضوراً حاسماً إلى حد

التطرف. إنها الدولة الأمنية التي لا وظيفة لها سوى السهر على مصالح الطبقة الخائنة، أو طبقة أصحاب المليارات، وكذلك على مصالح الامبريالية والصهيونية. وهذه الأخيرة ليست إلا مرضاً أصاب أوروبا وأمريكا وبعض البلدان الأخرى.

ثم إن الدولة قد شوهت المواطن العربي ورسخت فيه مثلبة الانتهازية التي أراها إفراغاً له من محتواه الإنساني، فضلاً عن أنها أنجح وسيلة لتدمير المجتمع. فمن شأن الانتهازية أن توسد الأمور إلى غير أهلها، لأنها تضع الفرد الهزيل في منصب لا يملك أن ينهض بأعبائه. وبذلك يتنحى جانباً من هو ابتكاري مبدع أو ذكي وفعال. ومما هو بديهي أن تنحية أهل الكفاءة سوف تفضي إلى الانحطاط إفضاء حتمياً، وذلك لأن الأغبياء المهيمنين عجزة ويفتقرون إلى الطاقة الفاعلة. إن الاتضاع ليس شيئاً آخر سوى تفوق الأدنى على الأعلى، أو سوى طرد الانسان الكفؤ من المركز إلى المحيط، أو من المتن إلى الحاشية، حيث لا يقوم بأي أداء ذي بال.

* * *

(وتلك الأيام نداولها بين الناس. . .)، نعم، تلكم هي سنة الوجود، وذلكم هو طبع الحياة الذي تحكمه ضرورة لا يتيسر البتة لأي قوة أن تعطلها أو تشكم سيرورتها ذات الحراك المندفع قدماً، وباتجاه الأبدية.

ولعل في السداد أن يقال بأن منطقتنا التي هزمت الافرنج الصليبيين، وهم فرسان أشاوس أو صناديد، شهد لهم أعداؤهم بالبسالة والثبات عند اللقاء، لن تعوزها القدرة على أن تدحر أولئك الصهاينة الفاسدين الزائفين، ذوي الوجوه الممتقعة الشاحبة، والمفتقرين إلى النبل أيما افتقار، فلا يخجلون من أن كيانهم الخلب المتعفن من داخله، شاذ ومصطنع ومزوّر على نحو لا مثيل له في فضاء التاريخ كله. فمما هو ناصع أن جميع حاجاته تضخ إليه من الخارج، وعلى نحو

مثير للاستهجان، فتأتيه القوة منهوبة من دماء أناس آخرين. وبذلك، فإن سكانه يتمتعون بما حرمت منه الغالبية العظمى من أهالي البلدان المغبونة المقهورة.

ولكن مستوطني ذلك الكيان العجيب في شذوذه وزيف أمره، وهم كائنات طفيلية لا تشبه إلا الأشنيّات (وهذه ليست شتيمة، بل تسمية للأشياء بأسمائها)، قد فاتتهم حقيقة هي الأهم بين جميع الحقائق التي تعم التاريخ بأسره، ومفادها أن الإنسان كائن يتفسخ بالترف ويتعفن. ولقد أكد ابن خلدون هذه الحقيقة في كتابه الشهير العظيم. وإنني أراهن عليها بكل ثقة، وأراها القوة التي سوف تمكننا، نحن الفلسطينيين من استرداد حقنا السليب. حتى ولو بعد مئات السنين. فأنا واثق تمام الثقة من أننا سوف نربح المعركة الأخيرة، أو تلك التي يسميها الاصحاح السادس عشر من سفر الرؤيا باسم (هرمجدون)، أي جبل مجدو الرابض إلى الجنوب الشرقي من مدينة حيفا، وهي المعركة التي تفصل فصلا نهائيا بين الخير والشر. ومادام التاريخ يقبل التصحيح، كما زعم الصهاينة مراراً، فما الذي يمنع أحفادنا، نحن الفلسطينيين، من تصحيحه ذات يوم؟ ومما هو في البداهة أن هذه المسألة لا تتعلق بشيء آخر سوى الزمن.

مع أن اليهود وأدواتهم الغربيين قد أحالو العالم إلى قفر ماحل يباب، أو قل مع أنهم أفرغوا الحياة من العذوبة والرونق، بل أحلوا العذاب محل العذوبة، فإنني سوف أصون الأمل والاطمئنان إلى المستقبل، ودون أن أتنكر لقناعتي الجازمة بأن العالم قد بني على مبدأ الافتراس الوثيق الصلة بالشراهة والشراسة والجنوح صوب الشر.

كما أنني سوف أثابر على البحث عن الهزار في غوطة دمشق، خلال نيسان ونوار من كل عام، وهو ما سلف أن شاهدته مراراً بين الأشجار يوم كنت في طور الصبا والريعان. ولسوف أواظب كذلك على رؤية البدر في ليلة تمامه كل شهر، من سفح جبل قاسيون، ما لم تكن السماء ملبدة بالغيوم. ترى، ما قيمة نفس ليس من شيمها أن تستمتع بالجمال والنبل والطهر والقيم الروحية الكبرى؟

ولكم هو ناضج، في نظري، ذاك الذي يحتقر هذا العالم المتصحر الذي صنعته الصناعة خلال القرنين الماضيين.

وفي مذهبي أن قيمة كل أمرئ تتحدد بكيفية وعيه الذي يباطنه أو يحايثه كما تحايثه نفسه المنبثة في خلايا بدنه. وبغير الوعي المتحسّس المتلمّس الصالب الأسيان، وعي المعري وشوبنهور، فإن المرء لن تكون له أية قيمة استثنائية بتاتاً. ولست أقصد إلا الوعي الوجداني العاطفي أو المتعاطف، وليس الوعي الذهني أو الذكائي، فأنا لست مع كل ذكي، بل فقط مع الطيبين وحدهم، حتى وإن كانوا أغبياء.

وإني لأومن بأن وعيك هو صليبك الحقيقي، أو صليبك الأكبر الذي تعتله على ظهرك طوال عمرك، والذي من شأنه أن يحيل عيشك إلى كبد وعذاب جحيميين. وبغير هذا الوعي الإنساني النبيل وعي الشر والبؤس ومثالب الحياة، وهو الذي كان كل من زردشت والبوذا رائدين في صوغه على هيئة منظومة دينية أو وجدانية، فإن المرء لن تكون له أية قيمة جُلى، مهما يك مستواها.

ويلوح لي أن شدة وطأة التوتر الوجداني أو الداخلي الذي يصنعه ذلك الصليب الجهنمي النفيس، والذي له قدرة شديدة على تحسس النذالة والخساسة واتضاع الروح، أو على تلمس النخور التي تحتّه وتعمل على هدمه أو تعريته من الداخل – إن تلك الشدة ذات التوتر العالي تتناسب طرداً مع قوة الوعي نفسه، أو مع زخمه وما يتناسب مع الوجدان من سورة وحميّة، أو حرارة وميل إلى الالتزام بكل ما هو من سلالة الضمير، الذي أراه ألطف الألطاف الحسنى، والذي هو لب الوجدان، أو نواته ويقين شأنه وفحواه. وعندي أن الأصل الذي ينبثق منه هذا كله هو الطاقة الأولية المركوزة في نسيج الطبع، وهو ما قد صيغ لدى النشأة الأولى التي لا نعرف لها أيما ينبوع يقيني محسوم. وربما جاز لي أن أزعم بأن الوجدان الذي أعده هوية الانسان، والتي تعمل الحضارة الحديثة على إطفائه

وإخماد جذوته، هو المزدلفة التي تزدلف إليها جميع الساميات، بل الرحم الذي يسوّي كل ما ينتسب إلى مملكة الطهارة والفضيلة والنقاء.

فأنت، لا محالة، مصلوب بنبلك وطيبتك وصفاء جوهرك، أو بطبعك اللطيف الفاخر الشريف. فكل نبيل واع، وكل واع مصلوب حتماً، وكل مصلوب هو، بالبداهة، من النحلة الملكية للسيد المسيح، عليه السلام.

مخيم اليرموك
نـــــوار، 2007